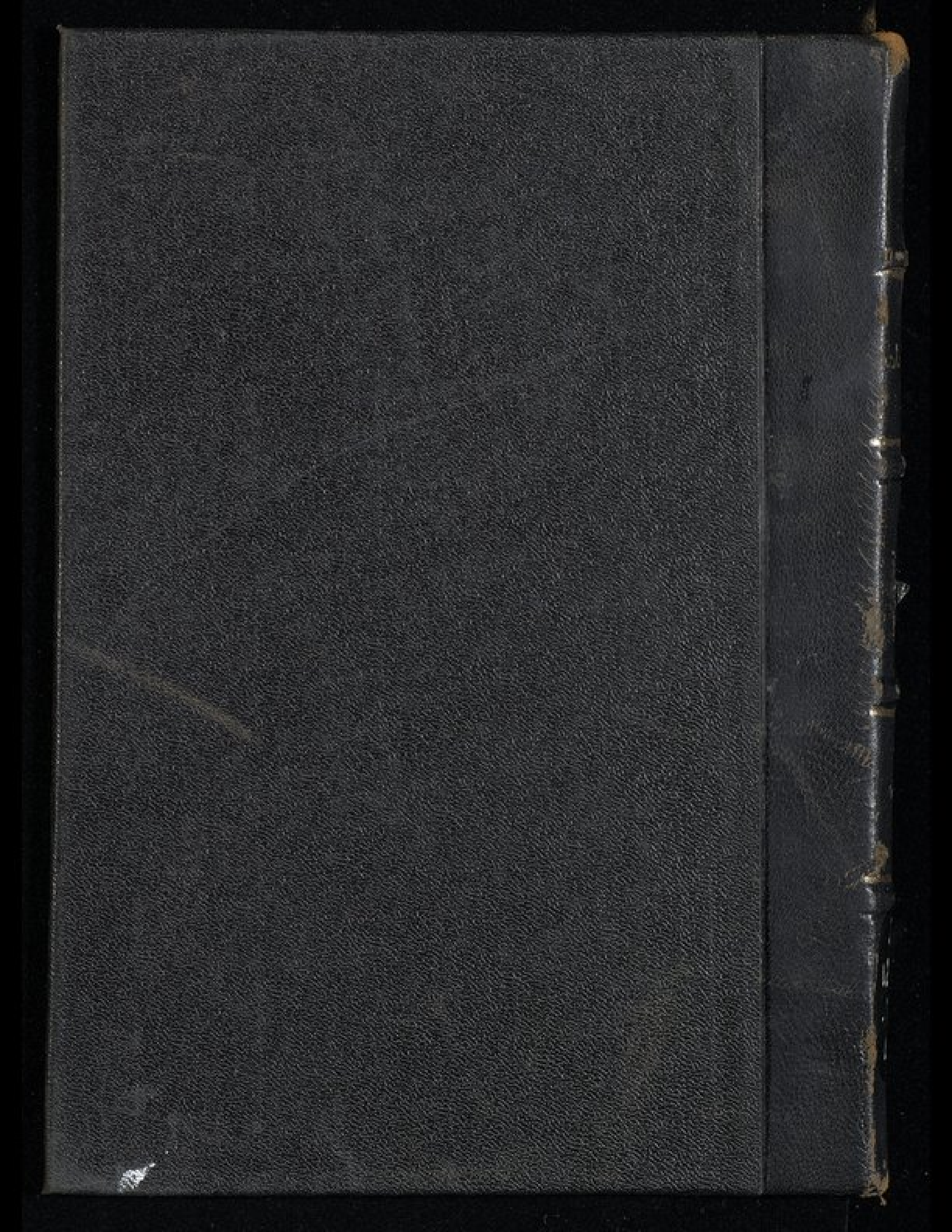
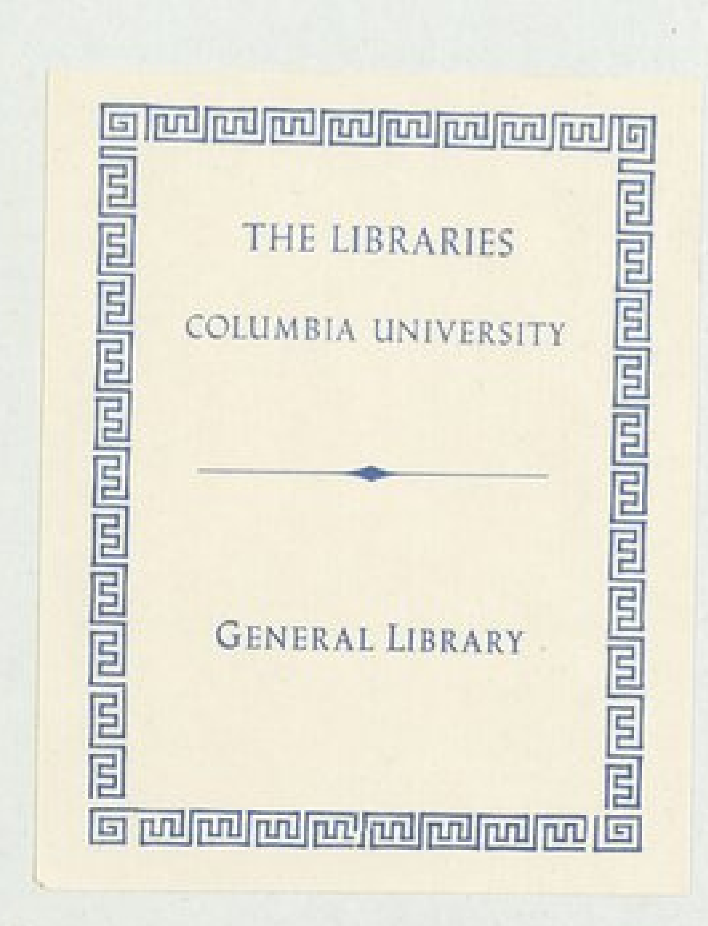
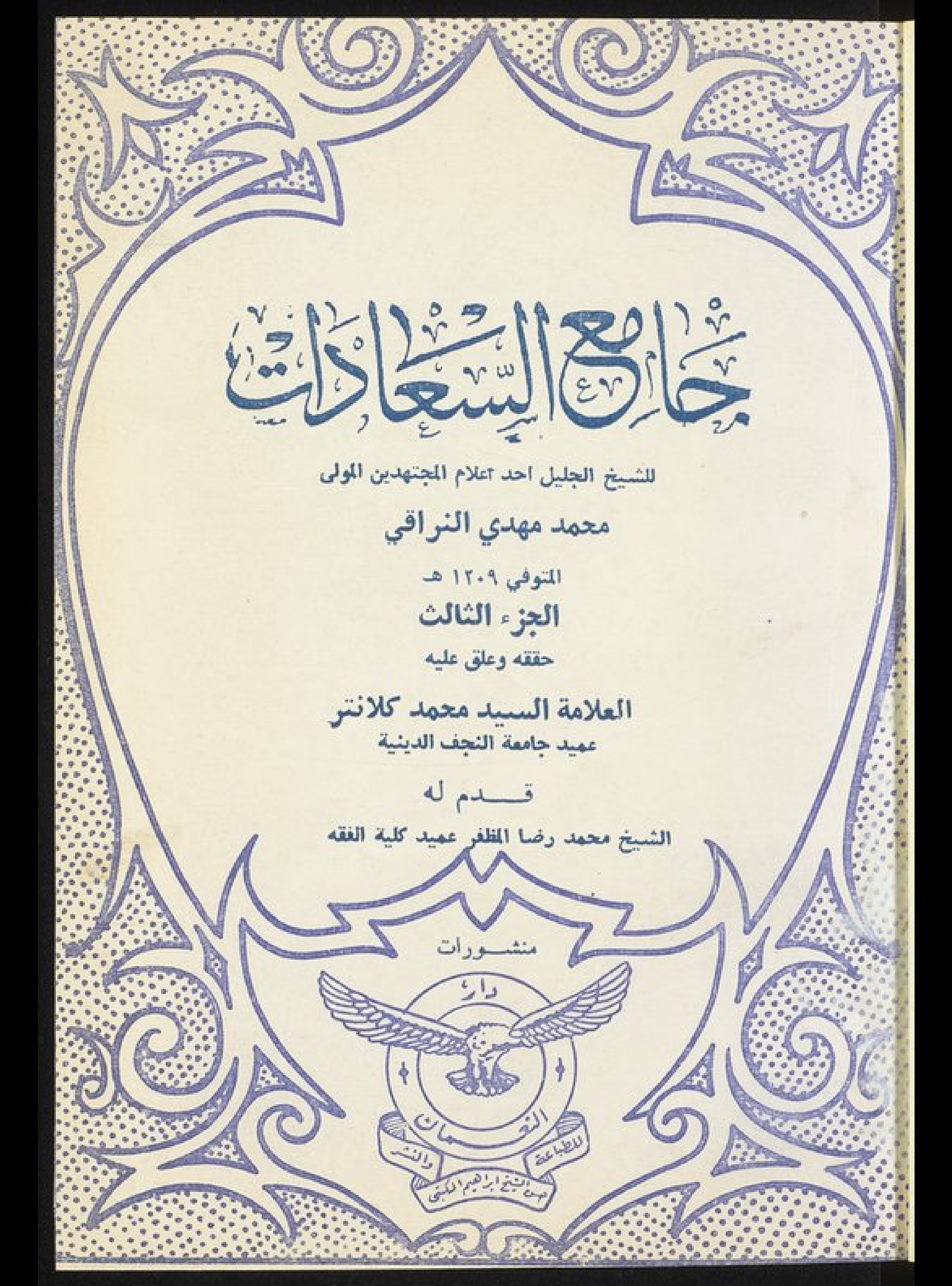



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY



جامع السعادات

للشيخ الجليل احد اعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

حققه وعلق عليه

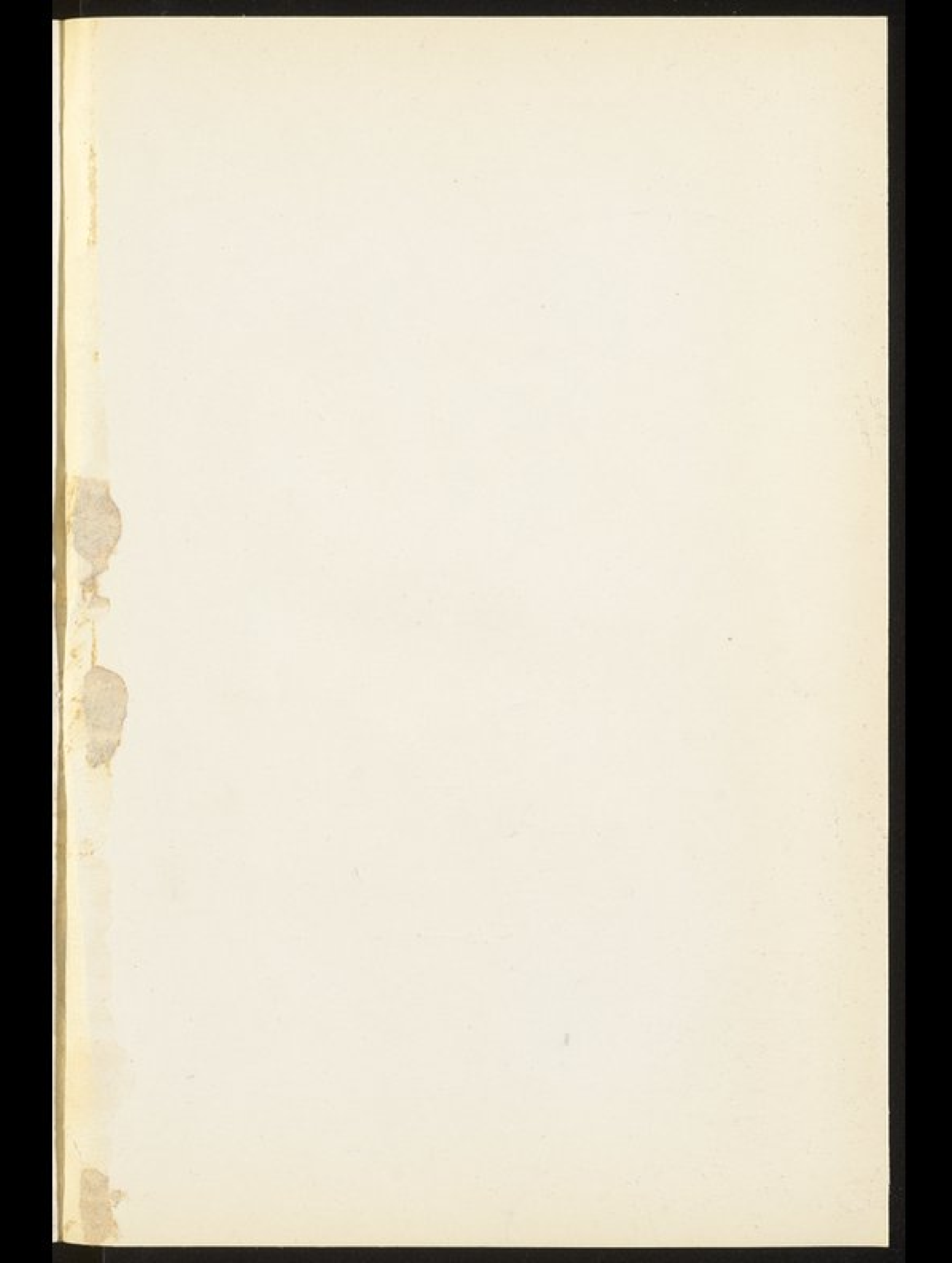
العلامة السيد محمد كلانتر

عميد جامعة النجف الدينية

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

منشورات



جامع السعادات

للشيخ الجليل احد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

حققه وعلق عليه

العلامة السيد محمد كلانتر

عميد جامعة النجف الدينية

قـــدم لـه

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الرابعة



بسم الله الرحمن الرحيم

بقية المقام الرابع

ومنها [1] :

الغرور

معنى الغرور ــ ذمه ــ طوائف المغرورون من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين ــ المغترون من أهل العلم وفرقهم ــ المغترون من الوعاظ كثيرون ــ المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة ــ المغترون من المتصوفة أكثر ــ المغترون من الاغنياء أكثر من سائر الطوائف ــ ضد الغرور والفطانة والعلم والزهد .

وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير اما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . ولما كان اكثر الناس ظانين بانفسهم خيرا ، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الاعمال والافعال وخيريته ، مع انهم مخطئون فيه، فهم مغرورون ،مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير ؛ كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها ، يظن أن هذا خير له وسعادة ، مع أنه محض الغرور ؛ حيث خدعه الشيطان وأراه ماهو شر له خيرا ، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته ،يظن أنه في طاعة الله ؛ مع انه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته .

ثم لا ريب في أن سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، ويميل الطبع اليه عن شبهة ومخيلة ، مركب من امرين : (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع ، (وثانيهما) حبها وطلبها باطنا لمقتضيات الشهوة او الغضب . فان الواعظ اذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقدا أنه يجلب به الثواب ، تكون له رغبة الى الجاه واعتقاد بكونه خيرا له ،اذ الغني اذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة ، وواظب على العبادة معتقدا أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وان كان بخيلا ، يكون له حب

---

(١) اى من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث اوبجميعها : وهى القوة العاقلة والغضبية والشهوية. وهذه الرذيلة «الواحدة والعشرون» منها

للبال واعتقاد بأنه على الخير. ثم الاعتقاد المذكور راجع الى نوع معين من الجهل المركب ، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئا يوافق الهوى ، فيكون من رذائل القوة العاقلة ؛ والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتي الغضب والشهوة . فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث ، أو من رذائل العاقلة مع احداهما .

فصــل

ذم الغرور

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وام كل شقاوة ، ولذا ورد فيه الـذم الشديد في الآيات والاخبار ، قال الله — سبحانه — :

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور » (٢) . وقال — عزوجل « ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » (٣) .

وقال رسول الله (ص) : « حبذا نوم الاكياس وفطرهم ، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الارض من المغترين » . وقال الصادق (ع) : « المغرور في الدنيـا مسكين ، وفي الآخرة مغبون ، لانه باع الافضل بالادنى ، ولا تعجب من نفسك ؛ فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى . وربمـا اغتررت بطول عمرك واولادك واصحابك لعلك تنجو بهم . وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك ، فظننت أنك صادق ومصيب . وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ، ولعـل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك . وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفا والله يريد الاخلاص . وربما افتخرت بعلمك ونسبك ، وأنت غافل عن مضمرات مافي غيب الله تعالى . وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه . وربما حسبت انك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك أن يميلوا اليك . وربما

---

(٢) لقمان ، الآية : ٣٣ فاطر ، الآية : ٥

(٣) الحديد ، الآية : ١٤

ذممت نفسك وانت تمدحها على الحقيقة »[٤] .

فصـــل

طوائف المغرورين

اعلم ان فرق المغترين كثيرة ، وجهات غرورهم ودرجاتـه مختلفـة، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر ، الا ويوجد فيهم فرق من المغترين . الا أن بعض الطوائف كلهم مغترون ، كالكفار والعصاة والفساق ، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور ، وان كان معظم كل طائفة أرباب الغرور . ونحن نشير الى مجاري الغرور ، والى غرور كل طائفة ، ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه ، اذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه ان يأخذ منها حذره ، ويبني على الجزم والبصيرة أمره . فنقول :

الطائفة الاولى

الكفـار

وهم مغرورون بأسرهم ، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا ، وبين من غره الشيطان بالله ؛ وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم : (أولهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة ،والنقد خير من النسيئة . (وثانيهما)أن لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها ، واليقيني خير من المشكوك ، فلا يترك به . وهذه اقيسة فاسدة ، تشبه قياس أبليس ؛ حيث قال :

« أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (٥)

وعلاج هذا الغرور ــ بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقية النبي (ص) ، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والادلة ــ اما أن يتبع مقتضى ايمانه ويصدق الله تعالى في قوله :

« ماعندكم ينفد وما عند الله باق » (٦) .وفى قوله تعالى « والآخرة خير

(٤) صححناه على مصباح الشريعة : الباب ٣٦ .

(٥) الاعراف الآية : ١١ ، ص الآية : ٧٦

(٦) النحل الآية : ٩٦

وابقى » (٧) . وقوله : « وما عند الله خير وابقى » (٨) . وقوله : « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (٩) . وقوله تعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (١٠) .

واما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين ، حتى يزول عن نفسه ما تأديا اليه من الغرور . وطريق معرفة الفساد في (القياس الاول) : أن يتأمل في أن كون الدنيا نقدا والآخرة نسيئة صحيح ، الا أن كون كل نقد خيرا من النسيئة غير صحيح ، بل هو محل التلبيس ؛ اذ المسلم خيرية النقد على النسيئة ان كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء ، وأما ان كان أقل منها في ذلك وأدون ، فالنسيئة خير ، ألا ترى أنهذا المغرور اذا حذره الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفا من ألم المرض في الاستقبال ويبذل درهما في الحال ليأخذ درهمين نسيئة ، ويتعب في الاسفار ويركب في الحال لأجل الراحة والربح نسيئة . وقس عليه جميع أعمال النـاس وصنائعهم في الدنيا : من الزراعة والتجارة والمعاملات ، فانهم يبذلون فيها المال نقدا ليصلوا الى أكثر منه نسيئة ، فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال ، فأنسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة الى لذة الآخرة من هذه الحيثيات ، فان من عرف حقيقة الدنيا والآخرة ، يعلم أنه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة الى الآخرة ، على أن لذة الدنيـا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ، ولذات الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء من المكدرات .

وأما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) بأصليه : هو ان يعرف أن كون لذات الآخرة مشكوكا فيها خطأ ، وأن كل يقيني خير من المشكوك غلط : (أما الاول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة . وليقينهم مدركان : ـ أحدهما ـ ما يدركه عموم الخلق ، وهو اتفاق عظماء الناس

---

(٧) الاعلى ، الآية : ١٧
(٨) القصص الآية: ٦٠ . الشورى الآية : ٣٦
(٩) آل عمران ، الآية : ١٨٥ . الحديد الآية ٢٠
(١٠) لقمان ، الآية : ٣٣ ، فاطر الآية : ٥

من الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء ، فان ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل ، كما أن المريض الذي لايعرف دواء علته اذا أتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا ، فانه تطمئن نفسه الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، وان كذبهم صبي أو معتوه او سوادي . ولا ريب في أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين بالنظر الى المخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الانبياء والاولياء أدون حالا وأقل رتبة من صبى أو معتوه أو سوادي بالنظر الى أطباء بلد أو مملكة . — وثانيهما — مالا يدركه الا الانبياء والاولياء ، وهو الوحي والالهام ،فالوحي للأنبياء والالهام والكشف للاولياء فانه قد كشفت لهم حقائق الاشياء كما هي عليها ، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ، ولا تظن ان معرفة النبي (ص) لأمر الآخرة ولأمور الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه ، كما أن معرفتك لها تقليد للنبي ، هيهات ! فان الانبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت ، وينظرون اليهابعين البصيرة واليقين ، وان أكد ذلك بالقاء الملك والسماع منه .

وأما المغرورون بالله ، وهم الذين يقدرون في أنفسهم ويقولون بألسنتهم: ان كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظا وأسعد حالا من غيرنا ، كما أخبر الله — سبحانه — عن قول الرجلين المتحاورين ، اذ قال :

« وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربىلاجدن خيرا منهامنقلبا»(١١)

وباعث ذلك : ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة الى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون الى تأخير اللهالعذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة ، كما قال الله — تعالى — :

« ويقولون فى انفسهم لولايعذبنا الله بما نقول حسبهم يصلونها فبئس المصير » (١٢) .

ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء محتاجون ، فيقولون : لوأحبهم الله لأحسن اليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن الينا فيها ، فلما لم يحسن

---

(١١) الكهف ، الآية : ٣٧ .

(١٢) المجالدة الآية : ٨

اليهم في الدنيا وأحسن الينا فيها فيكون محبا لنا ولا يكون محبا لهم ، فيكون الامر في الآخرة كذلك ، كما قال الشاعر :

كما أحسن الله فيما مضى   كذلك يحسن فيما بقى

ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة ، فان من ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد اغتر بالله ، اذ ظن أنه كريم عند الله ، بدليل لايدل على الكرامة بل يدل عند أولى البصائر على الهوان والخذلان ، لان نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله ؛ وأن الله يحمى احباءه الدنيا كما يحمى الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الاطعمة ، ومثل معاملة الله — سبحانه — مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق ، حيث يزوى الدنيا عن الاول ويصب نعمها ولذاتها على الثاني ، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر ، فيمنع الاول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ، ليعلمه الادب ويمنعه من لذائذ الاطعمة والفواكهالتي تضره ويسقيه الادوية البشعة التي تنفعه ، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كل ما يشتهي ، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته ، وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتهياته ، كان مغرورا أحمق ، وقد كان الخائفون من ذوي البصائر اذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ، واذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين ! وأما المغرورن فعلى خلاف ذلك ، لظنهم أن اقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن ادبارها عنهم هوان لهم ، كما أخبر الله — تعالى — عنه بقوله :

« فأما الانسان اذا مابتلاه ربهفأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ،واما اذا مابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن »(١٢) .

وعلاج هذا الغرور : أن يعرف ان أقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان ، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب الى الله — سبحانه — والطريق الىهذه المعرفة : اما ملاحظة أحوال الانبياء والاولياء

(١٢) الفجر الآية : ١٥ — ١٦

وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الاتقياء ، او التدبر في الآيات والاخبار. قال الله — سبحانه — :

« أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون » (١٤) . وقال الله — سبحانه — « سنستدرجهم من حيث لايعلمون » (١٥) . وقال تعالى : « فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناهم بغية فاذاهم مبلسون »(١٦) .وقال — تعالى — : « انما نملى لهم ليزدادوا اثما » (١٧) . . الى غير ذلك من الآيات والاخبار .

ومنشأ هذا الغرور : الجهل بالله وبصفاته ، فان من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر الى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة ، كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا ، وقد حذر الله عباده عن مكره وأستدراجه فقال :

« فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون » (١٨) وقال : « ومكروا ومكرالله والله خير الماكرين » (١٩) .

الطائفة الثانية

العصاة والفساق من المؤمنين

وسبب غرورهم وغفلتهم : اما بعض بواعث غرور الكافرين — كما تقدم — أو ظنهم ان الله — تعالى — كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة ، وأين معاصي العباد في جنب بحاررحمته ، ويقولون : أنا موحدون ومؤمنون ، فكيف يعذبنا مع التوحيد والايمان ، ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء — كما تقدم — . وربما أغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم ، كأغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف

---

(١٤) المؤمنون ، الآية : ٥٦ — ٥٧
(١٥) الاعراف ، الآية : ١٨١ ، القلم الآية : ٤٤
(١٦) الانعام ، الآية : ٤٤
(١٧) آل عمران ، الآية : ١٨٧
(١٨) الاعراف ، الآية : ٩٩
(١٩) آل عمران ، الآية : ٥٤ .

والورع . وعلاج هذا الغرور : أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمني المذموم ، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا ، بل هو تمنٍ مذموم ، كما قال رسول الله (ص) : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » . فان الرجاء لاينفك عن العمل ، اذ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه ، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو لم ينكح ، او نكح ولم يجامع ، او جامع ولم ينزل ، فهو مغرور أحمق ؛ كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، او آمن ولم يترك المعاصي ، او تركها ولم يعمل صالحا ؛ فهو مغرور جاهل ، كيف وقد قال الله — سبحانه — :

« ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » (٢٠)

يعني أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم ، وذلك لأن ثواب الآخرة آجر وجزاء على الاعمال ، كما قال — تعالى — :

« جزاء بما كانوا يعملون »(٢١) .وقال : « وانما توفون أجوركم يوم القيامة »(٢٢) .وقال : « وان ليس للاءنسان الا ماسعى ، وان سعيه سوف يرى » (٢٣) وقال : « كل نفس بما كسبت رهينة (٢٤) .

أفترى أن من استوجر على أصلاح او ان وشرط له أجرة عليها ،وكان الشارط كريما يفي بوعده وشرطه ، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه، فجاء الاجير وكسر الاواني وأفسدها جميعا ، ثم جلس ينتظر الاجر زعما منه أن المستأجر كريم ، أفيراه العقلاء في انتظاره راجيا او مغرورا متمنيا ؟ وبالجملة : سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة ، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق .

ثم ان المغرور بعلو رتبة آبائه ، ظانا ان الله تعالى يحب آباءه ، ومن

---

(٢٠) البقرة ، الآية : ٢١٨
(٢١) السجدة الآية : ١٧ ، الاحقاف الآية : ١٤ . الواقعة ، الآية٢٤
(٢٢) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .
(٢٣) النجم الآية : ٣٩ — ٤٠ .
(٢٤) المدثر الآية : ٣٨

أحب انسانا أحب أولاده ، أشد حمقا من المغرور بالله ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما ، فكما أنه لايبغض الاب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لايحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، وليس يمكن أن يسرى من الاب الى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى ، اذ لاتزر وازرة أخرى ، فمن زعم انه ينجو بتقوى أبيه ، كان كمن زعم انه يشبع بأكل أبيه ؛ او يصير عالما بتعلم أبيه ، او يصل الى الكعبة بمشي أبيه ، فهيهات هيهات ! ان التقوى فرض عين على كل أحد ، فلا يجزى والد عن ولده شيئا ، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، ولا ينفع أحد أحدا الا على سبيل الشفاعة ، بعد تحقيق شرائطها .

ثم العصاة المغرورن ، اما ليست لهم طاعات ، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل ـ كما مر ـ ، او لهم طاعات ولكن معاصيهم اكثر ، وهم عالمون بأكثرية المعاصي ، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على على سيئاتهم ، وهو أيضا غاية الجهل ، اذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفه ميزان وفي الكفة الاخرى ألفا او ألفين ، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة ، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته اكثر من معاصيه ، لأنه لايحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، واذا عمل طاعة حفظها وأعتد بها، كالذي يحج طول عمره حجة ويبني مسجدا ، ثم لايكون شيء من عباداته على النحو المطلوب ، ولا يجتنب من أخذ أموال المسلمين ، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره ، ويقول : كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجدا ؟ وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لايرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد ، ويكون نظره الى عدد سبحته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، فهو يتأمل دائما في فضيلة التسبيحات ، ولا يلتفت الى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفحاشين ، ولو كان كتبة اعماله يطلبون منه أجرة الزايد من هذيانه على تسبيحاته ، لكان عند ذلك يسعى في كف لسانه

عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته ، حتى لايكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه أجرة نسخ الزائد . فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا أن يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفا من فوت العليين ومجاورة رب العالمين !

الطائفة الثالثة

اهــل العلم

والمغترون منهم فرق :

(فمنهم) من أقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة ، ليتفاخر في أندية الرجال ويتفوق على الاقران والامثال ، من غير أن يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد ، بل يختار تارة ذاك وتارة هذا ، وتكون عقيدته كخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس وأعلمهم بالله وبصفاته.

و (منهم) من أقتصر من العلم على علم النحو واللغة ، او الشعر أو المنطق ، واغتر به وافنى عمره فيها ؛ وزعم ان علم الشريعة والحكمةموقوف عليها ؛ ولم يعلم أن ما ليس مطلوبا لذاته ويكون وسيلة الى ما هومقصود لذاته يجب ان يقتصر عليهبقدر الضرورة ، والتعمق فيه الى درجات لاتتناهى فضول مستغنى عنها ، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته .

و (منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه ، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس ، واشتغل بأجراء الاحكام ؛ وأعرض عن علم العقائد والاخلاق ، بل عن فن العبادات من الفقه ، وأهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الاخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحــه وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات .

و (منهم) من حصل فن العبادات أيضا ، بل أحكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها وأشتغل ، ولكن ترك العلم الالهي وعلم الاخلاق ، ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي ، ولم يعمرها بالطاعات .

و (منهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية ، وتعمق فيها وأشتغل بها ، الا أنه اهمل العمل رأسا ، او واظب على الطاعات الظاهرة

وأهمل صفات القلب ، وربما تفقد صفات القلب واخلاق النفس أيضا ، وجاهد نفسه في التبرّي عنها ، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية ؛ ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان ؛ وخبايا وتلبيسات النفس ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها .

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون ، اذا كان اعتقادهم أنهم على خير وسعادة ، وان كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة ، اذ سعادةالنفس وخلاصها عن العذاب لاتحصل الا بمعرفة الله — تعالى — ومعرفة صفاته وأفعاله وأحوال النشأة الآخرة ، والعلم برذائل الاخـلاق وشرائفها ، ثم تهذيب الباطن بفضائل الاخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والاعمال ، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم — أعني معرفةسلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول الى الله — وظن انه على خير كان مغرورا ، اذا مات ملوثا بتلك الصفاتكان محجوبا عن الله ، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره ، فهو كمن له مرض خاص مهلك فأحتاج الى تعلم الدواء وأستعماله ، فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة ، كما ان من أحكم العلوم بأسرها وترك العمل ، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه ، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه ، فانه لاريب في ان مجرد تعلم الدواء لايشفيه ، بل لو كتب منه الف نسخة وعلمه الف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئا ، حتى يشترى هـذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته ، ومع شربه وأستعماله يكون على خطر من شفائه ، فكيف اذا لم يشربه أصلا ، فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور ، فكذلك من أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم عـلم المعاصي ولم يجتنبها ؛ واحكم علم الاخلاق ولم يزك نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها ، فهو في غاية الغرور ، اذ قال الله تعالى :

((قد افلح من زكاها)) (٢٥)

---

(٢٥) الشمس الآية : ٩

ولم يقل : قد أفلح من علم طريق تزكيتها .

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الاخلاق والغرور ، أدى بهم الى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها ، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها، وانما يبتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم . ثم اذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال : ما هذا تكبرا ، انما هو طلب أعزاز الدين ؛ واظهار شرف العلم ؛ وارغام انف المخالفين . ومهما ظهرت منه آثار الحسد ، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئا من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، بل يقول : ان هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه ، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم، ورد عليه قوله ، ومنع من منصبه ، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن ، بل ربما يفرح به ؛ ولو كان غضبه للحق لا للحسد على أقرانه وخبث باطنه ، لاستوى غضبه في الحالين . واذا خطر له خاطر الرياء قال: غرضي من أظهار العلم والعمل أقتداء الخلق بي ، ليهتدوا الى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لايخليه الشيطان ، بل يقول : انما ذلك لأنهم اذا أهتدوا بي كان الاجر والثواب لي ، ففرحي انما هو بثواب الله لابقبول الخلق ، هذا ما يظن بنفسه ، والله مطلع على سريرته ، اذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعا بأن ثوابه في الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الاظهار ، لاحتال مع ذلك في اظهار رئاسة ؛ من تدريس او وعظ او امامة أو غير ذلك . واذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويثنى عليهم ويتواضع لهم ، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام ، قال له الشيطان : ان ذلك عند الطمع في مالهم ، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع ، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان ، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل أحد ، وهو لايزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين ، يثقل ذلك عليه ، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل . وربما انتهى الغرور في بعضهم

الى أن يأخذ من أموالهم المحرمة ، واذا خطرله أنها حرام ، قال له الشيطان: هذا مال مجهول المالك يجب ان يتصدق به امام المسلمين ، وأنت امامهم وعالمهم ، وبك قوام دين الله؛ فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين ، فيغتر بهذا التلبيس ، ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئا منها في مصرف غيره . وربما انتهى الغرور في بعضهم الى حيث انه اذا حضرت مائدتهم وأكل طعامهم وقيل له : ان هذا لايليق بمثلك . قال : الا كل جائز بل واجب ، اذ هذا مال لايعلم مالكه ، فيجب التصدق به على الفقراء ، ويجب على مثلى بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وايصاله الى أهله — أعني الفقراء — وأكلى منها نوع قدرة على استخلاصه ، فآكل منه واتصدق بقيته على الفقراء ، والله يعلم من باطنه أنه لايتصدق بقيته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله ، وانما هو تلبيس ألقاه الشيطان في روعه ، لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه ، وربما كان بحيث لايبالي من أخذ مالهم وأكل طعامهم خفية ، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به ، امتنع منه غاية الامتناع . وربما كان بعضهم في الباطن مائلا الى الدخول على السلاطين والامراء وتاركا له في الظاهر ، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة ، ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه . وربما كان بعضهم امام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الاسلام ، ومع ذلك لو أمَّ غيره ممن هو أعلم وأورع منه في مسجده ، او يتخلف بعض من يقتدى به عن الاقتداء به ، قامت عليه القيامة ، وربما لم يكن باعثه على الحركة الى المسجد للامامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله ، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة ، او مركبا منه ومن نية الثواب . وربما اتخذ بعضهم الامامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش ، ومع ذلك يظن أنه مشتغل بأمر الخير ، والظاهر في أمثال زماننا ندور الامام الذي كان قصده من الامامة مجرد التقرب الى الله ، من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب ، او تحصيل المال ، او دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه ، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب ان تشد

الرحال من المواضع البعيدة اليه ليقتدى به ، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب الى المسجد للامامة ذهب ، ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف ، وصلي منفردا ، وهو الذي يستوى عنده اقتداء الناس به وعدمه ، ويستوى عنده كثرة المقتدين وقلتهم ؛ بل يكون حاله عند صلاته وهو امام لجم غفير كحاله عند صلاته منفردا ، من دون ان يجد في نفسه تفاوتا في الحالين .

وبالجملة : أصناف غرور أهل العلم — (لا) سيما في هذه الاعصار — كثيرة ، والمتأمل يعلم ان الغرور او التلبيس او غيرهما من ذمائم الافعال انتهى في بعضهم الى أن وجودهم مضر بالاسلام والمسلمين وموتهم أنفع للايمان والمؤمنين ، لانهم دجالو الدين وقوّامو مذهب الشياطين ، ومثلهم كما قال عيسى ابن مريم (ع) : « العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص الى الزرع » .

الطائفة الرابعة

الوعـاظ

والمغترون منهم كثيرون :

(فمنهم) من يتكلم في وعظه في أخلاق ، النفس وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والتوكل ؛ والرضا ، والصبر ؛ والشكر ؛ ونظائرها ؛ ويظن انه اذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق اليها صار موصوفا بها ، وهو منفك عنها في الواقع ، الا عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين ، ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر ، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من أقرانه وصلحوا على يديه ، وكان أقوى منه في الارشاد والاصلاح ، لمات غما وحسدا ؛ ولو اثنى احد المترددين عليه على بعض أقرانه ، لصار أبغض خلق الله اليه .

و (منهم) من أشتغل بالشطح والطامات ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة ، وتصنع التشبيهات والمقدمات ، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها ؛ طلبا للاعوان والانصار ؛ وشوقا الى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرغبات

في مجلسه ، والتذاذا بتحريك الرؤس على كلامه والبكاء عليه ، وفرحا بكثرة الاصحاب والمستفيدين والمعتقدين به ، وسرورا بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الاقران ، وربما لم يبال بالكذب في نقل الاخبار والآثار ، ظنا منه أنه اوقع في النفوس وأشد تأثيرا في رقة العوام وتواجدهم • ولا ريب في أن هؤلاء شرّ الناس ، بل شياطين الانس ، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، اذ الاولون ان لم يصلحوا أنفسهم ؛ فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم ، وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق الى الغرور بالله ، لأن سعيهم في ذكر ما يسر به العامة ، ليصلوا به منهم الى أغراضهم الفاسدة ، فلا يزالون يذكرون ما يقوى الرجاء ، ويزيدهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا ، (لا) سيما اذا كان هذا الواعظ أيضا ممن يرغب الى الدنيا ، ويسر بوصول المال اليه ؛ ويتزين بالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة ، وغيرهما من زينة الدنيا • فشله ممن يضل ويكون أفساده أكثر من أصلاحه ، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين ، فهو أشد المغرورين والغافلين •

و (منهم) من هذب أخلاقه ، وراقب قلبه ، وصفاه عن جميع الكدورات ، وصغرت الدنيا في عينه ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم ، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله الى نصحهم واستخلاصهم عن أمراض المعاصي بالوعظ ، فلما أستقل به وجد الشيطان مجال الفتنة ، فدعاه الى الرئاسة دعاء خفيا — أخفى من دبيب النملة — لايشعر به ، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه الى التصنع والتزين للخلق : بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات ، والتصنع في الزي والهيئة والشمائل ، وأقبل الناس اليه يعظمونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك ، اذ رأوه شافيا لأمراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له كالخدم والعبيد ، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه ، وذاق لذة ياله من لذة ، وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ؛ فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا ؛ فقد غره الشيطان على ما لايشعر به • وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه : انه لو ظهر من أقرانه

من مالت القلوب الى قبوله ؛ وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه ؛ شق ذلك عليه ؛ اذ لو لا أن النفس قد أستبشرت واستلذت بالرئاسة لـكان يغتنم ذلك .

وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ الا اذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم الى الله ــ تعالى ــ ، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على أرشادهم أو اهتدائهم من عند انفسهم ، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم ، واستوى عنده حمدهم وذمهم ، ولم يبال بذمهم اذا كان الله يمدحه ، ولم يفرح بمدحهم اذا لم يقترن به مدح الله ، ونظر اليهم كما ينظر الى من هو أعلم منه وأورع ، حيث لاينكر عليه ويراه خيرا من نفسه ، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله بالخاتمة ، والى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم ، فانه لايبالي كيف يراه البهائم ، فلا يتزين لها ؛ اذ راعي الماشية انما غرضه رعايتها ودفـع الذئب عنها ، دون نظر الماشية اليه بعين المدح والثناء .

ثم لو ترقى الواعظ ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان ، واشتغل بنفسه وترك النصح ، او نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص ، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور ، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور ، وهو المهلك الاعظم من كل ذنب ، ولذلك قال الشيطان: « يابن آدم ! اذا ظننت أنك بعملك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي » . ثم لو دفع عن نفسه العجب ، وعلم أن ذلك من الله تعالى لامنه، وأن مثله لايقوى على دفع الشيطان عنه الا بتوفيق الله ، وأنه ضعيف عاجز لايقدر على شيء أصلا ، فضلا عن دفع الشيطان ، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل . ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور ، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها ، ان يرى ذلك كله من فضل الله ، وكان خائفا على نفسه من سلب حاله في كل لحظة، وغير آمن من مكر الله ، وغير غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لامحيص عنه وخوف لانجاة منه ، الا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة ، ولذلك

لما ظهر الشيطان لبعض الاولياء في وقت النزع ــ وكان قد بقي له نفس ــ قال : (أفلت مني يافلان ! ؟) ، فقال : (لا ! بعد) .

الطائفة الخامسة

اهل العبادة والعمل

والمغرورون منهم فرق كثيرة :

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في ازالة النجاسة وفي الوضوء ، فيبالغ فيه ولا يرتضى الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة ، واذا آل الامر الى الاكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل ، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيدا لحله ، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الاولياء . ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب احدى يديه على وجهه أو يده الاخرى ولا يدري هذا المغرور أن هذا العمل ان كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعا فهو تضييع للعمر الذي هو أعز الاشياء فيما له مندوحة عنه ، وان كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء الى البشرة . فما باله يتيقن بوصول الماء الى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط مع أن حصول القطع بايصال الماء الى البشرة في الغسل ألزم وأوجب . ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات ، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء ، زاعما أن هذا يكفى لنجاته ، فهو مغرور في غاية الغرور .

و(منهم) من أغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة او فضيلة الوقت ، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه ، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته ، ولا يحضر قلبه ، ويغتر بذلك ، ويظن أنه اذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير . وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة ، وأخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار عن مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج

والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة ، من غير اهتمام فيما عدا ذلك ، من حضور القلب والتفكير في معاني الاذكار ، ظنا منه أنه اذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة ، وهذا أقبح أنواع الغرور •

و (منهم) من أغتر بالصوم ، وربما صام الايام الشريفة ، بل صام الدهر ، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة ؛ ولا بطنه عن الحرام عند الافطار ، ثم يظن بنفسه الخير ، وذلك في غاية الغرور •

و (منهم) من أغتر بالحج ، فيخرج الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ، ويضيع في الطريق الصلاة ، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الاخلاق وذمائم الصفات ، ومع ذلك يظن أنه على خير • فهو في غاية الغرور •

و (منهم) من أغتر بقراءة القرآن ، فيهذه هذاً ، وربما يختم في اليوم والليلة مرة ، فيجرى به لسانه ، وقلبه مردد في أودية الاماني ، وربما أسرع في القراءة غاية السرعة ، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات ، ويتفاخر به على الامثال والاقران •

و (منهم) من أغتر ببعض النوافل ، كصلاة الليل ، او مجرد غسل الجمعة ، أو امثال ذلك ؛ من غير أعتداد بالفرائض ؛ زاعما ان المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة ؛ فهو أيضا من المغرورين •

و (منهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن ، ظانا أنه ادرك رتبة الزهاد ، ومع ذلك راغب في الرئاسة بأشتهاره بالزهد ، فهو ترك أهون المهلكين بأعظمها ؛ اذ حب الجاه أشد فسادا من حب المال • ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان أقرب الى السلامة ، فهو مغرور ، اذ ظن أنه من الزهاد ؛ ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة ، وهو يحبها ، فكيف يكون زاهدا ؟

الطائفة السادسة

المتصوفة

والمغترون فيهم أكثر من ان يحصى :

(فمنهم) أرباب البوقات ، وهم القلندرية الذين لايعرفون معنى

التصوف ولا شيئا من مراسم الدين ، وصرفوا أوقاتهم في التكدي والسؤال من الناس ، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة ، مع أنهم لو ظفروا بشيء من أمور الدنيا لاخذوه بجميع جوارحهم . فهؤلاء ارذل الناس بوجوه كثيرة لاتخفى .

و (منهم) من اغتر بالزي ، والمنطق ، ولبس الصوف ، واطراق الرأس وادخاله في الجيب . وخفض الصوت ، وتنفس الصعداء ، وتحريك البدن في الطول والعرض ، والسقوط الى الارض ، (لا) سيما اذا سمعوا كلاما في الوحدة والعشق ، مع عدم أطلاعهم على حقيقة شيء منهما . وربما تجاوز بعضهم من ذلك الى الرقص والتصفيق ، وأبداء الشهيق والنهيق ، واختراع الاذكار ، والتغني بالاشعار ... وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة ، ويظن أن العبد بهذه الحركات والافعال يصل الى الدرجات العالية ، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد الى سخط الله وعذابه .

و (منهم) من وقع في الاباحة ، وطوى بساط الشرع والاحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام ، يتكالب على الحرام والشبهات ، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين . وربما قال : المال مال الله والخلق عيال الله ، فهم فيه سواء . وربما قال : ان الله مستغن عن عملي ، فأي حاجة الى ان أتعب نفسي فيه ؟ وربما قال : لا وزن لأعمال الجوارح ، وانما النظر الى القلوب ، وقلوبنا والهة الى حب الله واصلة الى معرفة الله . وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية ، وقالوا : انها لاتصدنا عن طريق الله . لقوة نفوسنا وقوة أقدامنا فيها ، وانما يحتاج العوام الى تهذيب النفس بالاعمال البدنية ، ونحن مستغنون عنه . فهؤلاء يرفعون درجتهم عن درجة الانبياء عليهم السلام اذ كانوا يصرحون بأن أرتكاب الامور المباحة فضلا عن الخطايا والمعاصي يصدهم عن طريق الله ، حتى يبكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح ، فهم أشد الناس غرورا ، وأعظم الخلق حماقة وجهلا .

و (منهم) من يدعى غاية المعرفة واليقين والوصول الى درجات المقربين ، ومشاهدة المعبود ، ومجاورة المقام المحمود ، والملازمة في عين الشهود ، وتلقف من الطامات كلمات يرددها ، ويظن أنه يتكلم عن الوحي

ويخبر عن السماء ، وينظر الى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء بعين الحقارة والازدراء ، يقول في العباد : انهم أجراء مبعوثون ، وفي العلمـاء : انهم بالحديث عن الله لمحجوبون ؛ ويدعى لنفسه من الكرامات مالا يدعيه نبي ولا ولى ، ويدعى كونه واصلا الى الحق فارغا عن أعباء التكليف ، لاعلما أحكم ولا عملا هذب ، لم يعرف من المعارف الا أسماء يتفوه بها عند الاغنياء للوصول الى بعض حطامهم الخبيثة ؛ فهو عند الله من الفخار المنافقين ؛ وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ؛ مع ظنه أنه من المقربين ، فهو أشد الغافلين المغرورين .

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الاعمال وشنائع الافعال الموجبـة للعبد عن طريق المروة ، ظنا منهم أن هذا موجب لكسر النفس وازالة ذمائم الاخلاق ، ولم يعلموا أن هذه الافعال من الذمائم ؛ وقد نهى صاحب الشرع عنه .

و (منهم) من أشتغل بالرياضة والمجاهدة ، وقطع بعض المنازل ، ووصل الى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته ، الا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات ، اما لاعتراض مفسد في اثناء السلوك ، او لوقوعه في الاثناء ظنا منه أنه وصل الى الله ولم يصل بعد ، فان لله سبعين حجابا من نور ، ولا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق الا ويظن أنه قد وصل ، واليه الاشارة في حـكاية الخليل ، حيث رأى أولا كوكبا ؛ فقال : « هذا ربي » ، ثم انتقل الى القمر ، ثم عنه الى الشمس؛ فانه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الاجسام المضيئة ، فانشأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة ، بل هذا ينافي شأنه ورتبته ، فالمراد بها الانوار التي هي من حجب الله ، ويراها السالك في الطريق ، ولا يتصور الوصول الى الله الا بالوصول الى هذه الحجب ، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض ؛ فأستعير لفظ الكوكب لصغره لاقل مراتبها ، والقمر لا وسطها ، والشمس لاعظم مراتبها ، والخليل (ع) لم يزل عند سيره في الملكوت يصل الى نور بعد نور ؛ ويتخيل اليه في أول ما يلقاه انه قد وصل ، ثم انكشف له أن وراءه أمر ، فيترقى اليه حتى وصل الى

الحجاب الاقرب ، فقال : هذا اكبر ؛ فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ، قال :

« لاحب الآفلين . انى وجهت وجهى . . . »(٢٦) .

فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وربما يغتر بالحجاب الاول ، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه ، فانه أيضا أمر رباني ونور من أنوار الله ، تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما ، اذ يظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه ، وهو في اول الامر كان محجوبا ، فاذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله — تعالى — ربما التفت صاحب القلب الى القلب ، فيرى من جماله الفائق مايدهشه ، فربما يسبق لسانه في الدهشه ، فيقول : اناالحق ! فان لم يتضح له ماوراء ذلك ، اغتر به ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من انوار الحضرة الآلهية ؛ ولم يصل بعد الى القمر ، فضلا عن الشمس ، فهو مغرور . وهذا محل الالتباس ، اذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون مايتراءى في المرآة فيظن انه لون المرآة ، وكما يلتبس مافي الزجاج بالزجاج فيظن انه لون الزجاج ، كما قيل :

رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها وتشاكل الامر
فكأنما خمر ولا قدح   وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح ، فرأو اشراق نور الله قد تلألأ فيه ، فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكبا في مرآة او في ماء ، فيظن ان الكوكب في المرآة او في الماء ، فيمد اليد اليه ، فهو مغرور . وانواع الغرور في طريق السلوك الى الله كثيرة لاتخفى على ارباب البصيرة .

ثم اكثر المتلبسين بلباس العارفين — مع كذبهم فيما يدعونه ؛ ونقصانهم في طريق السلوك ، وجهلهم بحقيقة الامر ، وعدم قطعهم جل المقامات — يتشبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيئتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم ، ظانين انهم بهذا التشبه يصلون الى مراتبهم ، فهيات هيهات ! ان الوصول الى درجة

---

(٢٦) الانعام ، الآية : ٧٦و٧٩

كل أحد انما تحصل بالاتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق بأخلاقه النفيسةدون التشبه به في حالاته الظاهرة ، وقد شبههم بعض الاكابر بامرأة عجوز سمعت ان الشجعان من المقاتلين تثبت اسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من اقطار المملكة ، فتاقت نفسها الى ان تكون مثلهم ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفرا ، وتعلمت من رجز الابطال ابياتا وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان ، وتلقفت جميع شمائلهم في الزى والمنطق والحركات والسكنات ، وتوجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان ،فلما وصلت اليه ، انفذت الى ديوان العرض ، وامرت بان تجرد عن المغفر والدرع وينظر الى حقيقتها ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدرشجاعتها فلما جردت فاذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لاتقدر على شيء فقيل لها :اجئت للاستهزاء بالملك واهل حضرته ؟ خذوها والقوها قدام الفيل ، فداسهاونحتها فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة ، اذاكشف عنهم الغطاء وصفاته .

وعرضوا الى القاضي الحق الذي لاينظر الى الزي واللباس بل الى سر القلب

الطائفة السابعة

الاغنياء وارباب الاموال

والمغترون فيهم اكثر من المغترين من سائر الطوائف :

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر مايظهر للناس بالاموال المحرمة ،وربما غصب ارض المساجد والمدارس وربما صير لها موقوفات اخذها من غير حلها ، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة ولذا يسعى في كتابة اسمه على احجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت اثره ، ويظن المسكين انه قد استحق المغفرة بذلك ، وانه مخلص فيه ، ولم يدر انه تعرض لسخط الله في كسب هذه الامــوال وفي انفاقها ، وكان الواجب عليه الامتناع عن اخذها من اهله ، واذا عصى الله واخذها ،كان الواجب عليه التوبة وردهاالى اهلها ، فان لم يبق من اخذها منه ولاورثته ، كان الواجبان يتصدق بها على المساكين، مع انه ربما كان في بلده اوفيجواره

مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولايعطيه درهما .

و(منهم) من ينفق الاموال في الصدقات ، الا انه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والافشاء للمعروف ، ويكره التصدق في السر ، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها ، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب ان يعطى اهل البلاد الأخر مع اكثرية استحقاق فقراء بلده ، طلبا لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة ، وربما يصرف كثيرا منه الى رجل معروف في البلاد وان لم يكن مستحقا ، ليشتهر ذلك في البلاد ، ولايعطى قليلا منه الى فقير لهغاية الاستحقاق اذا كان ، خامل الذكر ، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الاجر والثواب ، ولم يدر المغرور ان هذا القصد احبط عمله واضاع ثوابه .

و(منهم) من يجمع مالا من غير حله ، ولايبالى باخذ المال من اى طريق كان ، ثم يمسكه غاية الامساك ، الا انه لايبالي بصرف بعضه في طريق الحج ، اما لنفسه فقط ، او لاولاده وازواجه ايضا ، اما للاشتهار ، اولما وصل اليه : ان تارك الحج يبتلى بالفقر .

و(منهم) من غلب عليه البخل ، فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله ، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة ، ظنا منه ان ذلك يكفى لنجاته ، ولم يدر ان البخل صفة مهلكة لابد من ازالتها ، وعلاجه : بذل المال دون العبادات البدنية . ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية ، وقد اشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفراء ، وغافل بان الحية تقتله الآن ومن قتلته الحية فاى حاجة له الى السكنجبين ؟

وصـــل

ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب فضده الفطانة والعلم والزهد فمن كان فطنا كيسا عارفا بربه ونفسه وبالاخرة والدنيا ، وعالما بكيفية سلوك الطريق الى الله وبما يقربه اليه وبما يبعده عنه ، وعالما بآفات الطريق وعقباته وغوائله ، لاجتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الامور ، اذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريبا في هذا العالم اجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، عرف كون هذه الشهوات مضرة له

وان الموافق له طبعا هو معرفة الله والنظر الى وجهه ؛ فلا يسكن نفسه الى شهوات الدنيا ومن عرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثارفي قلبه حب الله والرغبة الى دار الآخرة والانزجار عن الدنيا ولذاتها ، واذاغلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الامور كلها ، فان اكل — مثلا اواشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الاعراض والنزوع الى الدنيا والى الجاه والمال ؛ ومادامت الدنيا احب اليه من الآخرة وهوى نفسه احب اليه من رضاء الله ؛ لم يمكنه الخلاص من الغرور . فالاصل في علاج الغرور : ان يفرغ القلب من حب الدنيا ، ويغلب عليه حب الله ؛ حتى تتقوى به الارادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور . قال الصادق (ع) : « واعلم انك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمنى الا بصدق الانابة الى الله ، والاخبات له ؛ ومعرفة عيوب احوالك من حيث لايوافق العقل والعلم ، ولايحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى ، وان كنت راضيا بما انت فيه فما احد اشقى بعملك منك واضيع عمرا ؛ فاورثت حسرة يوم القيامة » .[٢٧]

ومنها :

طول الامل

معنى طول الامل ومرجعه — علاجه — ضد قصر الامل — اختلاف الناس في طول الامل — ذكر الموت مقصر للامل — التعجب ممن ينسى الموت — الموت اعظم الدواهي — مراتب الناس في ذكر الموت .

وهو ان يقدر ويعتقد بقاءه الى مدة متمادية ، مع رغبته في جميع توابع البقاء : من المال والاهل والدار وغير ذلك ، وهو من رذائل قوتى العاقلة والشهوة اذ الاعتقاد المذكور راجع الى الجهل المتعلق بالعاقلة ، وحبه لجميع توابع البقاء وميله اليه من شعب حب الدنيا . وجهله راجع الى تعويله : اما على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، ولا يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد ، وانما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، والى أن يموت شيخ يموت الف صبي وشاب،

(٢٧) صححناه على مصباح الشريعة — الباب ٣٦ .

أو على صحته وقوته ، ويستبعد مجيء الموت فجأة ، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد ، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد ، اذ كل مرض انما يقع فجأة ، واذا مرض لم يكن الموت بعيدا . ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم ان الموت ليس له وقت مخصوص ؛ من شباب وشيب وكهولة ، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع ، وليل ونهار ، وحضر وسفر ، لكان دائما مستشعرا غير غافل عنه ؛ وعظم أشتغاله بالاستعداد له ؛ لكن الجهل بهذه الامور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الامل ، فهو أبدا يظن ان الموت بين يديه ، ولا يقدّر نزوله ووقوعه فيه ، ويشيع الجنائز ولا يقدّر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه ؛ والفه بتكرر مشاهدة موت غيره . وأما موت نفسه ، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه ؛ لانه لم يقع ، واذا وقع لايقع دفعة أخرى بعده ، فهو الاول وهو الآخر !

وأما حبه لتوابع البقاء : من المال والدار والمراكب والضياع والعقار ، فراجع الى الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديـدة ، فيثقـل على قلبه مفارقتها ؛ فيمنع قلبه عن التفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، اذكل من كره شيئا يدفعه عن نفسه . والانسان لما كان مشغوفا بالاماني الباطلة، وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها ، فتتمنى نفسه أبدا ما يوافق مراده ، ومراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه ، ويقدر توابع البقاء من أسباب الدنيا ؛ فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه ، فان خطر له في بعض الاحيان أمر الموت والحاجة الى الاستعداد له ، سوف ووعد نفسه الى أن يكبر فيتوب. واذا كبر أخر التوبة الى أن يصير شيخنا ، واذا صار شيخا يؤخرها الى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، ولا يزال يسوف ويؤخر الى ان يخطفه الموت في وقت لايحتسبه ، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته ، وقد ورد أن أكثر اهـل النار صياحهم من سوف ، يقولون واحزناه من سوف ! والمسوف المسكين لايدري ان الذي يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا ، وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، اذ الخائض في الدنيا

لايتصور له الفراغ منها قط ، اذ ما قضى من أخذ منها لبانته ؛ وانما فرغ منها من أطرحها .

فصـــل

عــلاج طول الامل

لما عرفت أن طول الامل منشأه الجهل وحب الدنيا ؛ فينبغي ان يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة، فان من تفكر يعلم ان الموت أقرب اليه من كل شيء، وانه لابد ان تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به . وأما حب الدنيا فينبغي أن يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة ، وما ورد في الاخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا والرغبة اليها ، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها ؛ وقد تقدم ما يكفى لهذا البيان ، وينبغي — أيضا — أن يتذكر ماورد في مدح ضد طول الامل — أعني قصر الامل كما يأتي — وما ورد في ذم طول الامل ؛ كقوله (ص) : « ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان : أتباع الهوى ، وطول الامل . فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق ، وأما طول الامل فانه الحب للدنيا — ثم قال — : ان الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض واذا أحب عبدا أعطاه الايمان ، ألا ان للدين ابناء وللدنيا ابناء ، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا ان الدنيا قد ارتحلت مولية، ألا ان الآخرة قد اتت مقبلة ، ألا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وانكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل » [٢٨] . وقوله صلى الله عليه وآله : « نجا اول هذه الامة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل » . وقول أمير المؤمنين (ع) : « ما أطال عبد الامل الا أساء الامل » .

---

(٢٨) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٣٨٤/٤ ، وهو يرويه عن على عليه السلام عن النبي (ص) ولكن فى كنز العمال : ٢ / ١٦٩ ، يرويه ؛ انه من كلام على (ع) نفسه ، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء وعبارة الكنز ابلغ وارصن ، وفيه كلمة « الآخرة » بدل (الدين) ، ونفس الكلام مع اختلاف يسير أيضا (وهو أبلغ واعلى من العبارتين) مروى في نهج البلاغة : رقم ٤١ من باب الخطب ، فراجع .

وصـــل

قصر الامل

ضد طول الامل قصره ، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين ، ولذا ورد في الامر به والنهي عن ضده ما ورد ؛ قال رسول الله (ص) : « اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، واذا أمسيت فلاتحدث نفسك بالصباح، وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ؛ فانك لاتدري ما أسمك غدا » . وقال (ص) بعدما سمع ان أسامة اشترى وليدة بمائة دينار الى شهر : « ان اسامة لطويل الامل ، والذي نفسي بيده! ما طرفت عيناي الا ظننت ان شفري لايلتقيان حتى يقبض الله روحى ، ولا رفعت طرفي فظننت اني واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة الا ظننت اني لا اسيغها حتى اغص بها من الموت » ، ثم قال : « يابني آدم ! ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ! أن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » وروى : « أنه (ص) قد أطلع ذات عشية الى الناس؛ فقال : أيها الناس ! أما تستحيون من الله تعالى ؟ قالوا : وما ذاك يارسول الله ! قال : تجمعون مالا تأكلون ، وتأملون مالا تدركون ، وتبنون مالا تسكنون » . « وقال (ص) : اكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يارسول الله ! قال : قصروا من الامل ، وأجعلوا آجالكم بين ابصاركم ، واستحيوا من الله حق الحياء » . وكان (ص) يقول في دعائه : « آللهم اني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » . وكان (ص) يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ، ويقول لعلى لا أبلغه . وقال عيسى (ع) : « لاتهتموا برزق غد ، فان لم يكن غدا من آجالكم فستأتى أرزاقكم مع آجالكم ، وان لم يكن غدا من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم » .

فصـــل

اختلاف الناس فى طول الامل

الناس في طول الامل وقصره مختلفون : (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهيه أبدا ، كما قال الله — سبحانه — :

« يود احدهم لو يعمر الف سنة »(٢٩)

وهو الذي انغمر في الدنيا وخاض في لذاتها ، وليس له من الآخرة نصيب . (ومنهم) من يأمل البقاء الى أقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره ، وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا ، ويشتغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة ، وربما يجتهد بجمع الازيد منه . (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك الى أن ينتهي الى من لا يأمل ازيد من سنة ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل ، فان بلغه حمد الله على ذلك ، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف ، واذا جمع ما يكفيه السنة أشتغل بالعبادة . (ومنهم) من يأمل أقل من السنة الى أن ينتهى الى من لا يأمل أزيد من يوم وليلة ، فلا يستعد الا لنهاره دون غده . (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به وهو ينتظره ، ومثله يصلي دائما صلاة المودعين . وروى : « أن النبي (ص) سأل بعض الصحابة عن حقيقة ايمانه ، قال : ما خطوت خطوة الا ظننت أني لا أتبعها أخرى » . وكان بعضهم اذا يصلى يلتفت يمينا وشمالا ، ولما قيل له : ما هذا الالتفات ؟ قال : « انتظر ملك الموت من أي جهة يأتيني » .

ثم أكثر الخلق — (لا) سيما في أمثال زماننا — قد غلبهم طول الامل ، بحيث يأمل أقل من أقصى مدة السن ، وقل فيهم من قصر أمله ، والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الامل ؛ وفي عصرنا أكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم اكثر من الشبان ، ومن هنا قال رسول الله (ص) : « يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان : الحرص ، وطول الامل » . وقال صلى الله عليه وآله : حب الشيخ شاب في طلب الدنيا ، وان التفت ترقوتاه من الكبر ، الا الذين أتقوا ؛ وقليل ما هم » .

ثم يعرف طول الامل وقصره بالاعمال : فمن اعتنى بجمع أسباب لا يحتاج اليها في سنة فهو طويل الامل ، وكذلك من أنتشرت أموره ، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات الى مدة معينة ، كالسنة وأزيد منها ، وكان

---

(٢٩) البقره ، الآية ٩٦

عليه ديون من الناس كذلك ، ومع ذلك لم يكن مضطربا ولا خائفا فهو طويل الامل . فعلامة قصر الامل : أن يجمع امره بحيث لايكون عليه من الناس شيء ، ولا يسعى لطلب قوت الزائد على أربعين يوما ، ويصرف أوقاته في الطاعة والعبادة ، ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد .

فصـــل

ذكر الموت مقصر للامل

ذكر الموت يقصر الامل ويدفع طوله ، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود في فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله — : « اكثروا ذكر هادم اللذات » ، قيل : وماهو يارسول الله !؟ قال : « الموت ، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة الا ضاقت عليه الدنيا ، ولا في شدة الا اتسعت عليه » . وقال (ص) — : « تحفة المؤمن الموت » . وقال (ص) « الموت كفارة لكل مسلم » . وقيل له(ص) : هل يحشر مع الشهداء احد ؟ قال : « نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة» . وقال (ص): « اكثروا من ذكر الموت ، فانه يمحص الذنوب ، ويزهد في الدنيا » . وقال (ص): «كفى بالموت واعظا » . وقال (ص) : « الموت الموت ، الا ولا بد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والكرة المباركة الى الجنة عالية لاهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم» وقال (ص) « اذا استحقت ولاية الله والسعادة ، جاء الاجل بين العينين وذهب الامل وراء الظهر ، واذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة ، جاء الامل بين العينين وذهب الاجل وراء الظهر » وذكر عنده (ص) رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال (ص) «كيف ذكر صاحبكم للموت ؟» قالوا :ماكنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال :« فان صاحبكم ليس هنالك » . وسئل : اى المؤمنين اكيس واكرم ؟ فقال : « اكثرهم ذكرا للموت ، واشدهم استعدادا له ، اولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » . وقال الباقر (ع): « اكثروا ذكر الموت فانه لم يكثر ذكره انسان الا زهد في الدنيا » . وقال الصادق (ع) : « اذا انت حملت جنازة فكن كأنك انت المحمول وكأنك سألت ربك الرجـوع الى

الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف » ، ثم قال (ع): « عجبا لقوم حبس اولهم عن آخرهم ، ثم نودى فيهم بالرحيل وهم يلعبون » . وقال (ع) لابى بصير بعد ماشكى اليه الوسواس — : « اذكر يا أبا محمد تقطع اوصالك في قبرك ورجوع احبائك عنك اذا دفنوك في حفرتك ، وخروج بنات الماء من منخريك واكل الدود لحمك ، فان ذلك يسلى عليك ماأنت فيــه »، وقال ابو بصير : فوالله ! ما ذكرته الا سلى عني ما انا فيه من هم الدنيا . وقال (ع) : «من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين ، وكان ماجورا كلما نظر اليه»[٣٠]. وقال (ع) : « ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ، ويقلع منابت الغفلة ، ويقوى القلب بمواعد الله ، ويرق الطبع ، ويكسر اعلام الهوى ، ويطفى نار الحرص ، ويحقر الدنيا ، وهو معنى ماقال النبي (ص) : « فكر ساعة خير من عبادة سنة »، وذلك عندما يحل اطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخـرة ، ولاينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة ، ومن لايعتبر بالمـوت ، وقلة حيلته ، وكثرة عجزه ، وطول مقامه في القبر ، وتحيره في القيامة : فلا خير فيه . وقال النبى (ص) : « اكثروا ذكر هادم اللذات . . »ثم ذكر تمام الحديث كمامر.. ثم قال (ع): والموت اول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من الدنيا ، فطوبى لمن اكرم عند النزول بأولها ، وطوبى لمن احسن مشايعته في آخرها ، والموت اقرب الاشياء من بنى آدم ، وهــو بعده ابعد ، فماأجرأ الانسان على نفسه ، وما اضعفه من خلق ، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ، ولذلك اشتاق من اشتاق الى الموت وكره من كره ، قال النبى (ص) « من احب لقاء الله احب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »[٣١].

فصــل

العجب ممن ينسى الموت

عجبا لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه ، وهو اظهر اليقينيات والقطعيات في العالم ، واسرع الاشياء الى بنى آدم ، قال الله — سبحانه وتعالى —:

(٣٠) صححنا اكثر الاحاديث على الوسائل — ج١ : الباب ٢٣ من ابواب الاستحضار فى كتاب الطهارة — ، وعلى احياء العلوم : ٢٨٣/٤ .

(٣١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : الباب ٨٤ .

« اينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »(٣٢) . وقال — « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة فمنزحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (٣٣) .

وقال الصادق (ع):« ماخلق الله يقينا لاشك فيه اشبه بشك لايقين فيه من الموت » . وقال امير المؤمنين (ع) « ما انزل الموت حق منزلته منعدة غدا من اجله » وقال (ع) : « لو راى العبد اجله وسرعته اليـه ، لابغض العمل من الدنيا » . وقال الصادق (ع) « ما من اهل بيت شعر ولا وبر الا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات » . وقد تقدمت اخبـار اخر في هذا المعنى .

فصـل

الموت اعظم الدواهي

اعلم ان الموت داهية من الدواهى العظمى ، ومن كل داهية اشد وادهى وهو من الاخطار العظيمة والاهوال الجسيمة ، فمن علم ان الموت مصرعـه والتراب مضجعه والقبر مقره وبطن الارض مستقره ، والدود انيسهوالعقارب والحيات جليسه ، فجدير ان تطول حسرته وتدوم عبرته ، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته ، وتشتد لاجله رزيته ، ويروى نفسه في اصحاب القبورويعدها من الاموات ، اذ كل ماهو آت قريب والبعيد ماليس بآت وحقيق الايكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعلهوسعيه وجده الا فيه وله ، قالرسولالله — صلى الله عليه وآله — : « لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما اكلتم منها سمينا » . وقال (ص) لقوم يتحدثون ويضحكون : « اذكروا الموت اما والذي نفسي بيده ! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» . ومر (ص) بمجلس قد استعلاه الضحك ، فقال : « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات » . قالوا : وما مكدر اللذات ؟ قال : « الموت » .

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها ، فـلا

(٣٢) النساء ، الآية : ٧٧ .
(٣٣) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

ينفع ذكره في قلبه ، فالطريق فيه : أن يفرغ القلب عن كل شيء الا عن ذكر الموت الذي بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر الى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة ، أو بحر عظيم لابد أن يركبه ، فانه لا يتفكر الا فيه ، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك ، لاثر ذكره في قلبه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وتنزجر نفسه عنها ، وينكسر قلبه ، ويستعد لاجله • وأوقع طريق فيه : أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله ، ونقلوا من انس العشرة الى وحشة الوحدة ، ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجواري والغلمان الى مصاحبة الهوام والديدان ، ويتذكر مصرعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ثم يتفكر كيف محي التراب الان حسن صورتهم ، وكيف تبددت اجزاؤهم في قبورهم ، وكيف أملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم واوحشت ديارهم ، فمهما تذكر رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية صيانة وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وأمله في العيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمؤثثات الاسباب ، وركونه الى القوة والشباب ؛ وميله الى الضحك واللهو ؛ وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ؛ وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ؛ وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه ؛ وكيف دبر لنفسه الامور وجمع من حطام الدنيا ما لا يتفق احتياجه اليه على مر الاعوام والشهور وكر الازمنة والدهور • ثم يتأمل أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ؛ وسيصير حاله في القبر كحالهم ؛ فملازمة هذه الافكار وامثالها ؛ مع دخول المقابر وتشييع الجنائز ومشاهدة المرضى ؛ تجدد ذكر الموت في قلبه ؛ حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه وعند ذلك ربما يستعدله ويتجافي عن دار الغرور ، واما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في النية والايقاظ ، ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا ؛ فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد من مفارقته • كما نقل : ان بعض الاكابر نظر يوما الى داره فاعجبه حسنها ، فبكى وقال : والله لو لا الموت لكنت بها مسرورا •

فصـــل

مراتب الناس فى ذكر الموت

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها ، وبين تائب مبتديء ، وعارف منتهي .

(فالاول) : لا يذكر الموت ، وان ذكره فيذكره ليذمه لصده عما يحبه من الدنيا ، وهو الذي يفر منه ؛ وقال الله — تعالى — فيه :

« قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم . . .(٣٤)

وهذا يزيده ذكر الموت بعدا من الله ، الا اذا استفاد منه التجافي عن الدنيـا ، ويتنغص عليه نعيمه ؛ ويتكدر صفو لذته ، وحينئذ ينفعه ؛ لان كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته .

(والثاني) : يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية ،فيفي بتمام التوبة ، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة ، وهو معذور في كراهة الموت ؛ ولا يدخل تحت قوله (ص) : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ؛ وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارها للقائه ، وعلامة هذا : أن يكون دائم الاستعداد للموت لاشغل له سواه ، وان لم يكن مستعدا له عاملا بما ينفعه في الآخرة التحق بالاول .

(واما الثالث) : فانه يذكر الموت دائما ، لانه موعد للقاء حبيبه ، والمحب لاينسى قط موعد لقاء الحبيب ،وهذا في الغالب الامر يستبطىء مجيء الموت ويحب مجيئه ، ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين كما روي : « أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لاافلح من رده ، اللهم ان كنت تعلم أن الفقر أحب الي من الغنى ، والقسم احب الي من الصحة ، والموت أحب الي من الحياة ،فسهل علي الموت حتى ألقاك » . وأعلى رتبة منه : من يفوض امره الى الله، ولا يختار لنفسه شيئا :من الموت

---

(٣٤) الجمعة ، الآية : ٨ .

أو الحياة ، والفقر والغنى ؛ والمرض والصحة ؛ بل يكون احب الاشياءاليه احبها الى مولاه ، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى درجة التسليم والرضى ، وهو الغاية والانتهاء .

تتميم

المبادرة الى الحسنات

من علامات قصر الامل وذكر الموت : المبادرة الى الحسنات واشتياق الخيرات ، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير، قال رسول الله — صلى الله عليه وآله — : « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ؛ وحياتك قبل موتك » .وقال (ص) : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، الا ان سلعة الله غالية ،ألا ان سلعة الله الجنة » [٣٥] . وكان (ص) اذا احس من اصحابه غفلة وغرة ،نادى فيهم بصوت عال : « اتتكم المنية ، اما بشقاوة أو سعادة » . وروي : انه ما من صباح ولا مساء الا ومناد ينادي : أيها الناس ! الرحيل الرحيل ! .وقال بعض الاكابر : التؤدة في كل شيء خير، الا في اعمال الآخرة .

ومنها :

العصيان

ولاريب في كونه من رذائل قوتي الغضب والشهوة معا ، لان بعض انواعه من رذائل احداهما من جانب الافراط او التفريط ، أومن باب رداءتها وبعض آخر من انواعه من رذائل الاخرى . وضده (التقوى والورع) ، وبالمعنى الاعم : اعني الاجتناب عن مطلق المعصية خوفا من سخط الله ، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما ، فتذكر .

ومنها :

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس ، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية ، وكونه من رداءة قوتي الغضب والشهوة ظاهر .

---

(٣٥) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٢٩٠/٤ . وفي نسخ الكتاب (اولج ومن اولج) .

وضدها (الحياء) ، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذرا من الذم واللوم ، وهو أعم من التقوى ، اذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية ؛ والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف ايضا ، فهو من شرائف الصفات النفسية ، ولذا ورد في فضله ما ورد ؛ قال الصادق (ع) : « الحياء من الايمان ، والايمان في الجنة » . وقال (ع) : « الحياء والعفاف والعي — أعني عي اللسان لا عي القلب — من الايمان » . وقال (ع) : « الحياء والايمان مقرونان في قرن ، فاذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه » . وقال (ع) : « لا ايمان لمن لا حياء له » . ثم حقيقة الحياء — كما عرفت — هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعا أو عقلا أو عرفا ، فالانفعال عن غير ذلك حمق ، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الخمود عما ينبغي شرعا وعقلا لا يعد حياء بل حمقا ، ولذا قال رسول الله (ص) :« الحياء حياءان : حياء عقل وحيـاء حمق ؛ فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل » [٣٦] .

الاصرار على المعصية

ومنهـا :

رجوع رذيلة الاصرار الى أي القوى وذمها — ضد الاصرار التوبة وتعريفها — هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق ؟ — وجوب التوبة — تحقيق في وجوبها — عموم وجوبها — لا بد من العمل بعـدها — فضيلتها — قبولها — طريقة التوبة من المعاصي — تكفير الصغائر ومعنى الكبائر — الصغائر قد تكون كبائر — شروط كمال التوبة — هل يصح التبعيض فيها ؟ — أقسام التائبين — مراتب التوبة — عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة — علاج الاصرار على الذنوب — الانابة — المحاسبة والمراقبة — المعنى الظاهر لهما حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا — مقامات مرابطة الفعل للنفس .

---

(٣٦) صححنا الاحاديث هنا على اصول الكافي « باب الاحياء » .

وهو اما ناشيء من رداءة احدى القوتين وخروجها عن اطاعة العاقلة أو عن رداءتهما معا ، فيكون من رذائل القوتين ، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية بطريق أولى واوكد . والاخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصي ربما يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية ، واما الاخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جدا ، كقول النبي (ص) : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يناديان باربعة اصوات ، يقول أحدهما : ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : ياليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : فياليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ، فيقول الآخر : وياليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا . واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام ، وانه لينظر الى أزواجه في الجنة يتنعمن » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « لا تبدين عن واضحة وقد عملت الاعمال الفاضحة ، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات » . وقال الباقر (ع) : « ان الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها اياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة » وقال (ع) : « ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة ، ان القلب ليواقع الخطيئة ، فما يزال به حتى يغلب عليه ، فيصير أعلاه أسفله » . وقال (ع) : (ان العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق » . وقال الصادق (ع) : « يقول الله — تعالى — : ان ادنى ما اصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي ان احرمه لذيذ مناجاتي » . وقال (ع) : « من هم بسيئة فلا يعملها ، فانه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب — تعالى — فيقول : وعزتي وجلالي ! لا أغفر لك بعد ذلك ابدا » . وقال (ع) : « اما انه ليس من عرق يضرب ، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض ، الا بذنب ، وذلك قول الله — عز وجل — في كتابه :

« وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير » (٣٧) .

قال (ع) : وما يعفو الله اكثر مما يؤاخذ به » . وقال (ع) : « ان الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وان العمل السيء أسرع في صاحبه

(٣٧) الشورى ، الآية : ٣٠ .

من السكين في اللحم » . وقال الكاظم (ع) : « حق على الله ألا يعصى في دار الا اضحاها للشمس حتى يطهرها » [٣٨] .

والاخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل اليه أثر الذنب ووباله ، فان هذا محال . فانه لم يتجاوز عن الانبياء في تركهم الاولى . فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي . نعم ، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة ؛ والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثما ، ويعذبوا في الآخرة عذابا اكبر واشد ، أما سمعت أن اباك آدم قد اخرج من الجنة بتركه الاولى ؟ حتى روي : « أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، وجاء جبرئيل (ع) واخذ التاج من رأسه وخلى الاكليل عن جنبيه ، ونودي من فوق العرش اهبطا من جواري ، فانه لايجاورني من عصاني ، فالتفت آدم الى حواء باكيا ، وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب » . وروي : « أنه — تعالى — قال : ياآدم ! أي جار كنت لك ؟ قال : نعم الجار يارب ! قال يا آدم ! اخرج من جواري وضع عن رأسك تاج كرامتي ، فانه لا يجاورني من عصاني » . وقد روي : « أن آدم بكى على ذنبه مائتي سنة ، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الاولى » . فان كانت مؤاخذته في نهي تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا ،فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى .

وصل

التوبة وتعريفها

ضد الاصرار (التوبة) ، وهي الرجوع من الذنب القولي والفعلي والفكري ، وبعبارة اخرى : هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من العبد الى القرب ، وبعبارة اخرى : ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير . وكما ان الاصرار على العصيان من رذائل قوتي الغضب والشهوة ، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما ، بمعنى

(٣٨) صححنا الاحاديث هنا على اصول الكافي « باب الذنوب »

أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو احداهما ، ومن فعل النفس باعانتهما وانقيادهما للعاقلة ، وان كان الباعث على الرجوع وتهييج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين المحبوب ، ويمكن أن يقال : ان التوبة هو الرجوع عن الذنب ؛ وهو من ثمرات الخوف والحب ؛ فان مقتضى الحب أن يمتثل مراد المحبوب ولا يعصى في شيء مما يريده ويطلب من الحب ، فتكون من فضائل القوتين أيضا • ويمكن أن يقال : ان التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب ،وكونها حجابا بينه وبين الله ،والندم الحاصل منه ؛ والقصد المتعلق بالترك حالا واستقبالا ، والتلافي للماضي والندم، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين او فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة ، والعلم المذكور من العاقلة ؛ فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث •

وتوضيح حقيقة التوبة : أنه اذا علم العبد علما يقينيا أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه ، ثار من هذا العلم تألم القلب بسببفوات المحبوب ، وصار متأسفا على ماصدر عنه من الذنوب ، سواء كانت افعالا أو تروكا للطاعات ؛ ويسمى تألمه — بسبب فعله او تركه المفوت لمحبوبه — ندما •واذا غلب هذا الندم على القلب ، انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابسا له ، وبالاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحبوبه الى آخر عمره ، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء • فالعلم — أعني اليقين بكون الذنوبسموما مهلكة — هو الاول ، وهو مطلع البواقي ، اذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب ، فيتألم به القلب ، حيث ينظر باشراق نور الايمان واليقين انه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كانفي ظلمة ، فيسطع النور عليه باقشاع سحاب او انحسار حجاب ، فيرى محبوبه قد اشرف على الهلاك ؛ فتشتعل نيران الحب فيقلبه وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك • فالعلم ،والندم ، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي : ثلاثة معان مترتبة في

الحصول ، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها • وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم ، وجعل العلم كالسابق والمقدمة ؛ والترك كالثمرة والتابع للمتأخر ، والى هذا الاعتبار يشير قوله (ص) : « الندم توبة » ، اذ لا يخلو الندم عن علم اوجبه واثمره ، أو عن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوفا بطرفيه ؛ اعني ثمرته ومثمره • وبهذا الاعتبار قيل في حدها: انها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب ، وربما اطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا ، وبهذا الاعتبار قيل في حدها : انها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء ، وانها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ؛ أوانها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود اليه استقبالا • وعلى هذا لا يكون الندم داخلا في حقيقة التوبة ، وقدصرح بعض الاعاظم بخروجه عنها ، محتجا بأن الندم ـ وهو تألم القلب وحزنهعلى الذنب ـ غير مقدور ؛ ولذا ترى تقع الندامة على امور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدورا ، وانما المقدور تحصيل اسبابه ، أعني الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه • وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة، اذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها ، فاللازم فيها التندم دونالندم • وغير خفي بأن الندم كغيره منصفات النفس ، فان أمكن ازالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك ، والا لزم بطلان علم الاخلاق بالكلية وايضا اذا امكن تحصيل سبب الندامة ـ اعنى العلم بفوات المحبوب ـ لزم ترتب المسبب ـ اعنى الندامة عليه ـ فما معنى عدمكونه مقدورا، فالندامة فيالازالة والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الاخلاق النفسية وبعضهم يعد ماعدا التندم من شرائط التوبة ، قال « وأما الندم المحبوب ـ لزم ترتب المسبب ـ اعني الندامة عليه ـ فما معنى عدم كونه التوبة حقيقة ، وانما المقدور تحصيل اسبابه من العلم والايمان وتحقيقهما في قلبه » انتهى • وفيه مالا يخفى بعلاوة ما سبق ، قال الصادق (ع) : «التوبة حبل الله ومدد عنايته ، ولابد للعبدمنمداومةالتوبة على كل حال وكل فرقة من العباد لهم توبة ، فتوبة الانبياء من اضطراب السر وتوبة

الاولياء من تلوين الخطرات ، وتوبة الاصفياء من التنفيس ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله ؛ وتوبة العام من الذنوب ، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في اصل توبته ومنتهى أمره ؛ وذلك يطول شرحه هنا .

وأما توبة العام ، فأن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة ، والاعتراف بجناياته دائما ، واعتقاد الندم على ما مضى ، والخوف على ما بقى من عمره ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك الى الكسل ؛ ويديم البكاء والاسف على ما فاته من طاعة الله ؛ ويحبس نفسه عن الشهوات ، ويستغيث الى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود الى ما سلف ، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة ، ويقضى عن الفوائت من الفرائض ، ويرد المظالم ؛ ويعتزل قرناء السوء ؛ ويسهر ليله ويظمأ نهاره ؛ ويتفكر دائما في عاقبته ، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوابين ، فان في ذلك طهارة من ذنوبه ، وزيادة في عمله ، ورفعة في درجاته . قال الله — عز وجل — :

« **فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** » (٣٩ — ٤٠) .

تتمــة

هل يشترط فى التوبة القدرة على الذنب السابق ؟

التوبة انما تكون عن ذنب سبق مثله ، (أما) [٤١] ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة ، بل يسمى تقوى ، ويسمى صاحبه متقيا لا تائبا ، ولذا يصح القول بأن النبي (ص) كان متقيا عن الكفر ، ولا يصح القول بأنه كان تائبا عنه . ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا في الصورة أو المنزلة ، فالشيخ الهم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق ، ولم يقدر الساعة على فعلهما اذا أراد التوبة عنهما ؛ ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة ، كالقذف والسرقة وأمثالهما ، اذ لامعنى للتوبة عما يماثلهما صورة — اعني نفس الزنا وقطع الطريق —

---

(٣٩) العنكبوت ، الآية : ٣

(٤٠) صححنا هذه الرواية على « مصباح الشريعة : الباب ٨٠ » .

(٤١) وفى النسخ « او » بدل « أما » ، والصحيح ماثبتناه .

مع عدم قدرته عليهما ، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء ، لزم ان يكون باب التوبة مسدودا بالنسبة الى مثل الشيخ الهم وكل من صدر منه معصية والآن لايقدر عليها ، وهو باطل ؛ لانفتاح باب التوبة الى الموت ، ولما ذكر ، قال بعض المشايخ في حد التوبة : « انها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لاصورة ، تعظيما لله وحذرا من سخطه » . فقوله : « سبق مثله » أحتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله ، فانه لايسمى توبة بل تقوى ، وقوله : « منزلة لاصورة » لادخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله ، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، والظاهر ان بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن ، على أنه لو كان قادرا على الزنا لتركه أيضا ، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، فلو كان قادرا عليه لتركه أيضا .

قال أبو حامد الغزالي : « ان قلت : هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ؟ قلت : لا ! لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لايقدر على فعله ، فقد أنعدم بنفسه لا بتركه اياه » ، ثم قال : « ولكني أقول : لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه ، وثار منه أحتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فاني أرجو ان يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته، اذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين ، وان لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب بأعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده ، فاذن لايستحيل ان تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ الا أنه لايعرفه من نفسه ، فان كل من لايشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف ، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه ؛ بل الظاهر انه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع الى أن ظلمة

المعصية تنمحي عن القلب بشيئين : ــ أحدهما ــ حرقة الندم ، و ــ الآخر ــ شدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، وقد أمتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ، ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا : أن التوبة لاتقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما يدل ظاهر الشرع على أشتراطه » •

فصــل

وجوب التوبة

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة : بالاجماع ، والنقل ، والعقل :
أما الاجماع ــ فلا ريب في انعقاده • وأما النقل ــ فكقوله تعالى :
« وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٤٢) • وقوله تعالى «يآأيها الذين آمنوا توبوا الى الله نصوحا عسى ربكم انيكفر عنكم سيئاتكم»(٤٣)

ومعنى النصوح : الخالص لله خاليا عن شوائب الاغراض ، من مال أو جاه او خوف من سلطان أو عدم أسباب ، والامر للوجوب ، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين •

وأما العقل ــ فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها • (بيان ذلك) : أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هــلاك السرمد ، ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه ، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة الى سعادة الابد • ولا ريب في أنه لاسعادة في دار البقاء الا في لقاء الله والانس به ، فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصال محروما عن مشاهدة الجلال والجمال ، فهو شقي لامحالة ، محترق بنار الفراق ونار جهنم • ثم لامبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات النفسية والغضب والانس بهذا العالم الفاني ، والاكباب على حب مالابد من مفارقته قطعا ؛ ويعبر عن

---

(٤٢) النور ، الآية : ٣١ •

(٤٣) التحريم ، الآية : ٨

ذلك بالذنوب . ولا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم ؛ والاقبال بالكلية على الله ؛ طلبا للانس به بدوام الذكر ؛ والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته ، ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول الى القرب الذي هو السعادة ، ولا يتم ذلك الا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم ، ولا يتم الواجب الا به ، فهو واجب ؛ فالتوبة واجبة قطعا .

تذنيب

تحقيق فى وجوب التوبة

كيف لاتكون التوبة عن المعاصي واجبة ، مع أن العلم بضرر المعاصى وكونها مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان ومما لاريب فيه ، والعالم بهذا العلم اذا لم يعمل به فكما لايعلمه او ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان ، لأن كل علم يراد ليكون باعثا على العمل ، فلا يقع التفصىعن عهدته مالم يصير باعثا ؛ فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان ، وهو المرادبقول النبي (ص) : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، وما اراد به نفى الايمان بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فان ذلك لاينافي الزنا والمعاصي ، وانما أراد به نفي الايمان بالله لكون الزنا مبعدا عن الله وموجبا لسخطه ، وليس الايمان بابا واحدا ، بل هو — كما ورد — نيف وسبعون بابا ؛ أعلاها الشهادتان وأدناها اماطة الاذى عنالطريق ، ومثاله قول القائل: ليس الانسان موجودا واحدا ، بل هو نيف وسبعون موجودا ، أعلاها الروح والقلب وأدناها اماطة الاذى عنالبشرة ؛ بأن يكون مقصوصالشارب مقلوم الاظفار نقى البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلةالمتلوثة بارواثها ، المستكرهة الصور بطول مخالبها واظفارها ، فالايمان كالانسان ؛ وفقد الشهادتين كفقد الروح الذي يوجب البطلان بالكلية ، والذي ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر أجزائه من الاعمال ، فهو كإنسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين ، فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة ،

الا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له الا أصل الايمان وهو مقصر في الاعمال ، قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكل ايمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة ، فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان الذى هو أصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع ليساق الى الموت المعدم للروح التي هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الاصل ، ولا فرق بين الاصل والفرع الا في شيء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الاصل ، وأما وجود الاصل فلا يستدعى وجود الفرع ، ولكن بقاءه يستدعى وجود الفرع ، فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل ، فمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة ، وانما يظهر الفرق اذا عصفت الرياح القوية ، فعند ذلك تنقطع أصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها ، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على أصلها وفرعها . ومثل العاصى الذى لايخاف الخلود في النار لاجل معصيته اتكالا على ايمانه بالتوحيد والرسالة ، كمثل الصحيح الذى ياكل الاغذية المضرة والسمومات ولايخاف الموت اتكالا على صحته ، فكما يؤدى صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والاغذية الى المرض والمرض الى الموت ،فكذلك تؤدى ذنوب العاصى الى سوء الخاتمة الى الخلود في الى الموت ، فكذلك تؤدى ذنوب العاصى الى سوء الخاتمة الى الخلود في النار ، فالمعاصى للايمان كالسمومات والماكولات المضرة للابدان ، فكما ان مضرة السمومات لاتزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لايشعر بها الى ان يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكل آثار المعاصى لاتزال تراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الايمان فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة اذا وجب عليه ترك السموم ومايضره من الماكولات ، فالخائف من هلاك الابد اولى بان يجب ترك

الذنوب ، ومن تناول السم وندم اذا وجب عليه ان يتقيأ ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة ،فمتناول سموم الايمان وهى الذنوب اولى بان يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام مهلة التدارك .

فالبدار البدار معاشر اخوانى الى التوبة ! قبل ان تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملا لاينفع بعده الاحتماء ، ويخرج الامر فيه عن ايدى اطباء القلوب ، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين ،وتحق عليكم كلمة العذاب . وتدخلون تحت عموم قوله ــ تعالى ــ :

« وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لايبصرون »(٤٤) وقوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة » (٤٥) . . . وغير ذلك من الآيات .

ثم مقتضى الادلة المذكورة : كون التوبة على الفور ، فيجب على كل مسلم ان يتوب عن ذنوبه فورا ، ولايجوز له التاخير . قال لقمان لابنه : « يابنى ! لاتؤخر التوبة ، فان الموت ياتى بغتة » . ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : ــ احدهما ــ ان تراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير دينا وطبعا فلايقبل المحو ــ والثانى ــ ان يعالجه المرض او الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد : ان اكثر صياح اهل النار من التسويف ، فما هلك من هلك الا بالتسويف .

فصل

عموم وجوب التوبة

وجوب التوبة يعم الاشخاص والاحوال ، فلا ينبغى ان ينفك عنه احد في حالة ، قال الله تعالى ــ :

« وتوبوا الى الله جميعا » (٤٦) .

وهو يعم الكل في الكل . ومما يدل على وجوبها على الكل : ان كل فرد من افراد الناس اذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة

---

(٤٤) يس ،الآية : ٩ .
(٤٥) البقرة ، الآية :٧
(٤٦) النور ، الآية : ٣١

بدنه ، بين الشهوات جنود الشياطين ، وبين العقول احزاب الملائكة ، اذ لاتكمل غريزة العقل في احد الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة ، واذا قام القتال بينهما لابد بحكم العقل والشرع ان يغلب جنود الله على جنود الشيطان بقمعها بكسر الشهوات ، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات ، ولامعنى لوجوب التوبة الا هذا . مما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو ان كل عبد لايخلو عن معصية بجوارحه ، فان خلا في بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب فان خلا عن ذلك ايضا فلا يخلوا عن وسوسة الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلايخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره ، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة .

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص واصله في حالة ، وان تفاوتوا في المقادير ، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة ، ولو خلا عن التوبة عن جميع الذنوب في لحظة واختطفه الموت ، لزم خروج روحه بلا توبة ، ولعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من انفاسه ، قال بعض العرفاء [٤٧] : « لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره الا على فوت مامضى من عمره في غير طاعة الله ، لكان حقيقا ان يخزيه [٤٨] ذلك الى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل مامضى من جهله » . ومن عرف قدر العمر وفائدته وما يكتسب به من سعادة الابد يعلم ان مايصنع منه في المعصية وغير التوبة أى حسرة وندامة يترتب عليه ، فان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة ، فان ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة ، وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه اشد ، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لاعوض لها لايصلها لعبد الى سعادة الابد وانقاذها اياه من شقاوة السرمد ، واى جوهر انفس من هذا ، فمن ضيعها في غفلة خسر خسرانا مبينا ، ومن صرفها في

---

(٤٧) هو ابو سليمان الدرانى فيما نقل عنه فى احياء العلوم ٤: ١٠ .
(٤٨) فى نسخ جامع السعادات (يجزيه) .

معصية فقد هلك هلاكا ابديا . وقد قيل : ان لله — تعالى — عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الالهام : — احدهما — اذا خرج من بطن امه يقول له عبدي! قد اخرجتك الى الدنيا طاهرا لطيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة ، وانظر كيف تلقاني . — والثاني — عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في امانتي عندك ، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالقاك على الوفاء ؟ او اضعتها فالقاك بالمطالبة والعقاب ؟ . واليه الاشارة بقوله — تعالى :

« اوفوا بعهدى اوف بعهدكم » (٤٩) وبقوله تعالى : « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » (٥٠)

وقد روى : ان ملك الموت اذا ظهر للعبد عند موته اعلمه انه قد بقى من عمرك ساعة لاتستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والاسف مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لاعطاها بدل ان يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليتدارك فيها تفريطه ، ولايجد اليها سبيلا . وقد روى — ايضا — انه اذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت : اخرنى يوما اعتذر فيه الى ربى واتوب ، واتزود صالحا لنفسى ، فيقول : فنيت الايام فلا يوم ، فيقول : أخرنى ساعة ، فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة ، فيغرغر بروحه ، وتتردد انفاسه في شراسيفه ، ويجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الاهوال ، فاذا زهقت نفسه ، فان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، وذلك حسن الخاتمة ، وان سبق له القضاء بالشقوة — والعياذ بالله — خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة .

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصى المذكورة — اعنى المحرمات وترك الواجبات — واجب بفتوى الشرع ، بعنى ان التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصى يكون معذبا بالنار ، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق ، وتكليف الجميع

(٤٩) البقرة ، الآية : ٤٠ .
(٥٠) المؤمنون الآية ٨ ، المعارج الآية : ٣٢

به لايوجب فسادا في النظام الكلي . واما التوبة عن بعض آخر منها، كالخواطر والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وامثال ذلك، فليس واجبا بهذا المعنى ، لمنافاته انتظام العالم . اذلو كلف الخلق كلهم ان يتقوا الله حق تقاوته ، لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ، وذلك يؤدي الى بطلان التقوى راسا ، لانه ان فسدت المعايش لم يتفرغ احد للتقوى . فالتوبة عن كل ماهو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار ،بل هي واجبة بمعنى آخر ، وهو مالابدمنه للوصول به الى غاية القرب الى الله ،والى المقام المحمود والدرجات العالية، فمن رضي باصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه، ومن طلب الوصول الى ماذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوبا شرطيا ، بمعنى توقف مطلوبه عليه ، كما جرت عليه طوائف الانبياء والاولياء واكابر العرفاء والعلماء ، ولاجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية .وعلى هذا فما ورد من استغفار الانبياء والاوصياء وتوبتهم انما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لاجل اشتغالهم بالمباحات لاعن ذنوب كذنوبنا، لتعاليهم وتقديسهم عن ذلك . قال الصادق(ع): « ان رسول الله كان يتوب الى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب .ان الله تعالى يخص اولياءه بالمصائب ، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا ، فان ذنب كل احد انما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله » . وبمضمونه اخبار اخر .

فصل

لابد من العمل بعد التوبة

لايكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المسقبل بل لابد من محو آثارها التى انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات ،اذكل شهوة ومعصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة الى قلبه، كما ترتفع من نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة ، فان تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا ، كما قال — تعالى — :

« كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون »(١)

---

(١) المطففين ، الآية : ١٤

فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه ، كما ان الخبث في وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده ، وصار بحيث لايقبل التصقيل بعده فالتائب من الذنوب لابدله من محو تلك الآثار التى انطبعت منها في نفسه ، ولايكفى مجرد تركها في المستقبل ، كما لايكفى في تصقيل المرآة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ، مالم يشتغل بمحو ماانطبع فيها من الآثار ،وكما ترتفع الى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها ، ولهذا النور تنمحى ظلمة المعاصي والشهوات ، واليه الاشارة بقوله (ص) « اتبع السيئة الحسنة تمحها » . فاذن لايستغنى العبد في حال من احواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ،بمعنى ان تكون الحسنة التى ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة ، لقوله (ص) « اتق الله حيث كنت »ولان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب ، فلا يمحوها الا نور يرتفع اليه من حسنة تضادها ، اذ الضد انما يرتفع بالضد ، فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر ،ويكفر القعود في المسجد جنبا بالعبادة فيه ،ويكفر مس المصحف محدثا باكرامه وتقبيله وكثرة قراءته ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو احب اليه . . الى غير ذلك وليس ذلك — اى ايقاع المناسبة — شرطا في المحو ، فقد روى : « ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : اني عالجت امرأة فاصبت منها كل شيء الا المسيس، فاقض علي بحكم الله فقال : اما صليت معنا ؟ قال : بلى ! فقال : ان الحسنات يذهبن السيئات » .

وينبغي ان تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة ، بان يتندم عليها ويمحو آثارها قبل ان يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، قال الله تعالى — :

« انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب»(٢) أي عن قرب عهد بعمل السوء .وقال: « وليست التوبة للذين يعملون السيئات

---

(٢) النساء ، الآية : ١٦

حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن»(٣)

قال الصادق (ع) : « ذلك اذا عاين امر الآخرة » وقد ورد مثله عن رسول الله (ص) ايضا .

فصل

فضيلة التوبة

اعلم ان التوبة اول مقامات الدين ، ورأس مال السالكين ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع التقرب الى رب العالمين ، ومدحها عظيم ،وفضلها جسيم ، قال الله — تعالى — :

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (٤) .

وقال رسول الله (ص) : « التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لاذنب له » . وقال الباقر (ع) : « ان الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فالله أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها » . وقال (ع) :«التائب من الذنب كمن لاذنب له، والمقيم على الذنب وهومستغفر منه كالمستهزىء». وقال الصادق (ع) : « ان الله يحب من عباده المفتن التواب » : يعني كثير الذنب كثير التوبة . وقال (ع) : « اذا تاب العبد توبة نصوحا ، أحبه الله فستر عليه » ، فقلت : وكيف يستر عليه ؟ قال : « ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه ، ويوحى الى جوارحه والى بقاع الارض أن أكتمى عليه ذنوبه ، فيلقى الله — عز وجل — حين يلقاه وليس شىء يشهد عليه بشىء من الذنوب » . وقال الصادق (ع) : « ان الله — عز وجل — اعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والارض لنجوا بها : قوله — عز وجل — :

« ان الله يحب التوابين . . . »الى آخره (٥)وقوله : « الذين يحملون

---

(٣) النساء ، الآية : ١٧
(٤) البقرة ، الآية : ٢٢٢
(٥) البقرة ، الآية : ٢٢٢

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا — الى قوله — وذلك هو الفوز العظيم » (٦) . **وقوله : « والذين لايدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، الا من تاب وآمن — الى قوله — وكان الله غفورا رحيماً »** (٧) .

وقال أبوالحسن — عليهما السلام — : « أحب العباد الى الله المنيبون التوابون » .

فصل
قبول التوبة

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة بالاجماع ، ويدل عليه قوله تعالى : **« هو الذي يقبل التوبة عن عباده »** (٨) . **وقوله — تعالى — : « غافر الذنب وقابل التوب »** (٩) . **وقوله — تعالى — : « ومن يعمل سوأ او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما »** (١٠) .

وقول النبي (ص) : « ان الله تعالى يبسط يده بالتوبة لمسيىء الليل الى النهار ولمسيىء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ، وطالب التوبة يقبله ألبتة . وقوله (ص) : « ان الحسنات يذهبن السيئات ، كما يذهب الماء الوسخ » . وقوله (ص) : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم ، لتاب الله عليكم » . وقوله (ص) : « ان العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة » ، قيل : كيف ذلك يارسول الله ! ؟ قال : « يكون نصب عينيه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة » . وقوله (ص) : « كفارة الذنب الندامة » . وقوله صلى الله عليه وآله : « من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته . ثم قال:

---

(٦) المؤمن ، الآية : ٧ — ٩ .
(٧) الفرقان ، الآية : ٦٨ — ٧٠ .
(٨) الشورى ، الآية : ٢٥
(٩) المؤمن ، الآية : ٣
(١٠) النساء ، الآية : ١٠٩ .

ان السنة لكثير ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته • ثم قال : ان الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته • ثم قال : ان الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته • ثم قال : ان يوما لكثير ، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته » • وقال الباقر (ع) لمحمد بن مسلم : « ذنوب المؤمن اذا تاب منها مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله انها ليست الا لأهل الايمان » ، فقال له : فان عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب ، وعاد في التوبة ؟ قال : « يامحمد بن مسلم ! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لايقبل الله توبته ؟ » ، قال : فانه فعل ذلك مرارا ، يذنب ثم يتوب ويستغفر ، فقال : « كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وان الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فاياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله » • وقوله (ع) : «اذا بلغت النفس هذه — وأهوى بيده الى حلقه — لم تكن للعالم توبة ،وكانت للجاهل توبة » • وقوله (ع) : « ان آدم (ص) قال : يارب ! سلطت عليَّ الشيطان ، وأجريته مني مجرى الدم ، فاجعل لي شيئا ، فقال : ياآدم ! جعلت لك : ان من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه ، فان عملها كتبت عليه سيئة ، ومن هم منهم بحسنة ، فان لم يعملها كتبت له حسنة ، فان هو عملها كتبت له عشرا ، قال : يارب ! زدني ، قال : جعلت لك : ان من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له ، قال : يارب ! زدني ، قال : جعلت التوبة ، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه ، قال يارب حسبي » • وقول الصادق (ع) : « ان الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة » ، قيل : يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : « نعم ! انه ليذنب فلا يزال منه خائفا ماقتا لنفسه ، فيرحمه الله فيدخله الجنة » • وقوله عليه السلام : « العبد المؤمن اذا ذنب ذنبا أجله الله سبع ساعات ، فان أستغفر الله لم يكتب عليه شيء ، وان مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة ، وان المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له ، وان الكافر لينسى من ساعته » • وقوله (ع) : « مامن مؤمن يقارف

في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم : استغفر الله الذي لا آله الا هو الحي القيوم بديع السماوات والارض ذا الجلال والاكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب على ، الا غفرها الله له ، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة »[11] • وروى : « أن الله تعالى لما لعن ابليس سأله النظرة ، فأنظره الى يوم القيامة ، فقال :وعزتك لأخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : بعزتي لأحجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح » • وورد في الاسرائيليات : « أن شابا عبد الله عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرآة ، فرأى الشيب في لحيته ؛ فساءه ذلك ، فقال : إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ؛ فان رجعت اليك اتقبلني ؟ فسمع قائلا يقول : أجبتنا فأجبناك ، فتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك فان رجعت الينا قبلناك » والاخبار والآثار في هذا المعنى اكثر من أن تحصى ، وفي بعض الاخبار المتقدمة دلالة عليه أيضا •

ثم الناظر بنور البصيرة لايحتاج في هذا المعنى الى بيان ، اذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب ، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ، ويعلم ان القلب خلق في الاصل سليما صافيا ، اذ كل مولود يولد على الفطرة ، وانما مرض واسود بأمراض الذنوب وظلماتها ودواء التوبة يزيل هذه الامراض ، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات ، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ، كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار ، ولكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار • نعم اذا تراكمت الذنوب بحيث صارت رينا وطبعا ، وأفسدت القلب بحيث لايقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك ، فمثل هذا القلب لاتفيده التوبة ، بمعنى انه لايرجع ولا يتوب ، وان قال باللسان تبت ، اذ اوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لايقبل التطهير ، ولو بولغ فيه أدى الى انخراق القلب

---

(١١) صححنا الاحاديث الواردة في هذا الباب على اصول الكافي : باب الاعتراف بالذنوب ، وباب من يهم بالحسنة او السيئة ، وباب التوبة ، وباب الاستغفار من الذنوب ، وباب فيما اعطى الله — عزوجل — آدم وقت التوبة.

وهلاكه ، لصيرورة الاوساخ جزءا من جوهره ، كما أن الثوب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه ، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك الى انخراقه . وهذا حال اكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله ، فانهم لايرجعون ولا يتوبون ، لصيرورة ذمائم الاخلاق ورذائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم ، بحيث لايتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة ، ولو قصدوها فانما هو بمجرد اللسان ، والقلب غافل خال عن الايمان ، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها .

فصل

طرق التوبة عن المعاصي

اعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب ، وهي — كما ذكرناها — لاتخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم ، والصفات والافعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية ، والصفات والافعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية . ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم الى أقسام ثلاثة :

أحدها — ترك الطاعات الواجبة : من الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والخمس ، والكفارة وغيرها . وطريق التوبة عنها : أن يجتهد في قضائها بقدر الامكان .

وثانيها — المحرمات التي بين العبد وبين الله ، أعني المنهيات التي هي حقوق الله : كشرب الخمر ، وضرب المزامير ، والكذب ، والزنا بغير ذات بعل . وطريق التوبة عنها : أن يندم عليها ، ويوطن قلبه على ترك العود الى مثلها أبدا .

وثالثها — الذنوب التي بينه وبين العباد ، وهي المعبر عنها بحقوق الناس ، والامر فيها أصعب وأشكل ، وهي اما في المال ، او في النفس ، او في العرض أو في الحرمة ، او في الدين :

فما كان في (المال) : يجب عليه ان يرده الى صاحبه ان أمكنه ، فان عجز عن ذلك لعدم أو فقر ، وجب ان يستحل منه ، وان لم يحله أو

عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة او موته وعدم بقاء وارث له ، فليتصدق عنه ان أمكنه ، والا فعليه بالتضرع والابتهال الى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضا عن حقه ، اذ كل من له حق على غيره لابد ان يأخذ يوم القيامة عوضا عن حقه ، اما بعض طاعاته او بتحمل هذا الغير بعض سيئاته .

وما كان في (النفس) : فان كانت جناية جرت عليه خطأ وجب ان يعطي الدية ، وان كان عمدا وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو اولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه ، او يجعل في حل ، وان عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتاق الرقاب ، لأن ذلك نوع احياء وايجاد لايقـدر لانسان على اكثر منه ، فيقابل به الاعدام والاماتة ، وعليه الرجوع أيضا الى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (العرض) : بأن شتمه ، او قذفه ، او بهته ، او اغتابه، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه ، ويستحل من صاحبه مـع الامكان ، ان لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره ، فان خاف ذلك ، فليكثر الاستغفار له ، ويبتهـل الى الله ان يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (الحرمة) : بأن خان مسلما في أهله وولده أو نحوهما، فلا وجه للاستحلال ، اذ أظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة ، لأن من له شوب الرجولية لايمكن ان يحل من خان في حرمته ووطيء زوجته ، كيف ولو أحله ورضي بذلك كان فيه عرق من الدياثة ، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهال الى الله المتعال ، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانته ، وان كان حيا فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الاموال، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ، ويسعى في مهماته وأغراضه ، ويتلطف به ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه ، فربما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال ، فان أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانته ، فان كل ظلم وايذاء وحق من حقوق العباد اذا لم يحل صاحبه يوم القيامة

يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض ، سواء رضى الظالم أم لا ، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا ، كما أنه يحكم في الدنيا على من أتلف مال غيره باعطاء المثل ، ويقهر على ذلك ، ويحكم على هذا الغير بقبوله ، ويجبر عليه ان امتنع عن الابراء وعن القبول ، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة ، فيقتص من كل ظالم موذ بأخذ حسناته ووضعها في موازين أرباب المظالم ، فان لم تف بها حسناته ، حمل من سيئات أرباب المظالم ، فيهلك المسكين بسيئات غيره . وبذلك يعلم : انه لاخلاص لأحد في القيامة الا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات ، ومع الرجحان — ولو بقدر مثقال — تحصل النجاة ، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات ، حتى لاترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين ، وعلى كل حال لايغفل عن التضرع والابتهال في الليل والنهار الى الله سبحانه ، لعله بعميم لطفه لايفضحه يوم تبلى السرائر ، ويرضى خصمه بخفى ألطافه .

وما كان في (الدين) : بأن نسب مسلما الى الكفر او الضلالة أو البدعة ، فليكذب نفسه بين يدي من قال ذلك عنده ، ويستحل من صاحبه مع الامكان ، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال الى الله ليرضيه عنه يوم القيامـــة .

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس : أرضاء الخصوم مع الامكان ، وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار ، والرجوع الى الله بالتضرع والابتهال ، وليرضيهم عنه يوم القيامة ، ويكون ذلك بمشية الله ، فلعله اذا علم الصدق من قلب عبده . ووجد ذله وانكساره ، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزانة فضله ، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله .

فصـــل

تكفير الصغائر ومعنى الكبائر

أعلم ان صاحب الشرع قسم الذنوب الى كبيرة وصغيرة ، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ، وأن الصلوات الخمس لاتكفر الكبائر وتكفر

الصغائر ، قال الله — تعالى — :

« ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » (١٢) . وقال : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم « (١٣) .

وقال رسول الله (ص) : « الصلوات الخمس والجمعة تكفر مابينهن ان أجتنبت الكبائر » واجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا أجتنبها مع القدرة والارادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس ، فان مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من أقدامه على النظر في اظلامه ، فهذا معنى تكفيره فان كان أمتناعه لعجز أو خوف او نحو ذلك ، فلا يصلح للتكفير ، فكذلك من يشتهى الخمر بطبعه ولو أبيح له لماشربه ، فأجتنابه لايكفر عن الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والاوتار ومثله .

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف ، لان الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى ما دونه ، وصغير بالاضافة الى ما فوقه . وقد أختلف العلماء في تعيين الكبائر أختلافا لايكاد يرجى زواله ، واختلفت الروايات فيها أيضا .

والاظهر بالنظر الى الروايات والى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنار على فعله أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ، ويعنى بوصفه بالكبيرة : ان العقوبة بالنار عظيمة ، او ان تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه . ويمكن ان يقال : ان الشرع لم يعينها ، وأبهمها ليكون العباد على وجل منها ، فيجتنبون جميع الذنوب ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها ، ويواظبوا في ليال متعددة على العبادات ، وكما أبهم الاسم الاعظم ليواظبوا على جميع اسماء الله . والحاصل : أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق اليه الابهام ، والكبيرة على الخصوص لاحكم لها في الدنيا من حيث انها كبيرة ، فان موجبات الحدود معلومة بأساميها ،

---

(١٢) النساء ، الآية : ٣٠

(١٣) النجم ، الآية : ٣٢

وانما حكم الكبيرة أن اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لاتكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والابهام أليق به ، حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر .

فصل

الصغائر قد تكون كبائر

أعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب :

أحدها — الاصرار والمواظبة ، ولذلك قال الصادق (ع) : «لاصغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار » . والسر فيه : أن الصغيرة لقلة تأثيرها لاتؤثر في القلب باظلامه مرة او مرتين ، ولكن اذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في القلب ، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « خيرالاعمال أدومها ، وان قل » . واذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وان قلت ، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وان قلت . ثم معرفة الاصرار موكول الى العرف ، قال الباقر (ع) في قوله تعالى :

« ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » (١٤) :

« الإصرار : أن يذنب الذنب ، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة ، فذلك الاصرار » .

وثانيها — أستصغار الذنب ، فان العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله ، وكلما أستصغره كبر عند الله ؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الالف به ، وذلك يوجب شدة الاثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنوره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لايؤخذ بما يجرى عليه في الغفلة ، لعدم تأثره به ، ولذلك ورد في الخبر : « ان المؤمن

---

(١٤) آل عمران ، الآية : ١٢٥ .

يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » . وقال رسول الله (ص) : « أتقوا المحقرات من الذنوب، فانها لاتغفر » ، قيل : وما المحقرات ؟ قال : « الرجل يذنب الذنب ، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك » . وروى : « انه (ص) نزل بأرض قرعاء ، فقال لأصحابه : ائتونا بالحطب ، فقالوا : يارسول الله ! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب ، قال : فليأت كل انسان بما قدر عليه . فجاؤا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض ، فقال (ص) : هكذا تجتمع الذنوب اياكم والمحقرات من الذنوب فان لكل شيء طالبا ، ألا وان طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين » . وقال امير المؤمنين عليه السلام « لاتصغر ما ينفع يوم القيامة ، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم الله كمـن عاين » . وقال الباقر (ع) : « أتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالبا ، يقول أحدكم : أذنب واستغفر الله . ان الله — تعالى — يقول :

« ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى امام مبين » (١٥) . وقال — عز وجل — : « انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة او فى السموات أو في الارض يات بها الله ان الله لطيف خبير » (١٦) .

وقال الصادق (ع) : « ان الله يحب العبد ان يطلب اليه في الجرم العظيم ، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير » . وقال الكاظم (ع) : « لاتستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب ، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا ، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من انفسـكم النصف » [١٧] . والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن : كونه عالما بجلال الله وكبريائه ، فاذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغير كبيرا ، وقد اوحى الله الى بعض أنبيائه : « لاتنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ،

---

(١٥) يس ، الآية : ١٢ .

(١٦) لقمان ، الآية : ١٦

(١٧) صححنا الاحاديث كلها على اصول الكافى « باب التوبة وباب تفسير الذنوب » .

ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها » . ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين : « انكم تعملون اعمالا هى ادق في اعينكم من الشعر ، وكنا نعدها على رسول الله من الموبقات » ، اذ كانت معرفةالصحابة بجلال الله اتم ، فكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله كبائر .

وثالثها — ان يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها، اغترارا بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وامهاله اياه ، ولايعلم انه انمايمهل مقتا ليزداد بالامهال اثما ، فتزهق انفسهم وهم كافرون ،فمن ظنأنتمكنه منالمعاصي عناية منالله به،فهو جاهل بمكامن الغرور ، وآمن من مكر الله الذى لايأمن منهالا الكافرون .

ورابعها — السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبدكبرت وعظم اثرها في تسويد قلبه ، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله ، اوغبنه في ماله في المعاملة ، ثم فرح به ، ويقول : اما رايتنى كيف مزقت عرضه ؟ وكيف فضحته ؟ وكيف روجت عليه الزيف ؟ كانت معصيته اشد مماذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه ، اذ الذنوب مهلكات ، واذا ابتلى بها العبد فينبغى ان يتأسف من حيث ان العدو — اعنى الشيطان — ظفر به وغلب عليه ، لاان يفرح بغلبة العدو عليه ، فالمرض الذى يفرح بانكسار انائه الذى فيه دواؤه لتخلصه من الم شربه ، لايرجى شفاؤه .

وخامسها — ان يذنب ويظهر ذنبه بان يذكره بعد اتيانه ، اويأتى به في مشهد غيره، فان ذلك خيانة منه على الله الذى اسدله عليه ، وتحريك الرغبة والشر فيمناسمعه ذنبه او اشهده فعله،فهما خيانتان انضمتاالى خيانتهفتغلظت به، فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الاسباب له صارت خيانته رابعة ، وتفاحش الامر . وهذا لان من صفات الله انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولايهتك الستر ، فالاظهار كفران لهذه النعمة ، قال رسول الله (ص) : « المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئة مخذول ، والمستتر بها مغفور له » . وقال الصادق (ع) : « من جاءنايلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدى عورة قدسترها الله فنحوه»

وسادسها — ان يكون الآتى بالصغيرة عالما يقتدى به الناس ، فاذافعله

بحضرة الناس اوبحيث اطلعوا عليه ، كبر ذنبه ، وذلك كلبسه الذهب والابريسم واخذه مال الشبهة ، واطلاقه اللسان في اعراض الناس ، ونحو ذلك . فهذه ذنوب يقتدي العالم فيها ويتبع عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيرا في العالم، فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ، وفي الخبر : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها من عمل بها لاينقص من اوزارهم شيء » قال الله تعالى

« **ونكتب ما قدموا وآثارهم** » (١٨) .

والآثار : مايلحق الاعمال بعد انقضاء العمل . فعلى العالم وظيفتان : احداهما ترك الذنب ، والاخرى ـ اخفاؤه ، وكما تتضاعف اوزار العالم على السيئات اذا اتبع فيها ، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات اذا اتبع .

فصل

شروط كمال التوبة

يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بمامر : من طول الندم ، وقضاء العبادات ، والخروج عن مظالم العباد، وطول البكاء والحزن والحسرة ، واسكاب الدموع ، وتقليل الاكل ، وارتياض النفس ، ليذوب عن بدنه كل لحم نبت من الاغذية المحرمة والمشتبهة ، قال أمير المؤمنين (ع) لمن قال بحضرته : استغفر الله : « ثكلتك أمك ! أتدري ماالاستغفار ؟ ان الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها : الندم على مامضى ، والثاني : العزم على ترك العود عليه ابدا ، والثالث : أن تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد الى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها ، والخامس : أن تعمد الى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد ، والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله » .

فصل

هل يصح التبعيض فى التوبة

اعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح ، بشرط ألا

---

(٢٨) يس ، الآية : ١٢ .

تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله ، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس ، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيسا أو غصبا أو قهرا أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر ، كالـذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر . والدليل على امكان ذلك وصحته : أن العبد اذا علم أن الكبائر اعظم اثمـا عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب الى تطرق العفو اليها ، فلا يبعد أن يتوب عن الاعظم دون الاصغر ، وكذا اذا تصور أن بعض الكبائر أشد واغلظ عند الله من بعض ، فـلا يبعد أن يتوب عن الاغلظ دون الاخف ، وقـد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة ، فلا يقدر على الصبر عنها ، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل، فيمكنه الترك بسهولة ، فيتوب عنه دون الاول ، وان كان الاول أغلـظ وأشد اثما،كالذي شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة، فيترك الغيبةويتوب عنها دون الخمر ، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع اختلافهما نوعا بأي نحو كان ممكن وصحيح ، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه ، ويكتب عليه اثم مالم يتب عنه ، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبةمن هذا القبيل اذ كثر التائبون في الاعصار الخالية والقرون الماضية ، ولم يكن أحد منهم معصوما ، فيكون كل منهم جازما بأنه يصدر عنه معصيته البتة . ويدل على الصحة قوله (ع) : « التائب من الذنب كمن لاذنب له » ، حيث لم يقل : التائب من الذنوب . نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلهما غير صحيح وغير معقول ، لا ستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله ، فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام ، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام ، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر ، اذ لو كان ذلك صحيحا لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز ، أو عن أخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم ... وهكذا . والحاصل : ان التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتهما في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح ، ومع تماثلهما فيهما غير معقول . ومن العلماء من قال : ان التوبة عن البعض

دون البعض لا تصح مطلقا ، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم وانما يندم على السرقة ــ مثلا ــ لكونها معصية لا لكونها سرقة ، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل المعصية ، اذ العلة شاملة لهما، لان من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ،لان التوجع انما هو بفوات المحبوب ، سواء كان بالسيف أو بالسكين ، وكذلك توجع التائب انما هو لفوات المحبوب بالمعصية . سواء عصى بالسرقة أو بالزنا ، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه .

فصل

اقسام التائبين

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع الى الذنوب فلا يحوم حومها وبين من بقى في نفسه الشروع اليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها : والاول بيّن من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط : والاول من الاول أفضل من الثاني ، والثاني منه أدون من الثاني ، والوجه ظاهر . وأيضا التائبون بين من نسى الذنب من دون اشتغال بالتفكر فيه ، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه . ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر الى المبتدى ومن يخاف عليه العود أفضل ، لانه يصده عنه ، والنسيان بالنظر الى المنتهى السالك والواصل الى مرتبة الحب والانس الواثق من نفسه أنه لايعود أفضل ، لانه شغل مانع عن سلوك الطريق ، وحاجب من الحضور بلا فائدة . ولا ينافيه بكاء الانبياء وتناجيهم من الذنوب ، لانهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللائقة بالامة ، فانهم بعثوا لارشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع الامة بمشاهدته ، وان كان نازلا عن ذروة مقامهم . ولذا قال رسول الله (ص) : « أما اني لا أنسى ، ولكن أنسى لأشرع » [١٩] . ولا تعجب من هذا ، فان الامم في كنف شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة ، والاب اذا أراد

(١٩) الحديث نبوي مروي في احياء العلوم : ٤ / ٣٨ .

أن يستنطق ولده الصغير ينزل الى درجة نطق الصبي ، والراعي لشاة او طائر يصوت به رغاء او صفيرا شبيها بالبهيمة والطائر ، تلطفا في تعليمه .

فصل

مراتب التوبة

أعلم ان التائب اما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة الى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط ، ولا يعود الى ذنوبه ، ولا يصدر عنه معصية الا الزلات التي لايخلو عنها غير المعصومين ، وهذه التوبة النصوح ، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع الى ربها راضية مرضية ، او يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أمهات الطاعات ، الا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري أحواله غفلة وسهوة وهفوة ، لا عن محض العمد وتجريد القصد ، واذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف ، وجدد عزمه على ألا يعود الى مثله ، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي اليه ، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها ،ولها حسن الوعد من الله تعالى بقوله :

« الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة » (٢٠) .

والى مثلها الاشارة بقوله (ص) : « خياركم كل مفتن تواب » . وفي خبر آخر : « المؤمن كالسنبلة ، يفيء أحيانا ويميل أحيانا » . وفي خبر آخر : « لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » (٢١) : أي الحين بعد الحين . وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لاينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصرين ، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله الى درجة التائبين فهو ناقص ، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين ، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة . ولا ريب في نقصانه ، فالعالم حق العالم هو الذي لايؤيس الخلق

---

(٢٠) النجم ، الآية : ٣٢

(٢١) صححنا النبويات الثلاث على احياء العلوم : ٣٩/٤

من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيئات المختطفات، اذ أمثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لايفسد النفس ولا يبطلها بحيث لايقبل الاصلاح ، او يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب ، فيقدم عليه عمدا وقصدا ؛ لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها ، الا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة ، وانما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة ، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم ، ويقول سأتوب عنها ، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوما بعد يوم ، والنفس التي هذه درجتها هي التي تسمى النفس المسولة المسؤل صاحبها ، واليها الاشارة بقوله تعالى :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا »(٢٢) .

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو ، فعسى الله أن يتوب عليها ، ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها ، فربما أختطفها الموت قبل التوبة ، ويقع أمرها في المشيئة ، فيدخل في زمرة السعداء ، أو يسلك في سلك الاشقياء ، او يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى الذنوب عمدا وقصدا ، من غير ان يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف ويتندم ، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب وأتباع الشهوات وهذا معدود من المصرين ، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ، ومثله ان مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة ، وان ختم له بالسوء كان من أهل النار ، وان مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره الى الله ، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته ، ثم يخلص منها بعميم لطفه .

فصل

عدم الثقة بالاستقامة لايمنع من التوبة

أعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي

(٢٢) التوبة الآية : ١٠٢

أن يمنعه ذلك عن التوبة ، علما منه أنه لافائدة فيه ، فان ذلك من غرور الشيطان ، ومن أين له هذا العلم ، فلعله يموت تائبا قبل أن يعود الى الذنب •

وأما الخوف من العود ، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم ، فان وفى به فقد نال مطلبه ، والا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها ، وليس عليه الا هذا الذنب الذي أحدثه الآن • وهذا من الفوائد العظيمة والارباح الجسيمة ، فلا يمنعك خوف العود من التوبة فانك من التوبة أبدا بين احدى الحسنيين : — احداهما — العظمى : وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود الى ذنبه في الاستقبال • — وثانيتهما — وهي الصغرى : غفران الذنوب الماضية ، وان لم يمنع العود الى الذنب في المستقبل • ثم اذا عاد الى الذنب ينبغي ان يتوب عنه دفعة ، ويتبعه بحسنة لتمحوها ، فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا • والحسنات المكفرة للذنوب اما متعلقة بالقلب : وهي الندم ، والتضرع الى الله ، والتذلل له ، واضمار الخير للمسلمين ، والعزم على الطاعات ، او باللسان : وهي الاعتراف بالظلم والاساءة ، وكثرة الاستغفار ، او بالجوارح : وهي أنواع الطاعات والصدقات • وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها • وفي الخبر : ان الذنب اذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو مرجوا : أربعة من أعمال القلوب ، وهي : التوبة او العزم على التوبة ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة • واربعة من أعمال الجوارح ، وهي : أن تصلي عقب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقة ، ثم تصوم يوما • وفي بعض الاخبار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين ، وفي بعضها : تصلي أربع ركعات • ولا تظن ان الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لافائدة فيه أصلا ؛ بل هو توبة الكذابين ،لما ورد من ان المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله لان الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولافائدة فيه أصلا هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة ، أي ما يكون مجرد حركة

اللسان من دون مدخلية للقلب ، كما اذا سمع شيئا مخوفا ، فيقول على الغفلة : استغفر الله ، او نعوذ بالله ، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه ، وأما اذا أنضاف اليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق أرادة وخلوص رغبة وميل قلبي الى اقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها ، وان علم أن نفسه الامارة ستعود الى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لان يدفع بها السيئة ، فالاستغفار بالقلب وانخلا عن حل عقدة الاصرار لايخلو عن الفائدة ، وليس وجوده كعدمه . وقد عرف أرباب القلوب بنورالبصيرة معرفة قطعية يقينية لايعتريها ريب وشبهة صدق قوله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٢٣).

ولذا جزموا وقطعوا بأنه لاتخلو ذرة من الخير عن أثر كما لاتخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو كانت كل شعيرة خالية عن أثر لكان لايرجح الميزان بأجتماع الشعيرات ، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات الى أن يثقل فتسل كفة السيئات ، فاياك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وتستحقر ذرات المعاصي فلا تتقيها ، كالمرأة الخرفاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لاتقدر في كل ساعة الا على خيط واحد ، وأي غنى يحصل منه ، وما وقع ذلك في الثياب ، ولا تدري ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل ، فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات . قال الصادق عليه السلام : « ان الله تعالى خبأ ثلاثا في ثلاث : رضاه في طاعته ، فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه . وغضبه في معاصيه ، فلا تحقروا شيئا فلعل غضبه فيه . وخبأ ولايته في عباده ، فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولى الله » . فاذا الاستغفار بالقلب حسنة لايضيع أصلا ، بل ربما قيل : الاستغفار بمجرد اللسان أيضا حسنة ، اذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالنظر الى السكوت عنه ، وان كان نقصا بالاضافة الى عمل القلب ، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار ، ويجتهد في اضافة حركة

---

(٢٣) الزلزال ، الآية : ٧ — ٨

القلب اليها ، ويتضرع الى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتيادالخير .

فصــل

علاج الاصرار على الذنوب

اعلم أن الطريق الى تحصيل التوبة ، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب : أن يتذكر ما ورد في فضلها — كما مر — ويتذكر قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها ، وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الانبياء وأكابر العباد ، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية ، بسبب تركهم الاولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصي ، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته كما دل عليه الاخبار الكثيرة ويتذكر ما ورد من العقوبات على أحاد الذنوب: كالخمر ، والزنا ، والسرقة ،والقتل ، والكبر ، والحسد ، والكذب ، والغيبة وأخذ المال الحرام ... وغير ذلك من أحاد المعاصى مما لايمكن حصره ، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن أحتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا ، ويتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة ، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب ، ولا يغتر بعدم الاخذ الحالي ، اذ لعله كان من الاملاء والاستدراج. فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة ، اذ لو لم ينزعج الى التوبة بعد ذلك ، فهو اما معتوه احمق او غير معتقد بالمعاد ، وينبغي ان يجتهد في قلع أسباب الاصرار من قلبه : اعني الغرور ، وحب الدنيا ، وحب الجاه ، وطول الامل ... وغير ذلك .

فصــل

الانابــــة

أعلم ان الانابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله ، والاقبال على الله تعالى بالسر والقبول والفعل ، حتى يكون دائما في فكره وذكره وطاعته ، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها ، اذ التوبة هو الرجوع عن الذنب الى الله ، والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضا اليه سبحانه ، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية . قال الله سبحانه :

« وانيبوا الى ربكم وأسلموا له » (٢٤) . وقال ـ سبحانه ـ : « وما يتذكر الا من ينيب » (٢٥) . وقال : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » (٢٦) .

وانابة العبد تتم بثلاثة أمور :

الاول ـ أن يتوجه اليه بشراشر باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره .

الثاني ـ ألا يكون خاليا عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه .

الثالث ـ أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية .

المحاسبة والمراقبة

(تذنيب) ـ أعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتهما من وجه الاصرار على الذنوب . ومثلها في كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتي الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها ، فنحن نشير هنا الى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والاعمال التي يتوقف تماميتها عليهما في فصول .

فصل

المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة

(المحاسبة) : ان يعين في كل يوم وليلة وقتا يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ، ليعاتب نفسه ، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة ، أو مرتكبة لمعصية ، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة .

(والمراقبة) : أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائما ، حتى لايقدم على شيء

---

(٢٤) الزمر ، الآية : ٥٤
(٢٥) المؤمن ، الآية : ١٣
(٢٦) ق ، الآية : ٣١ ـ ٣٥ .

من المعاصي ، ولا يترك شيئا من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة . هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة ، ويأتي أعتبار أمور واعمال أخر فيه عرفا .

فصـل

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

أعلم ان الكتاب والسنة واجماع الامة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة ، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب ، والمطالبة بمثاقيل الذر من الاعمال والخطرات واللحظات ، قال الله سبحانه :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢٧). وقال : « يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بماعملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد»(٢٨). وقال : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا » (٢٩) . وقال : « يومئذ يصدر النـاس اشتاتا ليروا اعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره»(٣٠). وقال : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمـدا بعيدا » (٣١) . وقال : « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون » (٣٢) .وقال : « فوربك لنسئلنهم اجمعين عمـا كانوا يعملون » (٣٣) .

وقال رسول الله (ص) : « ما منكم من أحد الا ويسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » . وورد بطرق متعددة : أن كل أحد في يوم القيامة لايرفع قدما عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن

(٢٧) الانبياء ، الآيـة : ٤٧ .
(٢٨) المجادلة ، الآية : ٦
(٢٩) الكهف ، الآيـة : ٥٠ .
(٣٠) الزلزال ، الآية : ٦ — ٨
(٣١) آل عمران ، الآية : ٣٠
(٣٢) البقرة ، الآية : ٢٨١ . آل عمران ، الآية : ١٦١ .
(٣٣) الحجر ، الآية : ٩٢ .

جسده فيما ابلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه . والآيات والاخبار الواردة في محاسبة الاعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير أكثر من أن تحصى ، وبأزائها أخبار دالة على الامر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا ، والترغيب عليها ، وعلى كونها سببا للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة ، وخطره ومناقشته . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، وطالبها في الانفاس والحركات ، وحاسبها في الخطرات واللحظات ، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله : خف في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه : دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته الى الخزي سيئاته ، قال الله سبحانه :

« ولتنظر نفس ما قدمت لغد » (٢٤) .

والمراد بهذا النظر : المحاسبة على الاعمال . وقال رسول الله (ص) : « حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا ، وزنوها قبل ان توزنوا » . وقال الصادق (ع) : « اذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئا الا أعطاه فلييأس من الناس كلهم ، ولايكون له رجاء الا من عند الله — تعالى — فاذا علم الله — تعالى — ذلك من قلبه لم يسأله شيئا الا اعطاه فحاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا عليها فان للقيامة خمسين موقفا ، وكل موقف الف سنة . ثم تلا :

« في يوم كان مقداره خمسين الف سنة » (٣٥)

وتفريع المحاسبة على الامر باليأس عن الناس والرجاء من الله ،يدل على ان الانسان انما يرجو الناس من دون الله في عامة امره وهو غافل عن ذلك ، وان عامة المحاسبات انما ترجع الى ذلك ، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الامر بمحاسبة النفس يدل على ان الوقفات هناك انما تكون للمحاسبات ، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوما فيوماً لم يحتج الى تلك الوقفات فيذلك اليوم ،وقال (ع) :«لولم يكن للحساب مهول الا حياءالعرض على الله — تعالى — وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، لحق للمرء الايهبط من رؤس الجبال ، ولايأوى الى عمران ، ولاياكل ، ولايشرب ، ولاينام الا

(٢٤) الحشر ، الآية : ١٨ .
(٣٥) المعارج ، الآية : ٤ .

عن اضطرار متصل بالتلف : ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة باهوالها شدائدها قائمة في كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدى الجبار ، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة ، كأنه الى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤل ، قال الله — تعالى — :

« وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين »(٣٦) .(٣٧) .

وقال الكاظم (ع) : « ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فان عمل حسنة استزاد الله — تعالى — وان عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه » . وفي بعض الاخبار : ينبغى ان يكون للعاقل اربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه . .

فصل

مقامات مرابطة العقل للنفس

اعلم ان العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة ، ورأس ماله العمر ، وقد استعان في تجارته هذه بالنفس ، فهى بمنزلة شريكه او غلامه الذى يتجر في ماله ، وربح هذه التجارة تحصيل الاخلاق الفاضلة والاعمال الصالحة الموصلة الى نعيم الابد وسعادة السرمد ، وخسرانها المعاصى والسيئات المؤدية الى العذاب المقيم في دركات الجحيم ، او تقول : رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى ، وموسم هذه التجارة مدة العمر ، وكما ان التاجر يشارط شريكه اولا ، ويراقبه ثانيا ، ويحاسبه ثالثا وان قصر في التجارة — بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال — يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة ، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس الى ان يرتكب هذه الاعمال ، ومجموع هذه الاعمال يسمى : (المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض اجزائه ، وقد يسمى (مرابطة) ايضا .

فأول الاعمال في المرابطة (المشارطة) : وهى ان يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة الا يرتكب المعاصى ، ولا

(٣٦) الانبياء الآية : ٤٧ .

(٣٧) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٨٥ ، ص ١٨٦ .

يصدر منها شيء يوجب سخط الله ، ولايقصر في شيء من الطاعات الواجبة ، ولايترك ماتيسر له من الخيرات والنوافل . والاولى ان يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها ، فيخاطب النفس ويقول لها : يانفس مالى بضاعة سوى العمر ، ومهما فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد ، وقد امهلنى الله فيه بعظيم لطفه ولو توفانى لكنت اتمنى ان يرجعنى الى الدنيا يوما واحدا لاعمل صالحافاحسبى انك توفيت ثم رددت ، فاياك ان تضيعى هذا اليوم ، فان كل نفس من انفاس العمر جوهرة نفيسة لاعوض لها ، يمكن ان يشترى بها كنزا من الكنوز لايتناهى نعيمها ابدا الاباد . ويتذكر ماورد في بعض الاخبار : من ان كل عبد خلقت له بأزاء كل يوم وليلة من عمره اربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فاذا مات تفتح له هذه الخزائن ، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها ، فاذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التى اطاع الله فيها ، يراها مملوة نورا من حسناته التى عملها في تلك الساعة ، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التى هى وسائل عند الملك الجبار مالووزع على اهل النار لادهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بالم النار ، واذا فتحت له خزانة خلقت بازاء الساعة التى عصى الله فيها ، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشأ ظلامها ، فيناله من الهول والفزع مالو قسم على اهل الجنة لينقص عليهم نعيمها ، فاذا فتحت له خزانة بازاء الساعة التى نام فيها او غفل او اشتغل بشيء من مباحات الدنيا لم يشاهد فيها مايسره ولا مايسوؤه ، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزائن ، وعند ذلك يتحسر العبد على اهماله وتقصيره ، ويناله من الغبن مالايمكن وصفه ، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول : اجتهدى اليوم في ان تعمرى خزائنك ، ولاتدعيها فارغة عن كنوزك التى هى اسباب ملكك ولاتركنى الى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة ان دخلت الجنة ، اذ الم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود مافوقها من الدرجات الغير المتناهية التى نال اليها ابناء نوعك مما لايطاق ، ثم يستأنف لها وصية في اعضائه السبعة : اعنى العين ، والاذن ، واللسان ، والفرج ، والبطن ، واليد ، والرجل ؛ ويسلمها

اليها ، لانها رعايا خادمةلهافي التجارة ولايتم اعمالها هذه التجارةالا بها ، فيوصيها بحفظ هذه الاعضاء عن المعاصي التى تصدر عنها ، وباعمال كل منها فيماخلق لاجله ، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التى تتكرر عليه في اليوم والليلة ، وبالنوافل والخيرات التى تقدر عليها ، وهذه شروط يفتقراليها كل يوم ، لكن اذا اعتادت النفس بتكرر المشارطة والمراقبة بالعمل بهاوالوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها ، وان اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة الى المشارطة فيه ،وبقيت الحاجة اليها في الباقي ،وكل من يشتغل بشيءمن اعمال الدنيا : من ولاية ، او تجارة او تدريس ، او امثال ذلك : لايخلو كل يوم منه من مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه فيها حق،فعليه ان يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها ، وينبغى ان يوصلها بالتدبر في عاقبة كل امر يرتكبه في هذا اليوم والليلة . وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها ، وقد روى : « ان رجلا اتى النبى صلى الله عليه وآله وقال : يارسول الله اوصنى ، فقال له : فهل انت مستوص ان انا اوصيتك ؟ — حتى قال له ذلك ثلاثا ، وفي كلها يقول الرجل نعم يارسول الله ! فقال له رسول الله (ص) : اذا هممت بامر فتدبر عاقبته ، فان يك راشدا فامضه وان يك غيا فانته » . ويظهر من هذا الخبر : ان التأمل في عاقبة كل امر اعظم مايحصل به النجاة ، فينبغى ان يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرها عن الاهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق ، فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ،مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا ومايجرى مجراه هو المشارطة ، وهو اول مقامات المرابطة .

وثانيها (المراقبة) : وهو ان يراقب نفسه عند الخوض في الاعمال ، فيلاحظها بالعين الكالئة ، فانها ان تركت طغت وفسدت ، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون ، بأن يعلم ان الله تعالى مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك قال الله سبحانه :

« أن الله كان عليكم رقيبا »(٢٦) . وقال : « ألم يعلم بأن الله يرى»(٢٧) .

وقال رسول الله (ص) : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . وفي الحديث القدسي : « انما يسكن جنات عدن ، الذين اذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي ! اني لأهم بعذاب أهل الارض ، فاذا نظرت الى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب » . وحكى : « أن زليخا لما خلت بيوسف ، فقامت وغطت وجه صنمها ، فقال يوسف : مالك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار ؟ ! » . وهذه المعرفة ــ اعني معرفة أطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيبا عليهم ــ اذا صارت يقينا ــ أي خلت عن الشك ــ ثم أستولت على القلـب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة اليه ؛ والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين : احداهما مراقبة المقربين ؛ وهي مراقبة التعظيم والاجلال ، وهي ان يصير القلب مستغرقا بملاحظة الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير ، وهذا هو الذي صار همه هما واحدا ، وكفاه الله سائر الهموم ، وأخراهما مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب عليهم يقين أطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم ، ولكن لاتدهشهم ملاحظة الجلال والجمال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات الى الاحوال والاعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله ، فلا يقدمون ولا يجحمون الا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فانهم يرون الله مطلعا عليهم ، فلا يحتاجون الى أنتظار القيامة . ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها .

وحالاته لاتخلو عن ثلاثة ، لانه اما أن تكون في طاعة ، او معصية ، أو مباح . فمراقبته في الطاعة ، بالقربة ، والاخلاص ، والحضور ، والاكمال

---

(٢٦) النساء ، الآية : ١ .

(٢٧) العلق ، الآية : ١٤ .

وحراستها عن الآفات ، ومراعاة الادب . ومراقبته في المعصية : بالتوبة ، والندم ، والاقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتكفير . ومراقبته في المباح : بمراعاة الادب ، بأن يأكل بعد التسمية ، وغسل اليدين ، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل ، ويقعد مستقبل القبلة ، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، وبالصبر عند ابتلائه ببلية ومصيبة ، وبالشكر عند كل نعمة ، ويتذكر شهود المنعم وحضوره ، ويكف النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث امر تميل النفس عنده الى الغضب والتضجر والتكلم بما لايحسن من الاقوال ، فان لكلواحد من أفعاله وأقواله حدودا لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وينبغي ألا يخلو عند أشتغاله بالمباحات عن عمل هو الافضل ، كالذكر والفكر وتخليص النية ، فان الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله ، فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح ، والناس عند الاكل على أقسام : (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير اللهلأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك ، وهؤلاءهم أولو الالباب . (وقسم) ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الاضطرار اليها ، ويتمنون الاستغناء عنه ، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته ، وهؤلاءهم الزهاد . (وقسم) يرون فيه خالقه ، ويشاهدون في الصنع الصانع ، ويترقون منه الى صفات الخالق ، من حيث ان كل معلول أثر من العلة ، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته ، فمشاهدته تذكر العلة ، بل التأمل يرشدك الى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وايجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه اليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك ، وسر ذلك ظاهر واضح . وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع ، والخالق في كل مخلوق ، هم العرفاء المحبون ، اذ المحب اذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب اليه أشتغلقلبه

بالمحبوب ، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر اليه من الموجودات هو صنع الله تعالى ، فله في النظر منها الى الصانع مجال ان فتحت له أبواب الملكوت • (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة ، وليس نظرهم الى الطعام الا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقتهم ، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم ، وهؤلاءهم أكثر أهل الدنيا •

وثالثها — أي ثالث مقامات المرابطة وأعمالها — هو (المحاسبة) بعد العمل ، فان العبد كما يختار وقتا في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق ، ينبغي له أن يختار وقتا في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به ، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء • وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة ، وقد ورد في الاخبار : أن العاقل ينبغي ان يكون له أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر في صنع الله ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب • ولذلك كان الصدر الاول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس ، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة ، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، ويعتقدون أن العبد لايكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه أتم من محاسبة شريكه ، وأن من لايحاسب نفسه اما معتوه أحمق أو لايعتقد بحساب يوم القيامة ، اذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح ، اذا علم ان محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أو توجب خفته ، كيف يجوز له أن يتركها ؟

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل : أن يطالب نفسه اولا بالفرائض التيهي بمنزلة رأس ماله ، فان ادتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها ، وان فوتتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وان ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل ، وان ارتكب معصية أشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها ، وأستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه • وكما أنه يفتشفي حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير ، فيحفظ مداخل الزيادة

والنقصان حتى لايغبن في شيء منها ، كذلك ينبغي ان يفتش عن أفعال النفس ويضيق عليها ، وليتق غائلتها وحيلتها ، فانها خداعة مكارة ملبسة ، فليطالبها اولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد القيامة ، ثم بتصحيح الجواب عن جميع أفعاله وأحواله : من نظره ، وقيامه ، وقعوده ، ونومه ، وأكله ، وشربه ، حتى عن سكوته لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، وعن خواطره ، وأفكاره وصفاته النفسية ، وأخلاقه القلبية ، فان خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع ، بحيث ادت الحق في الجميع ، ولم تترك شيئا مما يجب عليها ، ولم ترتكب شيئا من المعاصي : حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم ، ولم يكن شيئا باقيا عليها ، وان أدت الحق في البعض دون البعض ، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوبا لها ، ويبقى غيره باقيا عليها فيثبته عليها ، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته ، ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون ، أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك الا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فاذا حصل ذلك أشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء .

ورابعها — وهو آخر مقامات المرابطة — (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها ، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة ، والزامها الرياضات الشديدة ، فانه اذا حاسب نفسه ، فوجدها خائنة في الاعمال ، مرتكبة للمعاصي ، مقصرة في حقوق الله ، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل ، فلا ينبغي ان يهملها ، اذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها . فينبغي للعاقل ان يعاتبها أولا، ويقول : أف لك يانفس ! هلكتيني وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والاشرار ، فيا أيتها النفس الامارة الخبيثة ! أما تستحيين وعن عيبك لاتنتهين ؟ ! فما أعظم جهلك وحماقتك ! أما تعرفين ان بين يديك الجنةوالنار وأنت صائرة الى أحداهما عن قريب ؟ فمالك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين ؟ أما علمت ان الموت يأتى بغتة من غير أخبار ، وهو

أقرب اليك عن كل قريب ؟ فمالك لاتستعدين له ؟ أما تخافين من جبار السماوات والارض ، ولا تستحيين منه ؟ تعصين بحضرته وأنت عالمة بأنه مطلع عليك ؟ ! ويحك يا نفس ! جرأتك على معصية الله ان كانت لاعتقادك أنه لايراك فما أعظم كفرك ، وان كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياؤك ، وما أعجب نفاقك ، وكثرة دعاويك الباطلة ! فانك تدعين الايمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ! فتنبهي عن رقدتك وخذي حذرك ! لو أن يهوديا أخبرك في ألذ اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه! ولو اخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعيته ! فقول الله وقول انبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الاولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيرا عندك من قول يهودي أو طفل ؟ ! ... فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات ، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه ، جبرا لما فات منها وتداركا لما فرط فيها ، فاذا أكل لقمة مشتبهة ينبغي ان يعاقب البطن بالجوع ، واذا نظر الى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر ، واذا أغتاب مسلما يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة ، وكذلك يعاقب كل عضو من اعضائه اذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته ، واذا أستخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها ، واذا أستهان بفقير اعطاه صفو ماله ، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات .

وطريق العلاج في الزام النفس — بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات — أمران :

الاول — تذكر ما ورد في الاخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات ، قال الصادق (ع) : « طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه ! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله ، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما ، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى ، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار الى الله ، والخشوع ، والجوع والظماء بالنهار ، والسهر

بالليل ، فان مات صاحبه مات شهيدا ، وان عاش واستقام أداه عاقبته الى الرضوان الاكبر ، قال الله عز وجل :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » (٣٨) .

واذا رأيت مجتهدا أبلغ منك في الاجتهاد ، فوبخ نفسك ولمها وعيرها، تحثيثا على الازدياد عليه ، واجعل لها زماما من الامر ، وعنانا من النهي ، وسقها كالرابض للفارة الذي لايذهب عليه خطوة من خطواته الا وقد صح اولها وآخرها ؛ وكان رسول الله (ص) يصلى حتى تورمت قدماه ؛ ويقول: (أفلا أكون عبدا شكورا)، أراد ان يعتبر به أمته . فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال . ألا وانك لو وجدت حلاوة عبادة الله ، ورأيت بركاتها ، واستضأت بنورها ، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت أربا أربا ، فما أعرض عنها من أعرض الا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق » (٣٩). قيل لربيع بن خيثم : مالك لاتنام بالليل ؟ قال : « لاني أخاف البيات » . والاخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى أكثر من أن تحصى .

الثاني ــ مصاحبة أهل السعي ، والاجتهاد في العبادة ، ومجالسة المجاهدين المرتاضين الذين لاينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات والزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات ، فملاحظة أحوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وأفعالهم ، حتى قال بعضهم : « اذا اعترتني فترة في العبادات ؛ نظرت الى بعض العبّاد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك أعمل اسبوعا » ، الا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا ، اذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة أجتهاد الاولين ، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة أدنى رجل من سلفنا الصالحين . فينبغي ان يعدل من المشاهدة الى سماع أحوالهم ، ومطالعة حكاياتهم وأخبارهم ، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع أحوالهم وأطلع على كيفية أجتهادهم في طاعة الله ، يعلم أنهم

---

(٣٨) العنكبوت ، الآية : ٦٩ .

(٣٩) الحديث بطوله مروي عن (مصباح الشريعة) : باب ٨١ ص ١٨٤ ، مع أختلاف يسير هنا ، فصححناه عليه كما كان هناك .

عباد الله واحباؤه وأنهم ملوك الجنة ، قال بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « صلينا خلفه الفجر ، فلما سلم انتقل الى يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال . والله لقد رأيت أصحاب محمد (ص) وما أرى اليوم شيئا شبههم ، وكانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا ،فقد باتوا لله سجدا وقياما ،يتلون كتاب الله عز وجل ، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم ، وكانوا اذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين » . وكان اويس القرني يقول في بعض الليالي : « هذه ليلة الركوع » فيحيي الليل كله في ركعة ، ويقول في بعضها : « هذه ليلة السجود » فيحيي الليل كله في سجدة . وقال ربيع بن خثيم : « أتيت اويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ، فجلست موضعا ، وقلت : لا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ؛ ثم جلس فغلبته عيناه ، فقال : آللهم اني أعوذ بك من عين نوامة وبطن لاتشبع » . وروى : « أن رجلا من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت [٤٠] عقوبة لها . وبعضهم نظر الى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ومر بعضهم بغرفة فقال : متى بنيت هذه الغرفة ؟ ثم اقبل على نفسه وقال : تسألين عما لايعنيك ؟ ! لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها » وروى : « أن أبا طلحة الانصارى شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة ؛ فتصدق بالحائطة جبرا لما فاته من الحضور في الصلاة » . وكان بعضهم اعتلت احدى قدميه فيصلى على قدم واحدة حتى يصلى الصبح بوضوء العشاء . وكان بعضهم يقول : « ما أخاف من الموت الا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل » . وحكى رجل : « أنه

(٤٠) النشيش : صوت غليان الماء .

نزل بعض أهل الله عندنا بالمحصب [٤١] وكان له أهل وبنات ، وفي كل ليل يقوم ويصلي الى السحر ، فاذا كان السحر ينادي بأعلى صوته : ايها الركب المعرسون ! [٤٢] أكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون ؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب ، فيتوائبون بين باك وداع ، وقاريء ومتوضيء واذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى » .

وهكذا كان عمل عمال الله وسلوك سالكي طريق الآخرة ، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء ، أشرنا الى انموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها ، ويعلمون ان عباد الله ليسوا أمثالنا ، بل هم قوم آخرون . قال بعض الحكماء : « ان لله عبادا انعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر اليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتا للحكمة ، وتوابيت للعظمة . وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوز [٤٣] بحجب العيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من طوائف الفوائد مالايمكن لواصف ان يصفها ، فهم في باطن امورهم كالديباج حسنا ، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن ارادهم تواضعا ، وطريقهم لايبلغ اليها بالتكلف وانما هو فضل الله يؤتيه من يشاء » . فعليك ياحبيبى بمطالعة احوالهم وحكاياتهم ، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك ، واياك ان تنظر الى اهل عصرك ولعمرى ! قل في امثال زماننا من يذكر الله رؤيته ، ويعينك في طريق الدين صحبته ، فان تطع اكثر من في بلدي وعصرك يضلوك عن سبيل الله .

ومنها :

الغفلة

وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه الى مافيه غرضها ومطلبها ، اما عاجلا او آجلا . وضدها : النية ، وترادفها : الارادة والقصد ، وهي انبعاث

---

(٤١) المحصب ـ بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد ـ : موضع بمكة على طريق منى ، ويسمى (بطحاء) .

(٤٢) التعريس : نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة ، من اقولهم: عرس القوم .

(٤٣) فى القاموس : اللوز ـ بالزاي ـ : الملاذ والملجأ .

النفس وميلها وتوجهها الى مافيه غرضها ومطلبها حالا او مآلا والموافق لغرض النفس ان كان خيرا لها وسعادة في الدينا او الدين ، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس الى تحصيله رذيلة ، والنقصان والنية له والقصد اليه فضيلة وكمال ، وان كان شرا وشقاوة ، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة ، والنية له وارادته رذيلة . ثم باعث النفس على النية او الغفلة والكف ، ان كان من القوة الشهوية كانت النية او الغفلة متعلقة بها فضيلة او رذيلة ، وان كان من قوة الغضب كانت النية او الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك . فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية ، وعلى دفع كافر يؤذى المسلمين متعلقة بقوة الغضب ، والنية في العبادات مع انضمام التقرب اليها تسمى اخلاصا . ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لماكان ماهو كذلك عند العقلاء وارباب البصيرة ، فيكون المراد منه ماهو مرغوب ومطلوب في نفس الامر وما تحصيله خير وسعادة ، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها مذمومة والنية ممدوحة ، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك ، كان بهذا الاعتبار والآيات والاخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار ، كما وصف الله الغافلين وقال :

« ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » (٤٤) . وقال : « أولئك هم الغافلون » (٤٥) .

(تنبيه) : الغفلة بالمعنى المذكور اعم من ان يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث الى ما يراه موافقا للغرض مع الجهل بالموافق والملائم ، او مع العلم به ومع النسيان عنه ، او مع التذكر له ، وربما خص في عرف اهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر . ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام ، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات .

تتميم

الغفلة موجبة للحرمان

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان

(٤٤) الفرقان ، الآية : ٤٤ .
(٤٥) الاعراف ، الآية : ١٧٨ .

عن سعادة الدارين ، وتؤدى الى شقاوة النشأتين ، اذ الاهمال في رعاية امر المعيشة ومصالحها يؤدى الى هلاكة الشخص وانقطاع النوع ، والغفلة عن اكتساب المعارف والاخلاق الفاضلة وعن أداء الفرائض والنوافل تنجر الى ابطال غاية الايجاد — اعنى بلوغ كل شخص الى كماله المستعد له — وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة ابد الآباد .

وصـــل

ضد الغفلة النية — تأثير النية على الاعمال — النية روح الاعمال والجزاء بحسبها — عبادة الاحرار والاجراء والعبيد — نية المؤمن من العمل — النية غير اختيارية — الطريق في تخليص النية .

***

قد عرفت ان ضد الغفلة النية ، وهي انبعاث النفس وتوجهها الى مايراه موافقا لغرضها ، وقد عرفت ايضا ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهى واسطة بين العلم والعمل ؛ اذ مالم يعلم امر لم يقصد ومالم يقصد لم يفعل ، فالعلم مقدم على النية وشرطها ، والعمل ثمرتها وفرعها اذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فانه لايتم الا بعلم وشوق وارادة وقدرة ، اذ كل انسان خلق بحيث يوافقه بعض الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور ، فاحتاج الى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي ، وهو موقوف على ادراك الملائم النافع والمنافي الضار ، اذ مالم يعرف الشيء لم يعقل طلبه او الهرب عنه ، وهو العلم ، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه ؛ وهو الشوق اذ من ادرك الغذاء او النار لايكفيه ذلك للتناول والهرب ، مالم يكن شوق الى التناول والهرب ، وعلى القصد والشروع والتوجه اليه ، وهو النيـــة ، اذ كم مشاهد للطعام راغب فيه شائق اليه لايريده لكونه مؤذيا او حراما او لعذر آخر ، وعلى القدرة المحركة للاعضاء اليه — أى الى جلب الملائم او دفع المضار — وبها يتم الفعل فهى الجزء الاخير للعلة التامة التى بها يتم فعل الفاعل المختار ، فالاعضاء لاتتحرك الى جانب الفعل ولاتوجده الا بالقدرة والقدرة تنتظر النية ، والنية تنتظر الداعية الباعثة — اعني الشوق — والشوق ينتظر العلم او الظن بكون مايفعل موافقا له ، فان كان الشوق صادرا عن القوة

البهيمية ، بان يكون الفعل مساتقتضيه هذه القوة : كأكل ،وشرب ،وجماع وكسب مال ، وامثال ذلك من الالتذاذات الشهوية ، كانت النية والقصد ايضا متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها او رذائلها ، وان كان مساتقتضيه القوة السبعية : من دفع موذ ، او طلب الاستعلاء ، او تفوق، وامثال ذلك كانت النية ايضامتعلقة بهذهالقوةمعدودة منفضائلها او رذائلها .وقد ظهر بما ذكر : ان المحرك الاول هو الغرض المطلوب ــ اعنى المقصود المنوى بعد تعلق العلم به ــ وهو الباعث الاول ، وينبعث منه الشوق وهو الباعثالثاني ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعثلاتتهاضها على تحريك الاعضاء الى جانب العمل .

فصــل

تاثير النية على الاعمال

العمل غرضه الباعث ، أي باعثه الاول ، اما واحد : كالقيام للاكرام ، أو للهرب من السبع المتهجم عليه ، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساويا أو متفاوتا : كالتصدق للفقر والقرابة بالنظر الى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سببا للاعطاء ، أو بدون استقلال واحد لو انفرد ، بل المستقل المجموع ، كالمثال المذكور بالنظر الى من يعطي ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد ، أي لا يعطيه قريبه الغني ، ولا الاجنبي الفقير ، أو مع استقلال بعض دون بعض : بأن يكون للثاني تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل ، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث ، ان خيرا فخير : كالدخول في المسجد لزيارة الله ، ولانتظار الصلاة ، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر .وتركالذنوب ، وملاقات الاتقياء واخوانه المؤمنين واستماع المواعظ واحكام الدين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وان شرا فشر : كالقعود فيه للتحدث بالباطل ، وملاحظة النساء ، والمناظرة للمباهاة والمرآة ، وربما كان بعض البواعث خيرا وبعضها شرا : كالتصدق للثواب والرياء ، ودخول المسجد لبعض البواعث الاول ، وبعض البواعث الثانية. والعمل الذي باعثه من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص . ثم باعث

العمل المباح ان كان خيرا بجعله عبادة ، كالتطيب يوم الجمعة لاقامة السنة، وتعظيم المسجد واليوم ، ودفع الاذى بالنتن ، والاكل لقوة العبادات ، والجماع للولد وتطييب خاطر الزوجة : والترفه بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة ، وان كان شرا بجعله معصية ، كالتطيب للتفاخر باظهار الثروة والتزين للزنا ، ولا يؤثر في الحرام ؛ فلا يباح شرب الخمر لموافقة الاقران والاخوان ، فالمعاصي لاتتغير موضوعاتها بالنية ، بخلاف الطاعات والمباحات فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات ، وبالفاسدة تصير أعظم المهلكات فما أعظم خسران من يغفل عن النية ، ويتعاطى الاعمال تعاطي البائم المهملة على قصد حظوظ النفس او على السهو والغفلة ، وقد كانت غاية سعي السلف ان يكون لهم في كل شيء نية صحيحة ، حتى في اكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء .

ولا ريب في امكان تصحيح النية في كل مباح ، بحيث يترتب عليه الثواب ، بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي ، فان من تلف له مال ، فان قال : هو في سبيل الله ، كان له أجر ، وان سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوي كونه من ذخائر الآخرة ، واذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل الى ديوانه حسناته فاياك ان تستحقر شيئا من نياتك وخطرات قلبك ، ولا تقدم على عمل الابنية صحيحة ، فان لم تحضرك النية توقف ، اذ النية لا تدخل تحت الاختيار ؛ وقد قيل : « ان من دعا أخاه الى طعام بدون رغبة باطنة في اجتنابه ،فان أجابه فعليه وزران : النفاق ، وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه ، وان لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق ! » . فلابد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون ؛ لانه اذا لم يكن كذلك غافلا ؛ والغافلون قد وصفهم الله — تعالى — فقال :

« ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » (٤٦) .

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم ؛ قال الصادق (ع) :

(٤٦) الفرقان ، الآية : ٤٤ .

« صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم ، لانه سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الامور كلها ، قال الله — عز وجل — :

« يوم لاينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم » (٤٧) .

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الاوقات في معنى قوته وضعفه ، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله — تعالى — والحياء منه ، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه ، في تعب ، والناس منه في راحة »(٤٨) .

فصل

النية روح الاعمال ، والجزاء بحسبها

النية روح الاعمال وحقيقتها ، والجزاء يكون حقيقة عليها ، فان كانت خالصة لوجه الله — تعالى — كانت ممدوحة ، وكان جزاؤها خيرا وثوابا ، وان كانت مشوبة بالاغراض الدنيوية كانت مذمومة ، وكان جزاؤها شرا وعقابا ، قال الله — سبحانه — :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » (٤٩) .

والمراد بالارادة : النية ، لترادفهما — كما تقدم — . واوحى الله الى داود : « ياداود ! لا تطاول على المريدين ، لو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضا يمشون عليها ، يا داود ! لئن تخرج مريدا من كربة هو فيها تستعده ، كتبتك عندي حميدا ، ومن كتبته حميدا لا يكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين » . وقال رسول الله (ص) : « انما الاعمال بالنيات ؛ ولكل امريء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ؛ ومن كانت هجرته الى الدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » ؛ وانما قال ذلك حين قيل له : ان بعض المهاجرين

---

(٤٧) الشعراء الآية : ٨٨ — ٨٩ .

(٤٨) هذا بعض الحديث المذكور فى مصباح الشريعة — الباب الرابع ص ١٢٥ — ، وفى البحار — الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر ، باب النية وشرائطها ومراتبها ، ص ٧٧ ، ط امين الضرب — . لكن المذكور فى البحار فيه اختلاف يسير عما فى المصباح ، فصححناه على البحار ، لكون المذكور فى البحار اصح مما فى المصباح .

(٤٩) الانعام ، الآية : ٥٢ .

الى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة الا أخذ الغنائم من الاموال والسبايا، أو نيل الصيت عند الاستيلاء ، فبين (ص) : أن كل احد ينال في عمله ما يبغيه ، ويصل الى ما ينويه ، كائنا ما كان ، دنيويا كان أو أخرويا وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو أول ما يعلمونه أولادهم ، وكانوا يقولون : انه نصف العلم • وقال (ص) : « ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ، وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم ، وانما ينظر الى القلوب لانها مظنة النية » • وقال (ص) : « ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة ، فتلقى بين يدي الله — تعالى — ، فيقول : القوا هذه الصحيفة ، فانه لم يرد بما فيها وجهي ، ثم ينادي الملائكة : اكتبوا له كذا وكذا ، فيقولون : يا ربنا ! انه لم يعمل شيئا من ذلك ، فيقول الله — تعالى — : انه نواه » • وقال (ص) : « الناس أربعة : رجل آتاه الله — عز وجل — علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله — تعالى — مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الاجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، فهو يتخبط بجهله في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الوزر سواء ، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه ؟! » • ولما خرج (ص) الى غزوة تبوك ، قال : « ان بالمدينة اقواما ، ما قطعنا واديا، ولا وطأنا موطئا يغيظ الكفار ، ولا انفقنا نفقة ، ولا أصابتنا مخمصة ، الا شاركونا في ذلك وهم في المدينة » ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا ؟! فقال : « حبسهم العذر ، فشاركونا بحسن النية » • وفي الخبر : « أن رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بايدي الكفار ، وكان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار ، لانه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسلبه ، فقتل على ذلك فاضيف الى نيته • وهاجر رجل الى الجهاد مع اصحاب النبي (ص) ، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها — وتسمى أم قيس — فاشتهر هذا الرجل عند اصحاب النبي بمهاجر أم قيس » • وفي اخبار كثيرة : « من هم بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة » كما تقدم ، وقد ورد : أنه اذا التقى المسلمان

بسيفهما ، فالقاتل في النار ، وكذا المقتول ، لانه أراد قتل صاحبه • وقال — صلى الله عليه وآله —: « اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلا يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية الا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله الا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا» وقال (ص) : « من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوي اداءه فهو زان ، ومن استدان دينا وهو لاينوي قضاءه فهو سارق ، ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة [٥٠] ، وكل ذلك مجازاة على حسب النية • وقال الصادق (ع) : « ان العبد المؤمن الفقير ليقول : يارب ! ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فاذا علم الله —عز وجل— ذلك منه بصدق النية كتب له من الاجر مثل ما يكتب له لو عمله ، ان الله واسع كريم »• وسئل(ع) عن حد العبادة التي اذا فعلها فاعلها كان مؤديا، فقال: « حسن النية بالطاعة » • وقال (ع) : « وانما خلد أهل النار في النار لان نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله — تعالى — ابدا ، وانما خلد أهل الجنة في الجنة لان نياتهم كانت في الدنيا ان لو بقوا فيها أن يطيعوا الله ابدا، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلى قوله — تعالى — :

« **قل كل يعمل على شاكلته** » (١) •

قال : على نيته» [٢] وأمثال هذه الاخبار اكثر من ان تحصى ، وأي شبهة في ان عماد الاعمال النيات ،والعمل مفتقر الى النية ليصير خيرا ، والنية في نفسها خير وان تعذر العمل ، وعون الله — تعالى — للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له ،وان نقصت نقص بقدره، فرب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية ، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، ونقل :« أن بعض المرتدين يطوف على العلماء ويقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله — تعالى — ، فاني لا أحب أن

(٥٠) صححنا النبويات كلها على احياء العلوم : ٢١٠/٤ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، باب فضيلة النية .

(١) الاسراء الآية : ٨٤ .

(٢) صححنا الاخبار كلها على أصول الكافي — الجزء الثاني ، باب النية.

تأتي علي ساعة من ليل أو نهار الا وأنا عامل من عمال الله — تعالى — .فقال له بعض العلماء : أنت قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير ما استطعت ، فاذا فترت أو تركته فهم بعمله ، اذ من هم بعمل الخير كمن يعمل بـه ». ثم السر في مجازاة الاعمال على حسب النية ، وكون النية حقيقة العمل وعمادا وروحا له : ان العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه ، وانما فائدته للاثر الذي يصل منه الى النفس من النورانية والصفاء ، ولا يزال يتكرر وصول هذا الاثر من الاعمال اليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء ، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة ، ولا ريب في أن وصول هـذا الاثر من الاعمال انما هو مع صحة النية وخلوصها ،وكونها لله — سبحانه — من دون شوب الاغراض ، بل التأمل يعطي أن هذا الاثر انما هو حقيقة من محض النية ، وان كانت حادثة لاجل العمل .

فصـــل

عبادة الاحرار والاجراء والعبيد

قد ظهر مما ذكر : أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الاجر في الآخرة الا ما يراد التقرب الى الله والـدار الآخرة أي يراد به وجه الله من حيث هو ، من دون غرض آخر من الاغراض الدنيوية ، أو يراد به التوصل الى ثوابه ، أو الخلاص من عقابه ، فمن أراد بعبادته محض وجه الله ، واخلصها له لكونه أهلا للعبادة ، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله ، فاحبه واشتاق اليه ، ولا يريد سواه ولا يبتهج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده ، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه اليه بطاعته : فجزاؤه أن يحبه الله ويجتبيه ، ويقربه الى نفسه وبدنه قربا معنويا ودنوا روحانيا ، كما قال في حق بعض من هذا صفته :

« وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » (٣) .

والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله : « الهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك ، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك» .

---

(٣) ص ، الآية : ٢٥ ، ٤٠ .

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب ، نظرا الى انه لم يعرف من الله سوى كونه الها صانعا للعالم قادرا قاهرا عالما ، وان له جنة ينعم بها المطيعين ، ونارا يعذب بها العاصين، فعبده ليفوز بجنته او يتخلص من ناره : فجزاؤه بمقتضى نيته أن يدخل جنته ، وينجيه من ناره ، لان جزاء الاعمال حسب النيات ، كما اخبر الله — تعالى — عنه في غير موضع من كتابه ، فان لكل امرىء ما نوى ، ولا تصغ الى قول من ذهب الى بطلان العبادة اذا قصد بفعلها الثواب او الخلاص من العقاب زعما منه أن هـذا القصد مناف للاخلاص الذي هو ارادة وجه الله وحده ، وان من قصد ذلك انما قصد جلب النفع الى نفسه ، ودفع الضرر عنها ، لا وجه الله — سبحانه — ، فان هـذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها ، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها ، فان حقيقة النية عبارة من انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها ، اما عاجلا أو آجلا ، لا مجرد قول الناوي عند العبادة : أفعل كذا قربة الى الله ، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وان لم يكن لنفسه انبعاث الى التقرب ، هيهات هيهات ! انما هذا تحريك لسان وحديث نفس ، وما ذلك الا كقول الشبعان : أشتهي هذا الطعام ، قاصدا حصول الاشتهاء ، وهذا الانبعاث اذا لم يكن حاصلا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور ، واكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقربا اليه، لانهم لايعرفون من الله — تعالى — الا المرجو والمخوف ، فغايةمرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا انفسهم عقابها ، ويتذكروا الجنة ويرغبوا انفسهم ثوابها ، وخصوصا من كان ملتفتا الى الدنيا ، فانه قلما تنبعث له داعيةالى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة ، فضلا عن عبادته على نية اجلال الله — تعالى — لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، فانه قل من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ، فلو كلف بها لكان تكليفا بما لا يطاق ، وليس معنى الاخـلاص في العبادة الا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحظوظ العاجلة للنفس، كمدح الناس ، ونيل المال ، والخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك ، وظاهر أنه لا تنافيه ارادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة ، وان

كان من جنس المألوف في الدنيا ، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثا ، اذ كل ما وعد بـه الجنة وأوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب وأوعـد عليه ، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والاخبار أكثر من ان يحصى قال الله ــ سبحانه ــ :

« **ويدعوننا رغبا ورهبا** » (٤) .

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولاموتا ولا حياتا ولا شيئا مما ينفعه ويؤذيه ،ان يستغني عن جلب النفع لنفسه او دفع الضرر عنها من مولاه . ومن تأمل يجد أن القـائل ببطلان العبادة باحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته الى احداهما وهو لا يشعر به .

ومما يدل صريحا على ما ذكرناه قول الصادق (ع) :« العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله ــ عزوجل ــ خوفا ، فتلك عبادة العبيد . وقوم عبدوا الله ــتبارك وتعالى ــ طلب الثواب ، فتلك عبادة الاجراء . وقوم عبدوا الله ــ عز وجل ــ حبا له ، فتلك عبادة الاحرار ، وهي أفضل العبادة » (٥). وهذا يدل على ان العبادة على الوجهين الاولين لا تخلو من فضل ايضا ، فضلا عن أن تكون صحيحة . نعم ، لا ريب في أن العبادة على الوجه الاخير لانسبة لمنزلتها ودرجتها الى درجة العبادة على الوجهين الاولين ، فان من تنعم بلقاء الله والنظر الى وجهه الكريم ، يسخر ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى وجه الحور العين بالملتفت الى الصـور المصنوعة من الطين ؛ وكما يسخر المتنعم بالنظر الى وجوه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر الى وجوههن وتلتفت الى صاحبتها وتألف بها ؛ بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار ؛ اذ التفاوت بين جمـال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين او النسوان الجميلة أعـظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمـال

---

(٤) الانبياء ، الآية : ٩٠ .

(٥) صححنا الرواية على أصول الكافي : الجزء الثاني ، باب العبادة .

النسوان الجميلة والخنفساء ، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الاول غير متناه ،وأي نسبة للمتناهي الى غير المتناهي ؟

فصـــل

نية المؤمن خير من العمل

لما عرفت ان النية روح العمل وحقيقته ؛ وتوقف نفع العمل عليها دون العكس ، وكون الغرض الاصلي من العمل تأثير القلب بالميل الى الله تعالى وتوقفه على النية ، فهي خير من العمل ، بمعنى ان العمل اذا حلل الى جزئية يكون جزؤه القلبي ــ اعني النية ــ خيرا من جزئه الجسماني ــ اعني ما يصدر من الجوارح ــ ، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه ، ولذا قال الله ــ سبحانه ــ :

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (٦) .

فان المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها ايثارا لوجه الله، دون مجرد الدم واللحم ، وميل القلب انما يحصل عند جزم النية والهم ، وان عاق عن العمل عائق ، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ، والتقوى صفة القلب ، ولذا ترى أن المجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم ، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأتــه ، ولذا ورد : أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ؛ لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى ؛ وهو غاية الاعمال الحسنة ؛ وانمــا الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا . وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور : «نية المؤمن خير من عمله ، ونية الكافر شر من عمله » . وكل عامل يعمل على نيته.

وحاصله : ان كل طاعة تتضمن نية وعملا ، وكل منهما من جملــة الخيرات ، وله أثر في المقصود ، وتكون النية خيرا من العمل وأثرها أكثر من أثره . والغرض : أن للمؤمن اختيارا في النية وفي العمل ؛ فهما عملان؛ والنية من الجملة خيرهما ؛ أي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر .

(٦) الحج ، الآية : ٣٧ .

فان قيل : ما ذكرت لايفيد أزيد من أن العمل اذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيرا وذا ثواب ، واذا كان بدونها لا يكون خيرا ولا يكون له ثواب ، والمقصود كون النية خيرا من العمل في الصورة الاولى وكون ثوابها اعظم ، ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت .

قلت : ذلك وان ظهر اجمالا ، الا انه لابد لتوضيحه لتظهر جلية الحال ، فنقول :

الوجه في كون النية خيرا من العمل وراجحة عليه في الثواب : أنه لاريب في أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بلقاء الله — سبحانه — ؛ والوصول الى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه ؛ وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها الى الله — سبحانه — ، فاذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه الى الله — تعالى — كان ضعيفا غير راسخ وانما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح لان بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لاجلها كل واحد منها عن الآخر، فيرى ان العضو اذا اصابته جراحة تتألم بها النفس ، وان النفس اذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم امر مخوف تأثرت الاعضاء وارتعدت الفرائص، فالطاعات التي هي فعل الجوارح انما شرعت للتوصل بها الى صفة النفس — اعني التوجه والميل الى الله سبحانه — ، فالنفس هو الاصل والمتبوع والامير، والجوارح كالخدم والاتباع ، وصفات القلب هي المقصود لذاتها، وافعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض ، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس — اعني الميل والنية والتوجه — ولا ريب في ان ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض ، وثوابه أعظم من ثوابه .

ومن المعاني الصحيحة للحديث : ان المؤمن بمقتضى ايمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها ، اما لعدم تمكنه من الوصول الى أسبابها ، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها ، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول الى اسبابها ، كالذي ينوي ان آتاه الله مالا ينفقه في سبيله ، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الانفاق ،فهذا نيته خير من عمله ، وايضا المؤمن ينوي دائما أن

تقع عباداته على أحسن الوجوه ، لان ايمانه يقتضي ذلك ، ثم اذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك، ولا يأتي بها كما يريد ،فما ينويه دائما خير مما يعمل به في كل عبادة .والى هذا اشار الباقر (ع) حيث قال :« نية المؤمن خير من عمله وذلك لانه ينوي الخير مالا يدركه ، ونية الكافر شر من عمله ، وذلك لان الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر مالا يدركه » .وقيل للصادق(ع):سمعتك تقول : نية المؤمن خير من عمله ، فكيف تكون النية خير من العمل ؟ قال عليه السلام : « لان العمل انما كان رياء للمخلوقين ، والنية خالصة لرب العالمين ، فيعطي — عز وجل — على النية مالا يعطي على العمل »، ثم قال: « ان العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام ، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحا ويجعل نومه صدقة» .وبعض الاخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكده ايضا . وقيل : معنى الحديث : « ان النية بمجردها خير من العمل بمجرده بلانية » . وفيه :ان العمل بدون النية لايتصف بالخيرية أصلا ، فلا معنى للترجيح في الخيرية ، وقيل : سبب الترجيح : « ان النية سر لايطلع عليه الا الله ،والعمل ظاهر ،وفعل السر افضل »وهذا وان كان في نفسه صحيحا ، الا انه ليس مرادا من الحديث ، لانه لو نوى احد ان يذكر الله — تعالى — بقلبه او يتفكر في مصالح المؤمنين، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيرا من العمل الذى هو الذكر والتفكر مع اشتراك النية والعمل في السرية ، وبداهة كون الذكر والتفكر خيرا من نيتهما .

فصل

النية غير اختيارية

النية غير داخلة تحت الاختيار ، وذلك لما عرفت من انها انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ملائم ظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا او آجلا ،وهذا الميل اذا لم يكن حاصلا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الاخطار بالبال والاجراء على اللسان ،بل ذلك كقول الشبعان : نويت ان اشتهي الطعام واميل اليه ، اوقول الفارغ : نويت ان اعشق فلانا واحبه ،فلا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه ، الا باكتساب اسبابه ،

وذلك مما قد يقدر عليه وقد لايقدر عليه ، وانما قدتنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث ، الموافق للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلايتوجه قصده نحوه ، وذلك ممالايقدرعلى اعتقاده دائما ، واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه ، وذلك لايمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها ، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والاحوال والاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد لم يمكنه ان يتزوج على نية الولد ، بل لايمكن الا على نية قضاء الشهوة ، اذ النية اجابة الباعث ، ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد ، ولذا كان اهل السلوك من السلف كثيرا مايمتنعون عن جملة من الطاعات اذا لم تحضرهم النيـة ، وكانوا يقولون : ليس تحضرنى نية ، وذلك لعلمهم بان النيـة روح الاعمال وقوامها ، وان العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لاسبب قرب وروي: «انه اتى الصادق(ع) مولى له ،فسلم عليه وجلس ،فلما انصرف(ع) انصرف معه الرجل ،فلما انتهى الى باب داره دخل وترك الرجل ، فقال له ابنه اسماعيل يا ابه ! الا كنت عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأنى ادخاله ، قال : فهو لم يكن يدخل ، قال : يابنى ! انى اكره ان يكتبنى الله عراضا» .

تتميم

الطريق فى تخليص النية

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية ايمانه بالشرع ،وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية ، واذا قوى ايمانه فربما انبعث من نفسه رغبة الى فعل الطاعة مع خلوص النية مثلا من لم تكن له نية الولد في النكاح بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة فينبغي له ان يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير امة محمد (ص)، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره ؛ واذا فعل ذلك انبعث من نفسه رغبة الى تحصيل الولد للثواب .

ومنها :

الكراهــة

وهى نفرة الطبع عما لايخلو عن ايلام واتعاب ، فاذا قويت سميت مقتا، وضدها الحب ، وهو ميل الطبع الى الشيء الملذ ،فان تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا .

اعلم ان عدم الرغبة والغفلة والكــراهة والبعد امور متناسبة مترتبــة بعضها على بعض ، وكذا أضدادها ــ اعني الشوق والنية والحب والانس ــ امور متناسبة يترتب بعضها على بعض ، فنحن هنا نشير اجمالا الى معانيهــا والفرق بينها ، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب .

فنقول : قد عرفت ان الغفلة والنية ضدان ، وهما عبارتان عن عــدم انبعاث النفس وانبعاثها الى مافيه غرضها الملائم اما عاجلا أو آجلا ، واماعدم الرغبة والشوق فهما ايضا ضدان ومبدآن للغفلة والنية .

بيان ذلك : ان معنى عدم الرغبة ظاهر ، والشوق عبارة عن الرغبة الى الشيء الذى لم يصل اليه وكان مفقودا عنه بوجه ، فالشوق لايخلو عن ألم المفارقة ، ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق . ثم فرق الشوق عن النية ظاهر ، فان الشوق مجرد الرغبة الى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس الى طلبه في مفهومه ، والنية هى الانبعاث المذكور ، فالشوق مبدأ النية ، والنية مترتبة عليه، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما أيضا ــ اعنى عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الكراهة والحب) : فقد عرفت انهما عبارتان عن نفرة الطبــع عن المؤلم ، وعن ميله الى الملذ ، سواء انبعثت النفس عن طلبه املا ، وبهذا يفترق الحب عن النية ، فان النية هى انبعاث النفس ، وهو مغاير لمجرد الميل بل الميل منشأ للانبعاث ، وسواء حصل الوصول الى الملذ ام لا ، وبهــذا يفترق عن الشوق فان الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول ، فالشوق والنية والارادة لاينفكان عن الحب والحب يكون مقارنا لهما البتة ، فاذا حصل الوصول الى المطلوب زال الشوق والارادة وبقى الحب بدونهما . وبماذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الانس) : فهو عبــارة عن استبشار النفس بما يــلاحظ من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه والبعد عبارة عن عدم

الوصول الى المحبوب او الوصول الى مالايستبشر ولايبتهج بملاحظته ، لعدم الرغبة اليه او للتنفر عنه ، فالحب مشأ الانس ، والانس يترتب عليه وهو غاية المحبة،فلا يخلو انس عن المحبة والمحبة قدتكون بدونه، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوبا للقوة العاقلة ، كالعلم بحقائق الاشياء ، وقد يكون مطلوبا للقوة الغضبية ، كالاستيلاء والغلبة ، وقد يكون مطلوبا للقوة الشهوية كالمال والازواج ، وعلى كل تقدير تكون الامور — اعنى عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد — واضدادها — اعنى الشوق والارادة والحب والانس — متعلقة بتلك القوة ،معدودة من رذائلها او فضائلها. ثم المحبوب ان كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعا وعقلا ، كان مايتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل واضدادها من الرذائل ، ان كان مما يذم حبه وطلبه شرعا وعقلا كان بالعكس .

فصل

الشوق — افضل مراتب الشوق الشوق الى الله — تعلق الحب بجميع القوى — اقسام الحب بحسب مباديه — لامحبوب حقيقة الا الله — الشهود التام هو نهاية درجات العشق — سريان الحب في الموجودات — رد المنكرين لحب الله — معرفة الله اقوى سائر اللذات — تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه — الطريق الى الرؤية واللقاء — تفاوت المؤمنين في محبة الله — الواجب اظهر الموجودات — علائم محبة الله — معنى حب الله لعبده — الحب في الله والبغض في الله — الوفاء في الحب — الانس — الانس قد يثمر الادلال.

قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة .

* * *

واما الشوق ، فنقول في بيانه : قد عرفت ان الشوق عبارة عن الميل والرغبة الى الشيء عند غيبته ، فان الحاصل الحاضر لايشتاق اليه ،اذ الشوق طلب يسوق الى نيل امر ، والموجود لايطلب ، فالشوق لايتصور الا الى شيء ادرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فما لايدرك اصلا لايشتاق اليه ، اذ لايتصور ان يشتاق احد الى شخص لم يره ولم يسمع وصفه ، وما ادرك بكماله لا يشتاق اليه ايضا ، اذ المداوم لمشاهدة المحبوب والواصل اليه من

جميع الوجوه لايتصور ان يكون له شوق ، فالشوق يختص تعلقه بما ادرك من وجه دون وجه ، وهذا انما يكون بأحد وجهين :

(احدهما) ان يتضح الشيء اتضاحا ما ، ولم يستكمل الوضـــوح ، فاحتاج الى استكماله فيكون الشوق الى مابقى من المطلوب مما لم يحصل . مثال ذلك : ان من غاب عنه معشوقه ، وبقى في قلبه خياله ، يشتـــاق الى استكمال خياله بالرؤية ، ومن رأى معشوقه في ظلمة ، بحيث لاتتكشف له حقيقة صورته ، يشتاق الى استكمال رؤيته باشراق الضوء عليه ، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق ، كما انه لو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده .

(ثانيهما) ان يدرك بعض كمالات المحبوب ، ووصل اليه ، وعلم اجمالا ان له كمالات اخر ، ولم يدركها ولم يصل اليها ، فيكون له شوق الى ادراك تلك الكمالات . مثال ذلك : ان يرى وجه محبوبه ، ولايرى شعره ولاسائر اعضائه ، فيشتاق الى رؤية ذلك .

فصـــل

افضل مراتب الشوق الشوق الى الله

افضل مراتب الشوق هو الشوق الى الله ـــ سبحانه ـــ والى لقائه ، وهى المظنة الى الوصول اليه ، والى حبه وانسه والتقرب لديه ، وهو رأس مال السالكين ، ومفتاح ابواب السعادة للطالبين ، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله ، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين ، فلايخلو عارف من الشوق الى الله :

اما الوجه الاول ، فلان ما اتضح للعارفين مع الامور الآلهية وان بلغ غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق ، فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمانعة عن ظهورها اليقيني، (لا) ســيما اذا انضاف اليها شواغل الدنيا ، فكمال الوضوح في الامور الآلهية انما هو بالمشاهدة واشراق التجلي ، ولا يكون ذلك في هذا العالم ، بل يكون في الآخرة ، فهذا احد الموجبين لشــوق العارفين الى الله

ـ سبحانه ـ وهو الشوق الى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما .

واما الثانى ، فلأن الامور الآلهية لانهاية لها ، وانما ينكشف لكلعارف بعضها ، وتبقى امور غير متناهية خفية عنه ، والعارف اجمالا وجودها وكونها معلومة لله ـ تعالى ـ ويعلم ان ماغاب عن علمه من المعلومات اكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا الى ان يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمةالله وجلاله وصفاته وافعاله بما لايعرفها اصلا ، لامع الوضوح ولامع الابهام والاجمال . والشوق الاول ربما انتهى في الآخرة اذا حصل الشهود واللقاء المعنوي لاجل استخلاص النفس منموانع الطبيعة وقشوراتها وحصولالتجرد التام لها ، واما الشوق الثاني فلايمكن ان ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة، اذ نهاية ذلك ان ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته واحكامه وافعاله ماهو معلوم لله ـتعالى ـ وهو محال ، اذمعلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة ، فتمتنعاحاطة الانسان بها ،فلا يزال العبد عالما بانه قد بقي من جلال الله وعظمته ومنصفته وفعله مالم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، ومامن عبد الا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لانهاية لها ، فيشتاق اليها ألبتة ، واذا كان أصلالوصال واللذة حاصلا ، فربما كان الشوق الى المراتب التى فوق مرتبتها شوقا لذيذا لايظهر فيه الم ، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتهمامتوالية الى غير النهاية وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدريج ، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى اليها ، ولايزال النعيم واللذة تتزايد له ابد الآباد من غير انقطاع له ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن الاحساس بالشوق الى مالم يحصل له المه ، فان امكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا ، لكان حصول المعارف والابتهاجات والانوار وتجددها في الآخرة ممكنا ، وان لم يكتسب أصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد علىالعبد في الآخرة على الدوام والاستمرار من دون أن ينتهي الى حد . وربما كان قوله ـ تعالى ـ :

« نورهم يسعى بين أيديهم وبايمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » (٧) :

أشارة الى هذا المعنى ، ويكون المراد به اتمام النور في عين ما أستنار

---

(٧) التحريم ، الآية : ٨ .

في الآخرة أستنارة محتاجة الى الظهور ، ثم الى زيادة الاستكمال والاشراق وان أختص حصول نعم الآخرة وأنوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد مالم يكتسب في الدنيـا أصله من الانوار والابتهاجات ، فيكون ترقى العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيماحصل له أصله ، وعلى هذا ، فربما انتهى الى حـد ووقف هناك ولا يتضاعف ، وقوله تعالى : « نورهم يسعى ... الى آخر الآية » يحتمل لهذا المعنى أيضا ، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله .
(قيل) : وقوله تعالى :

« أنظرونا نقتبس من نوركم قيل أرجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » (٨) :

يدل على أن الانوار لابد أن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة أشراقا ، فأما ان يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا .

ثم لايخفى أن تعيين الاصل والفرع للأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل ، وليس لنا طريق الى القطع بأن أي شيء اصل لأي نور وبهجة ، وربما كان المظنون عندنا : ان أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الاجمالي بأن الواجب سبحانه في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال ، وأنه تام‌فوق التمام ، وكل ما سواه من المهيات‌الموجودة صادرة عنه على أشرف انحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة ، وأنه لا موجود ولا شيء الا الواجب وصفاته وأفعاله ، وان ذاته الاقدس ذات لايمكن أن يكون لذهن من الاذهان العالية ، ولا لمدرك من المدارك المتعالية عقلا كان أو نفسا او غيرهما ، لو أمكن ان يكون مدركا ، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتا يمكن أن تكون فوقه أو مثله ، بل كلما تصور أجمالا فهو فوقه ، وكذا صفاته الكمالية وأفعاله ؛ وأن صفاته الكمالية : من‌عظمته، وجلاله ، وقدرته ، وجماله ، وعلمه ، وحكمته ، وغير ذلك غير متناهية ؛ وليس لها حدٌ وغاية ؛ وما تعلق به علمه من مخلوقاته لانهاية له كثرة وقوة وكمالا ، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة والجلال مالا يطيق أشرف الموجودات وأقواها لادراك أولها ، فمن عرف ذلك وتيقن به ، وعلم

(٨) الحديد ، الآية : ١٣ .

ان هذا العالم وما فيه لانسبة له الى عالم الآخرة وما فيه ، وأن ألطافه ومزاياه الى عباده الذين عرفوا نسبتهم اليه ، وتيقنوا بأن لاشرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب اليه والوصول الى حبه وانسه، فقد وصل الى أصل كل سعادة ونور وبهجة ، لاسيما اذا دفع عن نفسه ذمائم الاخلاق واتصف بفضائلها • وقد ظهر مما ذكر : انه لاريب في ثبوت الشوق للعباد الى الله سبحانه • والعجب ممن أنكر حقيقة الشوق الى الله سبحانه لانكاره المحبة له كما يأتي ، اذ لايتصور الشوق الا الى محبوب، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار • ولا ريب في ثبوته أيضا من الآيات والاخبار : قال الله سبحانه :

« فمن كان يرجو لقاء ربه ... » الى آخر الآية (٩) •

فان الرجاء لاينفك عن الشوق • وقال رسول الله (ص) في دعائه : « اللهم اني اسألك الرضاء بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت • ولذة النظر الى وجهك الكريم ، وشوقا الى لقائك » • وفي بعض الكتب السماوية : « طال شوق الابرار الى لقائي ، وأنا الى لقائهم لأشد شوقا » • وفي أخبار داود (ع) : « اني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ، ونعمتها بجلالي » • وفيها أيضا : « انه تعالى اوحى الى داود : ياداود ! الى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق اليّ ؟ قال : يارب ! من المشتاقون اليك ؟ قال : ان المشتاقين اليّ الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم اليّ خرقا ينظرون الى، واني لاحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ، ثم ادعو بملائكتي ، فاذا اجتمعوا سجدوني ، فأقول : اني لم اجمعكم لتسجدوني ، ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين اليّ ، واباهي بهم اياكم ،فان قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لاهل الارض ، ياداود ! اني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعمتها بنور وجهي فأتخذتهم لنفسى محدثين ، وجعلت أبدانهم موضع نظري الى الارض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الي ، يزدادون في كل يوم شوقا » • وأوحى الله اليه أيضا : « ياداود ! لو يعلم المدبرون عني كيف

---

(٩) الكهف ، الآية : ١١١ •

انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقا الى ، وتقطعت اوصالهم عن محبتي » . وفي بعض الاخبار القدسية : « ان لي عبادا يحبونني واحبهم ،ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ، ويذكرونني واذكرهم وأول ما اعطيتهم ان اقذف من نوري في قلوبهم ، فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، ولو كانت السماوات والارض وما فيهما في موازينهم لاستعد بها لهم ، وأقبل بوجهي عليهم ، لايعلم أحدما أريد ان أعطيه » . وقال الصادق عليه السلام : « المشتاق لايشتهي طعاما ، ولا يلتذ شرابا ، ولا يستطيب رقادا ، ولا يأنس حميا ، ولا يأوى دارا ، ولا يسكن عمرانا ، ولا يلبس ثيابا ، ولا يقر قرارا ؛ ويعبد الله ليلا ونهارا ، راجيا بأن يصل الى مايشتاق اليه ، ويناجيه بلسان الشوق معبرا عما في سريرته ، كما أخبر الله تعالى عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله : (وعجلت اليك رب لترضى) ، وفسر النبي (ص) عن حاله : (أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ، ولا اشتهى شيئا من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوما شوقا الى ربه) ، فاذا دخلت ميدان الشوق ، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا ، وودع جميع المألوفات ، وأصرفه عن سوى مشوقك ، ولب بين حياتك وموتك : لبيك اللهم لبيك ! اعظم الله أجرك، ومثل المشتاق مثل الغريق ، ليس له همة الا خلاصه ، وقد نسي كل شيء دونه » [١٠] . وما ورد في الادعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من ان يحصى ، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والانس تثبت الشوق أيضا .

وأما (الكراهة والبغض وضدهما اعني الحب) فنقول : قد عرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، والحب الذي هو ضدهما عبارة عن ميل الطبع الى الملائم الملذ .

وتوضيح ذلك : انه لايتصور حب الا بعد معرفة وادراك ، وكذلك لايتصف بالحب جماد ولا يحب الانسان مالا يعرفه ولم يدركه ، فالحب من خاصية الحي الدراك ، بعد حصول الادراك بالفعل .

ثم لما كانت المدركات منقسمة الى ما يوافق طبع المدرك ويلذه ، والى

---

(١٠) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٩٩ ، ص ١٩٣–١٩٤ .

ما يخالفه ويؤلمه ، والى مالا يؤثر فيه بالذاذ وايلام ، فالقسم الاول يكون مرغوبا عند المدرك ، ويسمى رغبة ، وميله اليه حبا ، والقسم الثاني يكون منفورا عنده ، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضا ، والثالث لايوصف بميل وكراهة ، فلا يوصف بكونه محبوبا ، ولا مكروها . ثم اللذة لما كانت عبارة عن ادراك الملائم الملذ ونيله ، فالحب الذي هو الميل والرغبة اليه لايخلو عن لذة محققة او خيالية ، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله ، هذا فانك قد عرفت ان المدرك ان كان مما يستحسن حبه شرعا وعقلا ، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل ، وان كان مما يذم حبه ، كان بالعكس من ذلك .

فصل

تعلق الحب بجميع القوى

والحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك ، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة ، التي هي الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنة ، والقوة العاقلة . فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة ، بمعنى ان المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ،كالصور الجميلة المرئية ، والنغمات الموزونة ، والروائح الطيبة ، والمطاعم النفيسة ، والملبوسات اللينة بالنظر الى الخمس الظاهرة . ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة ، بمعنى ان المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الملائمة الخيالية ،والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة الى المتخيلة والواهمة . ومنه ما يتعلق بالعاقلة ، بمعنى ان المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالمعاني الكلية ، والذوات المجردة . ولا ريب في أن العقلي من الحب واللذات أقوى اللذات وأبلغها ، اذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى ادراكا وأشد غوصا ونفوذا في حقائق الاشياء وبواطنها من الحس ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة ، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الامور الشريفة الإلهية التي جلت عن ادراك الحواس اتم وأبلغ ، ولذا جعل رسول الله (ص) الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا ، حيث قال : « حبب اليَّ من دنياكم ثلاث :

الطيب، والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ، فان الالتذاذ بالصلاة لذة عقلية ، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمية ، وبالنساء نظرية ولمسية .

فان قيل : حقيقة الانسان نفسه الناطقة ، ولها ثلاث قوى ، وهي : العاقلة ، والشهوية ، والغضبية ؛ وقوى أخرى هي : الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، وشأن العاقلة — كما ذكرت — ادراك المعاني الكلية ، والحقائق المجردة ، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات ، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعاني الجزئية ، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها ، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتي الغضب والشهوة ، من الغلبة والاستيلاء والوصول الى المناكح والمطاعم وضدهما ، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة ، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره ؟

قلنا : المحب والملتذ أولا في كل من هذه المدركات هو المدرك ، وثانيا وبالواسطة هو النفس ، اذ كل أدراك يتعلق باحدى القوى ، ليصل بالآخرة الى النفس ، فيحدث فيها مايقتضيه من اللذة والالم ، الا ان ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتي الشهوة والغضب لابد ان يصل اليهما أيضا ، فيحصل لهما اللذة أو الالم ، وبواسطتهما يصل الى النفس ، فالمدرك اولا للغلبة أو العجز هو الوهم ، فيلتذ او يتألم ، ثم يصل منه أثر الادراك والالتذاذ والالم الى القوة الغضبية ، ويصل منها الاثر الى النفس فيلتذ او يتألم ، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة فالالتذاذ والتألم لها أولا وبواسطتها للقوة الشهوية ، وهذا ان كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة ، وان كانت معنى جنسيا شاملا لجميعها فالامر ظاهر . وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى .

فصل

اقسام الحب بحسب مباديه

أعلم ان أسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لأجلها على أقسام :

الاول ــ حب الانسان وجود نفسه وبقاءه وكماله ، وهو أشد أقسام الحب وأقواها ، لان المحبة انما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولا شيء أشد ملاءمة لاحد من نفسه ، ولا هو بشيء أقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفــة ربه [١١] . وكيف لايكون حب الشيء لذاته أقوى المراتب ، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب اوكد وأبلغ ؟ وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرة ؛ كما بين الشيء ونفسه ؛ فالمحب والمحبوب واحد ؛ وسبب الحب غريزة في الطباع بحكم سنة الله :

« ولن تجد لسنة الله تبديلا » (١٢) .

ومعنى حبه لنفسه كونه محبا لدوام وجوده ؛ ومكرها لعدمه وهلاكه فالبقاء ودوام الوجود محبوب ، والعدم ممقوت ، ولذا يبغض كل أحد الموت لا بمجرد ما يخافه بعده ، او لمجرد ما يلزمه من سكراته ، بل لظنه انه يوجب أنعدام كله او بعضه ، ولذا لو أختطف من غير ألم وتعب ، واميت من غير ثواب وعقاب ، كان كارها لذلك ، وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب ؛ لأن فاقد الكمال ناقص ، والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود ، فالوجود محبوب في أصل الذات وبقائه وفي صفات كماله ، والعدم ممقوت فيها جميعا .

والتحقيق : أن المحبوب ليس الا الوجود ، والمبغوض ليس الا العدم ، وجميع الصفات الكمالية راجعة الى الوجود ، وجميع النقائص راجعة الى العدم ، الا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود ، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات ، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة ، فاذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض أجزاء وجوده ، وبذلك يظهر : ان الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم ، كان اجمــع لمراتب الوجودات في القوة والشدة

(١١) كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

(١٢) الاحزاب ، الآية : ٦٢ . الفتح ، الآية : ٢٣ .

والعدة ، وكانت صفاته الكمالية أقوى واكثر ، لكونها من مراتب الوجودات فالوجود الواجبي الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي فيه جميع الوجودات ، ويكون محيطا بالكل ، ثم محبة الاولاد من التحقيق يرجع الى هذا القسم ؛ لأن الرجل انما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله ، وأن لم يصل منه اليه نفع وحظ ؛ لعلمه بانه خليفته في الوجود بعد عدمه ، فكأن بقاءه نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه ، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه ، ولعدم كون بقائه هو بقاؤه بعينه يكون بقاء نفسه أحب اليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقيا على أعتداله ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه ، فانه يرى نفسه كبيرا قويا لأجلهم ، متجملا بسببهم ، اذ العشيرة كالجناح المكمل للانسان [١٣] .

الثاني — حبه لغيره لأجل انه يلتذ منه لذة حيوانية ، كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع ، وحب الانسان المأكولات والملبوسات ، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة ، وهو سريع الحصول وسريع الزوال ، وأضعف المراتب ، لخساسة سببه وسرعة زواله .

الثالث — حبه للغير لأجل نفعه واحسانه ، فان الانسان عبد الاحسان ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قال رسول الله (ص) : « اللهم لاتجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي » . فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان ، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان الى القسم الاول ، لان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود ، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود .

والفرق أن الاعضاء ، والصحة ، والعلم ، والطعام ، والشراب ؛ والجماع : محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال ، وأما الطبيب

---

(١٣) كما قال امير المؤمنين — عليه الصلاة والسلام — في جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبى — عليهما الصلاة والسلام — : « واكرم عشيرتك ، فانهم جناحك الذي به تطير ، واصلك الذي اليه تصير ، ويدك التي بها تصول » نهج البلاغة : ٣ / ٦٣ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

الذي هو سبب الصحة ، والعالم الذي هو سبب العلم ، ومعطي الطعام والشراب ، والمرأة التي هي آلة الوقاع : محبوبة لا لذواتها ، بل من حيث انها وسائل الى ما هو محبوب لذاته ؛ فاذن يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة، والكل يرجع الى محبة الانسان نفسه ، فمن أحب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقا ، بل أحب احسانه ، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته ؛ ولو نقص نقص الحب ؛ ولو زاد زاد . وبالجملة : يتطرق الى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه .

الرابع — أن يحب الشيء لذاته ، لا لحظ يناله منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به ، وذلك كحب الجمال والحسن ، فان كل جمال محبوب عند مدركه ، وذلك لعين الجمال ؛ لأن ادراك الجمال عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظن ان حب الصور الجميلة لايتصور الا لأجل قضاء الشهوة ؛ فان قضاء الشهوة لذة حيوانية ، قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها ، وادراك نفس الجمال لذة أخرى روحانية يكون محبوبا لذاتها ، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الاولى مذموم ، وبالجهة الثانية ممدوح ، والعشق الذي يقع لبعض الناس من أستحسان الصور الجميلة يكون مذموما ان كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية ، ويكون ممدوحا ان كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال ، ولأجل التباس السبب في هذا العشق أختلف العقلاء في مدحه وذمه ، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر ، مع ان الخضرة والماء الجاري محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء ، او ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية ، وقد كان رسول الله (ص) تعجبه الخضرة والماء الجاري والطباع الصافية السليمة قاضية بأستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المناسبة الشكل ، حتى الانسان لتتفرج عنه الغموم بمجرد النظر اليها من دون قصد حظ آخر منها . وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول ، حيث زعموا انه لايتصور ان يحب الانسان غيره لذاته ، مالم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته ، ولم يعلموا ان الحسن والجمال

ليس مقصورا على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة ، اذ يقال :هذا صوت حسن ، وهذا طعم حسن ؛ وهذا ريح طيب ، وليس شيء من هـذه الصفات مدركة بالبصر ، وكذا ليس الحسن والجمال مقصورا على مدركات الحواس ، لوجودهما في غيرها ، فان اكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة ، اذ يقال : هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن.وهذهسيرة حسنة ، ولايدرك شيء من هـذه الصفات بالحواس ، بل يـدرك بالبصيرة الباطنة،وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع ،والموصوف بها ايضا محبوب عند من عرف صفاته .

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوبا : ان الطباع السليمة مجبولة على حب الانبياء والأئمة — عليهم السلام — مع انهم لم يشاهدوهم ، حتى ان الرجـل قد تجاوز حبه لصاحبه مذهبـه حد العشق ، فيحمله ذلك على ان ينفق جميع امواله في نصرة مذهبه والذب عنه ، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في امامه او متبوعه ، مع انه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه ، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة: من الورع ، والتقوى ، والتوكل ، والرضا ، وغزارة العلم ؛ والاحاطة لمدارك الدين ، وانتهاضه لافاضة علم الشرع ، ونشره هـذه الخيرات في العالم ، وجملتها ترجع الى العلم والقدرة ، اذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفـة حقائق الامور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات ، وهما — اعنى العلم والقدرة — غير مدركين بالحواس ، مع انهما محبوبان بالطبع . ومن الشواهد على المطلوب : ان الناس لماوصفوا (حاتما) بالسخاء و(انوشيروان) بالعدالة ، احبتهما القلـوب حبا ضروريا ، من دون نظرهم الى صـورهما المحسوسة ، ومن غير حظ ينالونه منهما ، بل كل منحكى عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه ، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه اليهم ، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة،ونور العقل اغلب عليه منآثار الحواس الحيوانية ،كانحبه للمعاني الباطنة اكثر من حبه للمعانى الظاهرة ،فشتان بينمن يحب نقشا على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، وبين من يحب سيد الرسل (ص)لجمال صورته

الباطنة .

الخامس ــ محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية ، او مجانسة معنويــة ، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال ، ولاطمــع في جاه ومال ، بل بمجرد تناسب الارواح ، كما قال النبي (ص) : الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف » .

السادس ــ محبته لمن حصل بينه وبينه الالف والاجتماع في بعض المواضع لاسيما اذا كان من المواضع الغريبة ، كالسفن والاسفار البعيدة . والسبب فيه : كون افراد الانسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع ، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الانسان سمي انسانا ، فهو مشتق من الانس دون النسيان ــ كما ظن ــ ، والمؤانسة لاتنفك عن المحبة ، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين اهل البلد ، أو بينهم وبين أهل القرى ، او بين اهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة ، من جملة اسرار الامر بالجمعة والجماعة ، وصلاة العيدين ، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد .

السابع ــ محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر ، كميل الصبي الى الصبي لصباه ، والشيخ الى الشيخ لشيخوخته ، والتاجر الى التاجر لتجارتــه ، وهكذا . . فان كل شخص مائل الى من يشاركه في وصفه وصنعته وشغله وحرفته ، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة .

الثامن ــ حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس ، فان المعلول لماكان مثالا من العلة ، ومترشحا عنها ومنبجسا منها ، ومناسبا لها لكونه من سنخها ، فالعلة تحبه لانه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منطوية فيها ، والمعلول يحبها لانها أصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه ، فكان كلا منهما في حبه للآخر يحب نفسه .

ثم السبب ان كان علة حقيقية موجدة ، تكون سببية اقوى في حصول المحبة والاتحاد مما اذا كان علة معدة . فاقوى اقسام المحبة مايكون للواجب ــ سبحانه ــ بالنسبة الى عباده ، وبعد ذلك لا محبة اقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة اليه ــ سبحانه ــ فان محبتهم له من حيث كونه موجدا مخرجا لهم من العدم الصرف الى الوجود ، ومعطيا لهم ما احتاجوا اليه في النشأتين

ومن حيث انه ــ تعالى ــ تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية ، والنفس بذاتها مشتاقة الى الكمال المطلق ، وهذه المحبة فرع المحبة ولاتحصل بدونها ، ولذا قال سيد الرسل (ص) : « مااتخذ الله وليا جاهلا قط » . وحب الاب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم ، من حيث ان الاب سبب ظاهر لوجود الابن ، وان لم يكن سببا حقيقيا ، بل علة معدة له ، فيحبه لانه يراه بمنزلة نفسه ، ويظنه مثالا من ذاته ، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه ، فيظنه انه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله ، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له ويفرح بترجيحه عليه ، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال : انه في الآن أفضل من السابق ، ومما يؤكد محبته له : أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته ، وليست محبة الابن للاب كمحبة الاب للابن ، بل هو أضعف ، لفقد بعض الاسباب الباعثة له ، ولذا امر الاولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس ، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم ، لان المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم وافاضة الصورة الانسانية عليه ، كما ان الاب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية ، فهو والد روحاني له ، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الاب وعلى هذا ينبغي ان تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الاب ، وقد ورد في الحديث : « أن آباءك ثلاثة : من ولدك ، ومن علمك ، ومن زوجك ، وخير الآباء من علمك » . وسئل عن ذي القرنين: أن أباك أحب اليك أم معلمك ؟ قال : « معلمي أحب الي ، لانه سبب لحياتي الباقية ، وأبي سبب لحياتي الفانية » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « من علمني حرفا فقد صيرني عبدا » . وعلى هذا ينبغي أن يكون حب النبي (ص) وأوصياؤه الراشدين ــ عليهم السلام ــ أوكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله ــ سبحانه ــ ، لانه المعلم الحقيقي والمكمل الاول ; ولذا قال (ص) : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وأهله وولده » .

التاسع ــ محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض ، كمحبة

الاخوان والاقارب . وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد ، ولـذا تكون محبة الاخوين أشد من محبة ابنـاء الاعمام مثلا ، ومن عرف الله وانتساب الكل اليه ، وبلغ مقام التوحيد ، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته ، يحب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقي . ثم قد يجتمع بعض اسباب المحبة او أكثرها في شخص واحد ، فيتضاعف الحب ، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التدبير ، محسن الى والده والى الخلق كان حب والده له في غاية الشدة ، لاجتماع اكثر اسباب الحب فيه ، وربما أحب شخصا آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه من دون عكس ، لعـدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه ، وقد تختلف فيهما أسباب الحب ، فيحب كل منهما الآخر من جهة ، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب ، فكلما كان السبب أكثر واقوى كان الحب اشد وأوكد .

فصـل

لا محبوب حقيقة الا الله

اعلم انه لا مستحق للحب غير الله ـ سبحانه ـ ، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا هو ، ولو كان غيره ـ تعالى ـ قابلا للحب وموضعا له فانما هو من حيث نسبته اليه ـ تعالى ـ ، فمن احب غيره ـ تعالى ـ لامن حيث نسبته اليه ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله ، وكيف يكون غيره ـ سبحانه ـ من حيث هو ، لامن جهة انتسابه اليه ، مستحقاً للحب وهو في نفسه مع قطـع النظر عنه ـ تعالى ـ وعن انتسابه اليه ليس الا العدم ، والعدم كيف يصلح للحب ، فينبغي أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة ، أي من حيث انها منه ـ تعالى ـ ، وآثاره ، ومعلولاته ، وأضواؤه واظلاله ، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة اليـه ـ تعالى ـ ، كالحب ، والانس ؛ والمعرفة ؛ والاطاعة لخصوص النسبة ايضا .

ومما يوضح المطلوب : ان جميع اسباب الحب مجتمعة في حـق الله ـ تعالى ـ ، ولا توجد في غيره حقيقة ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل

ومجاز محض لا حقيقة له .

أما السبب الاول ـ اعني محبة النفس : فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له ، ولاوجود له من ذاته ، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف ، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله والى الله ، فهو الموجود المخترع له ، وهو المبقي له ، وهو المكمل لوجوده بايجاد صفات الكمال فيه ، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالايجاد ، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالابقاء ، وناقص بعد بقائه لولا فضله عليه بالتكميل ،فليس في الوجود شيء له قوام بنفسه الا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره . وحينئذ ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع الى محبة ربه ، وان لم يشعر المحب به ، وكيف يتصور ان يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الاشجار التي بها قوام الظل،ومن أحب النور أحب لامحالة الشمس التي بها قوام النور ، وكل ما في الوجود بالاضافة الى قدرة الله ـ تعالى ـ كالظل بالاضافة الى الشجرة والنور بالاضافة الىالشمس ، اذ الكل من آثار قدرته ، ووجوده تابع لوجوده ، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص ، ووجود النور تابع لوجود الشمس ، بل هذا المثال انما هو للتفهيم ، وبالاضافة الى أوهام العوام ، حيث يتوهمون ان الظل والنور تابعان للشاخص والشمس وفايضان عنهما ، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما، بل هما فايضان من الله ـ تعالى ـ موجودان به بعد حصول الشرائط ، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتهما وسائر صفاتهما منه ـ تعالى ـ .

وأما السبب الثاني ، والثالث ـ اعني الالتذاذ والاحسان ، سواءكان متعديا الى المحب أم لا : فمعلوم أنه لالذة ولا احسان الا من الله ـ تعالى ـ ولا محسن سوى الله ، فانه خالق الاحسان وذويه ، وفاعل اسبابه ودواعيه وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله ، وقطرة من بحار كماله وافضاله .

وأما الرابع ـ اعني الحسن والجمال والكمال :فلا ريب في أنه تعالى

هو الجميل بذاته والكامل بذاته ، وهو الجمال الخالص ، والكمال المطلق، وحقيقتهما منحصرة به — تعالى — ، وما يوجد في غيره — تعالى — من الجمال والكمال لا يخلو عن شوائب الخلل والنقصان ، اذ النقص شامل لجميع الممكنات ، وانما تتفاوت في درجات النقص . وقد عرفت أن الجمال المعنوي اقوى من الجمال الصوري ، ومن كان أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي أكثر واقوى من حبه للجمال الصوري ، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود ، وكمال العلم والقدرة، والاستيلاء على الكل ، واستناد الجميع اليه ، منحصر بالله — تعالى — ، فاذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوبا ، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوبا ، بل المحبوب حقيقة ليس الا هو .

باده خاك آلودتان مجنون كند　　صاف اگر باشدندانم چون كند[١٤]

على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصوري ، أو بالجمال الباطن المعنوي رشحة من رشحات جماله ، وكل كامل فكماله فرع كماله ، فكل من أحب جميلا أحب خالقه ، وما احب احدا غير الله — تعالى — ، لكنه احتجب عنه تحت وجوه الاحباب واستار الاسباب ، هذا مع ان عمدة جمال المخلوقين انما هو علمهم بالله وبصفاته وافعاله ، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب الى الله — تعالى — ، وباتصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة الى الله ، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة ، ومعلوم ان هذه الامور اضافات الى الله — سبحانه — ، فحبها يرجع الى حبه — تعالى — .

وأما الخامس — أعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية : فلا ريب في أن للنفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها ؛ اذ هي شعلة من شعلات جلاله ، وبارقة من بوارق جماله ؛ ولذا قال الله سبحانه: **« قل الروح من أمر ربي »** (١٥) . وقال : **« اني جاعل في الارض**

---

(١٤) ان خمركم الملوث بالغبار يجنني !!
فلست أدري ما هو مفعوله ان كان صافيا ! ! ؟

(١٥) بني اسرائيل ، الآية : ٨٥ .

خليفة » (١٦) .

اذ لم يستحق آدم خلافة الله الا بتلك المناسبة ؛ وبهذه المناسبة ينقطع العبد الى ربه ، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية ، وهـذه المناسبة لا تظهر ظهورا تاما الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض ، كما قال الله — تعالى — : « لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به» . وهذا موضع تزل فيه الاقدام ، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر ،وآخرون في الحلول والاتحاد ، وأهل الحق الـذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد ، وفساد طرفي التفريط والافراط ، واتضحت لهم حقيقة السر ، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها : هم الاقلون .ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفات الربوبية والاخلاق الالهية : كالعلم ، والبر ، والاحسان ، واللطف ، وافاضة الخير والرحمة على الخلق ، وارشادهم الى الحق ... الى غير ذلك من الصفات الالهية ، ولذا قيل : تخلقوا باخلاق الله . ولا ريب في أن كل ذلك يقرب العبـد الى الله ، ويصيره مناسبا له . وأما العلية والمعلولية فالامر فيه ظاهر ، وباقي الاسباب أسباب ضعيفة نادرة ، اعتبارها في حق الله نقص .

وقد ظهر مما ذكر : أن اسباب الحب بجملتها متظاهرة في حـق الله — تعالى — تحقيقا لا مجازا ، اوفي أعلى الدرجات لا أدناها ، ثم كل من يحب أحدا من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته اياه في السبب.والشركة نقصان في الحب ، لا يتصف احد بوصف محبوب الا ويوجد شريك له فيه ، والله — سبحانه — هو الذي لا يشاركه غيره في اوصاف الكمال والجمال ، لا وجودا ولا امكانا ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة ، فلا يتطرق اليه نقصان ، كما لا تتطرق الشركة والنقصان الى أوصاف كماله ، فهو المستحق لاصل المحبة وكمالها ، ولا متعلق للمحبة الا هو ، الا انه لا يعرف ذلك الا العارفون من أوليائه واحبائه ، كما قال

---

(١٦) البقرة ، الآية : ٣٠ .

سيد الشهداء (ع) في دعاء عرفة بقوله : « وأنت الذي أزلت الاغيار عن قلوب أحبائك ، حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا الى غيرك » .

تكميـــل

الشهود التام هو نهاية درجات العشق

قد صرح اساطين الحكمة : (أن الاشياء المختلفة لايمكن ان يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمحبة ، واما الاشياء المتماثلة المتشاكلة فيشتاق بعضها الى بعض ويسر بعضها ببعض ، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد) .

والتوضيح : ان الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها الى بعض فيحصل بينها التآلف التام ، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف ، اذ التغاير من لوازم المادية . وأما الماديات فلا يمكن ان يحصل بينها هذا التآلف والتوحد ، ولو حصل بينهما تآلف وشوق ، فانما هو بتلاقي السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات وليس يمكن ان يبلغ مثل هذه الملاقاة الى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال . فالجوهر البسيط المودع في الانسان — اعني النفس الناطقة — اذا صفي عن الكدورات الطبيعية ، وتطهر عن الاخباث الجسمانية ، وتخلى عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية ، انجذب بحكم المناسبة الى عالم القدس ، وحدث فيه شوق تام الى أشباهه من الجواهر المجردة ، ويرتفع منها الى ماهو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات ، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي ، ومطالعة جمال الخير المحض ، وينمحي في انوار تجلياته القاهرة ، ويصل الى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات ، فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على خاطر ، فيحصل له من البهجة واللذة ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة ، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيرا في حالتي التعلق بالبدن والتجرد عنه ، اذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق ، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة:

امروز در آن كوش كه بينا باشي

حيران جمـال آن دلارا باشـي
شرمت بادا چو كودكان در شب عيد
تا چند در انتظار فردا باشي ؟ (١٧)

نعم ، الشهود التام ، والابتهاج الصافي عن الشوب ، يتوقف عـلى تجردها الكلي عن البدن ؛ فانها وان لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة ، الا أن ملاحظتها لاتخلو عن شوائب الكدرة الناشئة من الطبيعة ؛ فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلي ؛ ولذا تشتاق ابدا الى رفع هذا الحجاب ؛ ويقول :

حجاب چهرهٔ جـان ميشود غبـار تنم
خوشا دمي كه از اين چهره پرده بر فكنم
چنين‌قفس‌سراي چومن‌خوش الحاني‌است
روم بروضهٔ رضوان كه مرغ آنچنم (١٨)

وهذه المحبة نهاية درجات العشق ، وغاية الكمـال المتصورة لنوع الانسان ، وذروة مقامات الواصلين ، وغاية مراتب الكاملين ، فما بعدهامقام الا وهو ثمرة من ثمراتها ؛ كالانس والرضا والتوحيد ، ولا قبلها مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالصبر والزهد وسائر المقامات . وهذا العشق هو الذي أفرط العرفاء وأرباب الذوق في مدحه ، وبالغوا في الثناء عليه نثرا ونظما ، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق ، ولا كمال الا هو، ولا سعادة الا به ، كما قيل :

عشق است هرچه هست بگفتيم وگفته اند
عشقت بوصل دوست رساند بضرب دست (١٩)

---

(١٧) أسع سعيك اليوم لتكون على بصيرة .
ولتكون متلهفا لجمال ذلك الحبيب الفتان !
أما تستحي انك على غرار الاطفال في ليلة العيد ؟ ! !
الى متى تنتظر اليوم الغد ؟ ! !
(١٨) أن غبار الجسد يكون حجابا لروحي ونقابا !
فما أحلى اللحظة التي أطرح فيها عن وجهي هذا الستار ! !
ان هكذا قفصا لايليق لذى تغريد بهيج مثلي ! !
سأذهب الى (روضة الرضوان) ... فاني من طيور ذلك المرج والبستان !!
(١٩) كل ما يكون هو العشق — كما قالوا وقلنا — ...

وقيل :

جز محبت هرچه بردم سود در محشر نداشت

دين ودانش عرض كردم كس بچيزي برنداشت[٢٠]

فصـــل

سريان الحب فى الموجودات

اكثر أقسام المحبة فطرية طبيعية ، كمحبة المتناسبين والمتجانسين ، والعلة والمعلول ، ومحبة الجمال وغير ذلك ، والارادي الكسبي منها قليل ، كمحبة المتعلم للمعلم ، وربما أمكن أرجاعه أيضا الى الطبيعي . واذا كان الحب طبيعيا ، فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون أيضا طبيعيا ، فيكون لذلك أفضل من العدالة التي تقتضي الاتحاد الصناعي . ثم مع وجود المحبة لاحاجة الى العدالة ، اذ هي فرع الكثرة المحوجة الى الاتحاد القشرى ، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لايقع الاحتياج اليه ، وقد صرح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وأنتظامها بالمحبة ، والمحبة الفطرية ثابتة بينها ، وليس شيء من الموجودات خاليا عنها ، كما أنه ليس شيء منها خاليا عن الوجود والوحدة ، وقد صرحوا بأنه كل الوحدة ، فهو سار في جميع الكائنات : من الافلاك والعناصر والمركبات ، اذ الحب والشوق الى التشبه بالفاعل رقص الافلاك ، وادار رحاها ، (بسم الله مجراها ومرساها) ، والحب هو سبب ميل العناصر الى أجسادها الطبيعية ، وميل المركبات بعضها الى بعض :

سر حب ازلي بر همه اشيا ساريست   ورنه برگل نزدي بلبل بيدل فرياد [٢١]

ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال ، وضدها موجبا للفساد والاختلال ، ولكل منهما مراتب ودرجات ، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان ،والمتأخرون خصصوا الحب بذوي العقول ، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر الى مراكزها ،

فعشقك يوصلك الى الحبيب بالجهد والشطارة ! !

(٢٠) سوى الحب لم يفد فى الحشر مما صحبته ! !

عرضت الدين والعلم . فلم يعرهما أحد اهتماما ! ! !

(٢١) ان (سر الحب الازلي) لسار فى جميع الموجودات !

والا لم تغرد البلابل على الازهار والاوراد ! !

وميل المركبات بعضها الى بعض ، كميل الحديد الى المغناطيس ، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها ، كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل ، بل يسمونها بالميل والهرب ، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العجم من الحيوانات ، لايطلقون عليها اسم الحب والبغض ، بل يسمونها بالالف والنفرة .

فصل

رد المنكرين لحب الله

قد ظهر مما ذكر : ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله تعالى ، وأنه المستحق للحب دون غيره ، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر امكان حصول محبة العبد لله — تعالى — وقال: (لامعنى لها الا المواظبة على طاعة الله ، وأما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثل).

ولما أنكروا المحبة ، انكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ويدل على فساد هذا القول مضافا الى ما ذكر اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضا ، وما ورد في الآيات والاخبار والآثار من الامر به والمدح عليه ، واتصاف الانبياء والاولياء به ، وحكايات المحبين، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حدا لايقبل الكذب والتأويل ، فمن شواهد القرآن قوله تعالى :

« يحبهم ويحبونه » (٢٢) . وقوله : « والذين آمنوا أشد حبا لله »(٢٣). وقوله — تعالى — : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم ... — الى قوله — : « أحب اليكم من الله ورسوله ... » الى آخر الآية (٢٤) .

وأما الاخبار الواردة والآثار ، فقد قال رسول الله (ص) : « لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » . وقال (ص): الحب من شروط الايمان » . وقال (ص) : « أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة ، وأحبوني لحب الله » . وقد نظر (ص) الى بعض أصحابه

---

(٢٢) المائدة ، الآية : ٥٧ .
(٢٣) البقرة ، الآية : ١٦٥ .
(٢٤) التوبة ، الآية : ٢٥ .

مقبلا وعليه اهاب كبش ، فقال (ص) : « انظروا الى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين ابويه يغذوانه بأطيب الطعـام والشراب ، فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون » . وقال (ص) في دعائه : « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني الى حبك ، واجعل حبك احب اليّ من الماء البارد » . وفي الخبر المشهور : « ان ابراهيم(ع) قال لملك الموت ، اذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ؟ فأوحى الله تعالى اليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : ياملك الموت ! الآن فاقبض » . وأوحى الله الى موسى (ع) : « يا ابن عمران ! كذب من زعم أنه يحبني فاذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ، ها أنا ذا يابن عمران مطلع على أحبائي ، اذا جنهم الليـل حولت ابصارهم الى من قلوبهم ، ومثلت عقوبتي بين أعينهم ، يخاطبوني عن المشاهدة ، ويكلموني عن الحضور ، يابن عمران ! هب لي من قلبـك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع في ظلم الليل ، فانك تجدني قريبا » . وروي : « أن عيسى (ع) مر بثلاثـة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم الى ثلاثة أخرى ، فاذا هم أشد نحولا وتغيرا ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الشوق الى الجنة ، فقال : حق على الله ان يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة أخرى ، فاذا هم أشد نحولا وتغيرا ، كأن على وجوههم المرايا من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : حب الله عز وجل ، فقال : انتم المقربون » . وفي بعض الروايات : « انه (ع) قال للطائفتين الاولين : مخلوقا خفتم ، ومخلوقا رجوتم . وقال للطائفة الثالثة : أنتم اولياء الله حقا ، معكم أمرت ان أقيم » . وقال رسول الله (ص) : « ان شعيبا (ع) بكى من حب الله عز وجل حتى عمى ، فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمى ، فرد الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة أوحى الله اليه : ياشعيب ! الى متى يكون هذا أبدا منك ، ان يكن هذا خوفا من النار فقد أجرتك ، وان يكن شوقا الى الجنة فقد

أبحتك . فقال : إلهي وسيدي ! أنت تعلم اني ما بكيت خوفا من نارك ، ولا شوقا الى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي ؛ فلست أصبر او أراك . فأوحى الله : أما اذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران » . وروى : « انه جاء أعرابي الى النبي (ص) فقال : يارسول الله ! متى الساعة ؟ فقال (ص) : « ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثيرصلاة ولا صيام ، الا أني أحب اللهورسوله ، فقال له النبي : المرء مع منأحب » . وفي أخبار داود : « قل لعبادي المتوجهين الىمحبتي : ما ضركم اذا أحتجبتم عن خلقي اذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الي بعيون قلوبكم ، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا اذ بسطت ديني لكم ، وما ضركم مسخطة الخلق اذ التمستم رضاي » . وفيها أيضا : « يا داود ! انك تزعم انك تحبني ، فان كنت تحبني فأخرج حب الدنيا عن قلبك ، فان حبي وحبها لايجتمعان في قلب » . وقال أمير المؤمنين (ع) في دعاءكميل: « فهبنى يا الهي وسيدى ومولاى وربى صبرت على عذابك ،فكيف اصبر على فراقك » . وقال (ع) : « ان لله ــ تعالى ــ شرابا لاوليائه ، اذا شربوا وسكروا ، واذا سكروا طربوا ، واذا طربوا طابوا واذا طابوا ذابوا ، واذا ذابوا خلصوا ، واذا خلصوا طلبوا ،واذا طلبوا وجدوا ،واذا وجدوا وصلوا واذا وصلوا اتصلوا ، واذا اتصلوا لافرق بينهم وبين حبيبهم » [٢٥] .وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة : « انت الذي ازلت الاغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك » . وقال (ع)« يامن اذاق احباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين » . وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة الى سيد الساجدين (ع) : « وعزتك ! لقد احببتك محبة استقرت في قلبى حلاوتها ، وانست نفسى ببشارتها ، ومحال في عدل اقتضيتك ان تسد اسباب رحمتك عن معتقدى محبتك » . وفي مناجاته الاخرى: «آلهى فاجعلنا من الذين توشحت اشجار الشوق اليك فيحدائق صدورهم،واخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم » ... ثم قال : « والحقنا بعبادك الذين هم

(٢٥) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية فى كتب أصحابنا الامامية ــ رضوان الله عليهم ــ .

بالبدار اليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون ، واياك في الليل والنهار يعبدون ، وهم من هيبتك مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب ، وبلغتهم الرغائب ، وانجحت لهم المطالب ، وقضيت لهم من وصلك المآرب ، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ، ورويتهم صافي شرابك ، فبك الى لذيذ مناجاتك وصلوا ومنك على اقصى مقاصدهم حصلوا » ٠٠٠ ثم قال : « فقد انقطعت اليك همتي ، وانصرفت نحوك رغبتي ، فأنت لاغيرك مرادي ، ولك لاسواك سهري وسهادي ، ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك منى نفسي ، واليك شوقي وفي محبتك ولهي ، والى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي ، وقربك غاية مسألتي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي ، وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي ، وكشف كربتي » ٠ ثم قال : « ولاتقطعني عنك ، ولاتباعدني منك ، يانعيمي وجنتي ! ويادنياي وآخرتي » وقال (ع) ايضا : الهي ! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ، ومن ذا الذي انس بقربك فابتغى عنك حولا ، الهي ! فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك ، واخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته الى لقائك ، ورضيته بقضائك ، ومنحته بالنظر الى وجهك ، وحبوته برضاك ، واعذته من هجرك ثم قال : « وهيمت قلبه لارادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ، واخليت وجهه لك وفرغت فؤاده لحبك » ٠٠٠ ثم قال : « آللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين ، ودهرهم الزفرة والأنين ، وجباههم ساجدة لعظمتك ، وعيونهم ساهرة في خدمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك ، وقلوبهم معلقة بمحبتك وافئدتهم منخلعة من مهابتك ، يامن انوار قدسه لابصار محبيه رائقة وسبحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة ! يامنى قلوب المشتاقين ، وياغاية آمال تجعلك احب الي ممن سواك » ٠ وقال (ع) ايضا : الهي ! ماالذ خواطر النظر الى وجهك ، وقراري لايقر دون دنوي منك ، ولهفتي لايردها الاروحك المحبين ! اسالك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل الى قربك ، وان الالهام بذكرك على القلوب ، وما احلى المسير اليك في مسالك الغيوب ، وما اطيب طعم حبك ، وما أعذب شرب قربك » ٠ وقال (ع) أيضا : « وغلتي لايبردها الا وصلك ، ولوعتي لايطفيها الا لقاؤك ، وشوقي اليك لايبله الا

وسقمی لایشفیه الا طبك ، وغمی لایزیله الا قربك ، وجرحی لایبرؤه الاصفحك ، ورین قلبی لایجلوه الا عفوك ، ووسواس صدری لایزیحه الا امرك [٢٦] . وقال الصادق (ع) : «حب الله اذا اضاء علی سر عبد اخلاه عن کل شاغل وکل ذکر سوی الله ، والمحب اخلص الناس سرا لله ،واصدقهم قولا ، واوفاهم عهدا ، وازکاهم عملا ، واصفاهم ذکرا ، واعبدهم نفسا ؛ تتباهی الملائکة عند مناجاته ، وتفتخر برؤیته ،وبه یعمر الله بلاده ،وبکرامته یکرم الله عباده ، ویعطیهم اذا سألوه بحقه ، ویدفع عنهم البلایا برحمته ، ولو علم الخلق مامحله عند الله ومنزلته لدیه ماتقربوا الی اللهالابتراب قدمیه» وقال امیرالمؤمنین (ع) : « حب الله نار لایمر علی شیء الا احترق ، ونورالله لایطلع علی شیء الا اضاء وسماء الله ماظهر من تحته شیء الا غطاه ، وریح الله ماتهب في شیء الا حرکته ، وماء الله یحیی به کل شیء ، وارض اللهینبت منها کل شيء ، فان احب الله اعطاه کل شيء من الملك والملك» وقال النبي صلی الله علیه وآله وسلم :« اذا احبالله عبدا منامتي قذففيقلوب اصفیائه وارواح ملائکته وسکان عرشه محبته لیحبوه ، فذلك المحب حقا ، طوبیله ثم طوبی له ! وله عند اللهشفاعة یوم القیامه » [٢٧] الی هنا کلام الصادق علیه السلام ـ وماورد في الحب من الاخبار والادعیة المعصومیة اکثر منان یحصی ، وحکایات العشاق والمحبین لم تبلغ منالکثرة والتواتر حدا یمکن انکاره ، وقد روی : « ان داود (ع) سأل ربه ان یریه بعض اهل محبته ، فقال له : ائت جبل لبنان ، فان فیه اربعة عشر نفسا ، فیهم شبان وکهول ومشایخ ،واذا اتیتهم فاقرأهم منی السلام ،وقل لهم :یقول ربکم الاتسألونی حاجة ، فانکم احبائی واصفیائی واولیائی ، افرح لفرحکم واسارع الی محبتکم . فاتاهم داود ، فوجدهم عند عین من العیون یتفکرون في عظمة الله وملکوته ، فلما نظروا الی داود ، نهضوا لیتفرقوا عنه ، فقال لهمداود أنا رسول الله الیکم ، جئتکم لأبلغکم رسالة ربکم . فأقبلوا نحوه ، والقوا

---

(٢٦) صححنا فقرات المناجاة الانجیلیة والمناجاة الاخری علی (البحار) : باب أدعیة المناجاة : مج ١٩ / ١٠٧ ـ ١١٤ ، ط امین الضرب .

(٢٧) صححنا الاحادیث الثلاثة علی «مصباح الشریعة » ـ الباب السابع والتسعون ، ص ١٩٣ ـ .

اسماعهم نحو قوله ، والقوا ابصارهم الى الارض ، فقال داود :ربكم يقرؤكم السلام ، ويقول لكم : الا تسألونى حاجة ، الا تنادونى فاسمع صوتكم وكلامكم ؟ فانكم احبائي واصفيائي وأوليائي ، أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم ، وانظر اليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة . ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم وسبح الله كل واحد منهم ومجده ، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق » .

فصل

معرفة الله أقوى سائر اللذات

قد عرفت ان الحب هو الميل الى الشيء الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله ، واللذة هى نفس ادراك الملائم الملذ ونيله ، وهذا الادراك ان كان متعلقا بالقوة العاقلة — أي ان كان المدرك هو القوة العاقلة — عبر عنه بالعلم والمعرفة ، وقد عرفت انه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية التى هى الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس .

ثم هذا الادراك — اعنى العلم والمعرفة — يختلف ايضا في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك ، اى المعلوم ، فكلما كان المدرك اجل واشرف كان الادراك — اى المعرفة — اجل واعلى . ولاريب في ان الواجب — سبحانه — اشرف الموجودات واجلها، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها ، ويثبت من ذلك : ان اجل اللذات واعلاها هو معرفة الله — تعالى — والنظر الى وجهه الكريم ، ولايتصور ان يؤثر عليها لذة اخرى الا من حرم هذه اللذة . وبيان ذلك بوجه اوضح : ان اللذات تابعة للادراكات ، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذى خلقت له ، فغريزة الغضب لما خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام ، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل الغذاء وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والابصار والاستشمام ، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنة خلقت لتعلم بها حقائق الاشياء كلها ، فلذتها في العلم والمعرفة ، والعلم لكونه منتهى الكمال واخص صفات الربوبية ، يكون اقوى اللذات والابتهاجات ،

ولذلك يرتاح الطبع اذا اثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عندسماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه ، فيعجب بنفسه ، ويلتذ به .

والتحقيق : ان الادراك والنيل الذى هو الكمال ليس الاالعلم، وسائر الادراكات ـ اعني نيل الغلبة والغذاء والاستماع والابصار والاستشمام ـ لاتعد كمالات ، ثم ليست لذة كل حلو واحدة ، فان لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير امور الخلق، ولالذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملكوت السماوات والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ؛ وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فان كان في المعلومات ماهو الاشرف الاجل والاعظم والاكمل فالعلم به الذ العلوم واشرفها واكملها واطيبها ، وليت شعرى هل في الوجود شيء أعلى وأجمل واشرف وأكمل من خالق الاشياء كلها وقيومها ، ومكملها ومربيها ، ومبدئها ومعيدها ، ومديرها ومرتبها ، وهل يتصور ان يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء أعظم ممن ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام ، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية ، فان كنت لاتشك في ذلك ، فينبغي ألا تشك في أن لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة المعرفة ، فان اللذات مختلفة بالنوع أولا ؛ كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع ، ولذة المعرفة ولذة الرئاسة ، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم [٢٨] من الجماع ، ولذة الفاتر الشهوة منه ، وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل ولذة النظر الى الوجه الاجمل ، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات ، وانما يعرف اقوى اللذتين من أضعفهما ، بأن يؤثر عليه ، فان المخير بين النظر الى صورة جميلة وبين استنشاق روايح طيبة ، اذا أختار الاول كان عنده ألذ من الثاني ، والمخير بين الاكل واللعب بالشطرنج ، اذا أختار الثاني كانت لذة الغلبة

(٢٨) الغلمة ـ وزان غرفة ـ : شدة الشهوة وغلم غلما : من باب تعب، اذا اشتد شبقه . المغتلم : المنقاد للشهوة .

في الشطرنج أقوى عنده من لذة الاكل ، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات .

وحينئذ نقول : لاريب في أن المعاني واللذات الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة أكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء ، فان كان عالي الهمة كامل العقل ، أختار الرئاسة وترك الاكل ، وصبر على الجوع أياما كثيرة فضلا عن مدة قليلة ، نعم ، ان كان خسيس الهمة ميت القلب ، ناقص العقل والبصيرة ، كالصبي والمعتوه ربما أختار لذة الاكل ، وفعل مثله ليس حجة . ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة أغلب وارجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والسفاهة ، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية ألذعنده من لذة الرئاسة ، بشرط ان يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما ، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة باللهلم يكن أهلاللترجيح ومحلا للكلام ، لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبتها وذاقها ، ولا يمكن أثبات ذلـك عند من ليس له قلب ، كما لاتثبت لذة الابصار عند الاعمى ، ولذة الاستماع عند الاصم ، ولذة الوقاع عند العنين ، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه ، وليتشعري من لايفهم الا حب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر الى وجه الله تعالى ، وليس له شبه وشكل وصورة ، فحقيقة الحال كما قيل : (من ذاق عرف)، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعا ، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت ، ويختار لذة المعرفة بالله ، ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين ، فانها خالية عن الانقطاع والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لاتضيق بكثرتهم دائما وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والارض ، ومن حيث الواقع ونفس الامر فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية الاطراف والاقطار ، يرتع في رياضها ، ويكرع [٢٩] في حياضها ، ويقطع من أثمارها ، وهو آمن من انقطاعها ، اذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل هي أبدية سرمدية لايقطعها الموت ، اذ الموت لايهدم

(٢٩) كرع — من باب نفع — : هو الشرب بفيه من موضعه .

النفس الناطقة التي هي محل المعرفة ، وانما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها ، فاذن جميع أقطار ملكوت السماوات والارض ، بل أقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية ، ميدان للعارفين ؛ يتبوؤن منها حيث يشاؤن، من غير حاجة الى حركة أجسامهم ، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، الا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في أتساع الانظار وسعة المعارف :

« **ولكل درجات مما عملوا** » (٣٠) .

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته ؛ وصار قلبه مستغرقا بنعيمها ؛ ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ؛ فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها ؛ وكان في الدنيا والآخرة مشغولا بربه ؛ فلو القى في النار لم يحس به لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية ، ولعل سيد الرسل (ص) عبر عن هذه اللذة ــ أي لذة مطالعة جمال الربوبية ــ حيث قال حاكيا عن الله سبحانه : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وهذه اللذة هي المرادة من قوله تعالى :

« **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** » (٣١) .

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول الى كنهها ، مالم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصري ، ولذلك قال بعضهم : اني أقول : « يارب ياالله ! فأجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه » . ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة ، عرف ان اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة ، كما قيل :

كانت لقلبي أهواء مفرقــــة   فأستجمعت مذ رأتك العين اهوائي

---
(٣٠) الانعام ، الآية : ١٣٢ . الاحقاف ، الآية : ١٩ .
(٣١) السجدة ، الآية : ١٧ .

فصار يحسدني من كنت أحسده   وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم   شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

فصل

تحقق رؤية الله فى الآخرة ولذة لقائه

أعلم ان معرفة الله اذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما كما أشير اليه ، الا أنه اذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية ، الى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب ، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء انما هو بزيادة الانكشاف والجلاء .

مثال ذلك : ان من رأى انسانا ، ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر اليها ؛ ولكن اذا فتح العين وأبصر ، ادرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها ، ولا ترجع التفرقة الى أختلاف بيّن بين الصورتين لاتحادهما ، بل الافتراق انما هو بمزيد الكشف والوضوح ، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافا ، فاذاً الخيال أول الادراك ، والرؤية استكمال لادراك الخيال ، وهي غاية الكشف ، لا لانها في العين ، بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلى في الصدر أو الجهة او أي عضو فرض ، استحق أن يسمى رؤية . واذا فهمت هذا في المتخيلات — أي المدركات التى تدخل في الخيال من الصور والاجسام — فقس عليه الحال في المعلومات — أي ما يدرك بالعقل — ، ولا يدخل في الخيال كذات الباري وكل ماليس بجسم ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، فان لمعرفتها وادراكها أيضا درجتين : احداهما : أولى ، والثانية : استكمال لها ؛ وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي ؛ فتسمى الثانية بالاضافة الى الاولى لقاء ومشاهدة ورؤية ، وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات ، فكذلك سنته ان النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته ، لم يحصل لها تمام

الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال ، فاذا ارتفع بالموت حجاب البدن ، وخلصت النفس ، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا ، بل كانت ملوثة بها ، الا ان النفوس مختلفة في ذلك : فمنها : ما تراكم عليه الخبث والصدى ، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الاصلاح والتصقيل ؛ وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ؛ نعوذ بالله من ذلك . ومنها : مالم ينته الى حد الرين والطبع ؛ ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب ، اذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع ، وبين التزكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات ، وهذه النفوس المتلوثة على أختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج الى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلى الحق فيها ، وتطهيرها انما هو بنوع عقوبة من العقوبات الاخروية ، وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات ، أولها سكرة الموت ، وآخرها الدخول في النار ، وما بينهما عقوبات البرزخ وأهوال القيامة بأنواعها ، فكل نفس لابد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها : فمنها : ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزع ، ومنها : ما يتطهر بها ، وينقص عقوبات البرزخ ؛ ومنها : مالا يتطهر الا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة ؛ ومنها مالا يحصل تطهيره الا بالعرض على النار عرضا يقمع منها الخبث الذي تدنست به ، فربما كان ذلك لحظة حقيقة ، وربما كان سبعة آلاف سنة — كما وردت به الاخبار — وربما كان اقل أو اكثر ، ولا يعلم تفصيل ذلك الا الله سبحانه ، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلدين في النار .

ثم النفوس القابلة للتطهير اذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، استعدت حينئذ لصفائها ونقائها عن الكدورات لأن تتجلى فيها جلية الحق ، فتتجلى فيها تجليا يكون انكشاف تجلية بالاضافة الى ما علمته وعرفته كأنكشاف تجلى المرئيات بالاضافة الى المتخيلات ، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية ، لانه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر ، بل هو فوقه بمراتب شتى ؛ اذ الرائي في الاول العقل ،

وفي الثاني البصر ، وشتان ما بينهما ، فان الاختلاف في مراتب الادراك والرؤية بحسب أختلاف نورية المدرك ؛ وأي نسبة لنورية البصر الى نورية العقل وأشراقه ، وما للعقل من النفوذ في حقائق الاشياء وبواطنها أنى يكون للبصر •

وقد ظهر مما ذكر : أنه لايفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة الا العارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعا ، ومن لانواة له كيف يحصل له النخل ، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع ، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى ، اذ لا يستأنف لاحد في الآخرة مالم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد المرء الا ما زرع ، ولا يحشر الا على ما مات عليه ، ولا يموت الا على ما عاش عليه •

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، يكون التجلي أيضا على درجات متفاوتة ، فأختلاف التجلى بالاضافة الى أختلاف المعارف كأختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذور ، اذ يختلف لامحالة : بكثرتها ، وقلتها ؛ وجودتها ؛ ورداءتها ؛ وضعفها • ثم كلما كان التجلى والمشاهدة أقوى ، كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به أشد وأقوى ، وكلما كان الحب والانس أزيد ، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى ، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لاتؤثر عليها لذة اخرى من نعيم الجنة ، بل ربما بلغت حدا تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته ، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله ، وحب الله بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ (الايمان) •

فان قيل : اللقاء والمشاهدة ان كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة ، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة ، وان كانت اضعاف لذة المعرفة ، اذ هي في الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها الى اي حد فرض لاينتهى في القوة ، الا ان يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها •

قلنا : هذا الاستحقار والتقليل للذة المعرفة باعثه عدم المعرفةاوضعفها

فان من خلا عن المعرفة ، او كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا ، لايدرك لذتها ، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته، قويت بهجته واشتدت لذته ؛ بحيث لاتوازنها لذة ، فان للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عز وجل ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها . ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها اصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لانسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الطيبة الى ذوقها واكلها ، ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع .

ومما يوضح ذلك ، ان لذة النظر الى وجه المعشوق تتفاوت بأمور :

احدها ــ كمال جمال المعشوق ونقصانه .

وثانيها ــ كمال قوة الحب والشهوة وضعفه .

وثالثها ــ كمال الادراك وضعفه ، فان الالتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة، أو من بعد ، او من وراء ستر رقيق ، ليس كالالتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء .

ورابعها ــ عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها ، فان التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق ليس كإلتذاذ الخائف المذعور او المريض المتألم ، او المشغول قلبه بمهم من المهمات ، فلو كان العاشق ضعيف الحب ، ناظرا الى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق ، مشغول القلب بمهمات ، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلذعه ، لم يكن خاليا عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه ، الا أنه اذا فرض ارتفاع الستر وأشراق الضوء ، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية ، وفراغ قلبه من المهمات ؛ وحدوث عشق مفرط ، وشهوة قوية ، بحيث بلغت أقصى الغايات ، تضاعفت لذته ؛ بحيث لم تكن للذته الاولى نسبة اليها بوجه ، فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهماته ، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها : من الجوع ، والعطش والشبق ؛ والغضب ؛ والحزن ؛ والهم ؛ ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق الى الملأ الأعلى ، لإلتفاتها الى أسفل السافلين.

الى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس ، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وان قويت معرفته لايمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته ، وان ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الاحوال وبقى سالما ، لاح له من جمال المعرفة ماتعظم لذته وبهجته ويدهش عقله ، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، الا أن ذلك كالبرق الخاطف ، ولا يمكن أن يدوم ، اذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن انيدوم بل هو آني ، ويعرض بعدالآن من الشواغل والافكار والخواطر مايشوشه وينقصه ، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية ؛ فلا تزال هذه اللذة منقصة الى الموت ، وانما الحياة الطيبة بعده ؛ وانما العيش عيش الآخرة ، فان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه ، الا من حيثارادة زيادة استكمال في المعرفة ، فان المعرفة كما عرفت بمنزلة البذر ، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته ، قويت المشاهدة وأشتدت ، وكثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن . ولا ريب في أن المعرفة لاتنتهي الى مرتبة لاتكون فوقها مرتبة ، اذ بحر المعرفة لاساحل له ، والاحاطة بكنه جلال الله محال ؛ فالعارف وان قويت معرفته ، ربما أحب طول العمر ، وكره الموت لتزداد معرفتـــه .

ثم أهل السنة قالوا : « ان الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصوير والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان : تكونبالعين دون القلب » : (وهو عندنا باطل) : اذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى ، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة ، فكما لاتجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر ، فكذلك لاتجوز في الآخرة ، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لاهل البصائر — أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى الى المشاهدة واللقاء — فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى ، والحجاب بينه وبين خلقه ليس الا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد ، فان العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم ومنصرفاتهم ،

وان كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافا وأشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية — كما تقدم مفصلا — ، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة ، روى شيخنا الاقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) رحمهما الله باسنادهما الصحيح عن الصادق (ع) : « أنه سئل عما يروون من الرؤية ، فقال : الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر ، فان كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب » . وبأسنادهما عن أحمد بن اسحاق قال : « كتبت الى ابي الحسن الثالث (ع) أسأله عن الرؤية وما أختلف فيه الناس ، فكتب : لا تجوز الرؤية مالم يكن بين الرائى والمرئى هواء ينفذه البصر فاذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه ، لان الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه ، وكان ذلك التشبيه لان الاسباب لابد من اتصالها بالمسببات » . وعن ابى بصير عن الصادق (ع) قال « قلت له : اخبرنى عن الله — عزوجل — هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم ! وقد راوه قبل يوم القيامه . فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم الست بربكم ، قالوا بلى . . . ثم سكت ساعة ، ثم قال : وان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ، الست تراه في وقتك هذا؟! قال ابو بصير فقلت له : جعلت فداك ! فاحدث بهذا عنك ؟ فقال : لا! فانك اذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ماتقوله ، ثم قدر ان ذلك تشبيه كفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين ؛ تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون » . وسئل امير المؤمنين (ع) : « هل رايت ربك حين عبدته ؟ فقال : ويلك ! ماكنت اعبد ربا لم اره . قيل : وكيف رايته ؟ قال : ويلك ! لاتدركه العيون في مشاهدة الابصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان » [٣٢] . وقال سيد

---

(٣٢) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافى) : الجزء الاول ، باب ابطال الرؤية . وعلى (الوافى) : ١ / ٦٩ ، باب أبطال الرؤية .

الشهداء (ع) : « كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ايكون لغيرك من الظهور ماليس لك ، حتى يكون هـو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الاثار هى التى توصل اليك ،عميت عين لاتراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لهم تجعل من حبك نصيبا » • وقال (ع) ايضا : « تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء » وقال : « وانت الذى تعرفت الي في كل شيء ، فرايتك ظاهرا في كل شيء ، وانت الظاهر لكل شيء »[٣٣] • وامثـال ذلك مما ورد عنهم — عليهم السلام — اكثر من ان تحصى •

فصــل

الطريق الى الرؤية واللقاء

الطريق الى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران

احدهما — تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها ، والتبتل الى الله بالذكر والفكر ، ثم اخراج حب غير الله من القلب ، اذ القلب مثل الاناء الذى لايسع الماء — مثلا — مالم يخرج منه الخل • وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وكمال الحب في ان يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، وبقدر مايشتغل بغير الله ينقص منه حب الله الا ان يكون التفاته الى الغير من حيث انه صنع الله — تعالى وفعله ومظهر من مظاهر اسماء الله — تعالى — ،والى التجريد والتفريد الاشارة بقوله تعالى:

« قل الله ثم ذرهم » (٣٤)

وثانيهما — تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب والاول ، اعنى قطع العلائق ، بمنزلة تنقية الارض من الحشائش ، والثانى اى المعرفة ، بمنزلة البذر فيها ، ليتولد منه شجر المحبة •

ثم لتحصيل المعرفة طريقان :

احدهما — الاعلى ، وهو الاستــدلال بالحق على الخلق ، وذلك بأن

---

(٣٣) صححنا فقرات دعاء عرفة على «مفاتيح الجنان» : ص ٢٧٢ — ٢٧٤ طبعة الكراورى •

(٣٤) الانعام ، الآية : ٩١

يعرف الله بالله ، وبه يعرف غيره ، اى افعاله وآثاره . والى هـذا اشير في الكتاب الآلهى بقوله :

((او لم يكف بربك انـه على كل شيء شهيد))(٣٥)

وهذا الطريق غامض ، وفهمه صعب على الاكثيرين . وقـد اشرنا الى كيفيته في بعض كتبنا الآلهيات .

وثانيهما ــ وهو الادنى ، الاستدلال بالخلق على الحق ــ سبحانه ــ وهذا الطريق في غاية الوضوح ، واكثر الافهام يتمكن من سلوكه ، وهـو متسع الاطراف ، ومتكثر الشعوب والاكناف ، اذ مامن ذرةمن اعلى السماوات الى تخوم الارضين الا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته، وذلك مما لايتناهى .

((قـل لو كان البحر مـدادا لكلمـات ربي لنفـد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى))(٣٦)

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق الى معرفة الله مع وضوحه، انما للاعراض عن التفكير والتدبر والاشغـال بشهـوات الدنيا وحظوظ النفس . ثم سلوك هذا الطريق ، اى الاستدلال على الله ــ تعالى ــ وعلى كمال قدرته وعظمته ، بالتفكر في الآيات الآفاقية والانفسية ،خوض في بحار لاساحل لها ، اذ عجائب ملكوت السماوات والارض مما لايمكن ان تحيط به الافهام ، فان القدر الذى تبلغة أفهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضى الاعمار دون ايضاحه ولانسبة لما احاط به علمنا الى ما احاط به علم العلماء ، ولانسبة له الى مااحاط به علم الانبياء ، ولانسبة له الى ما احاط به علم الخلائق كلهم ، ولا نسبة له الى ما استأثر الله بعلمه ، بل كلما عرفه الخلائق جميعا لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله ، ونحن قد اشرنا الى لمعةيسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكر .

(٣٥) فصلت ، الآية : ٥٣ .

(٣٦) الكهف ، الآية : ١١٠

فصــــل

تفاوت المؤمنين فى محبة الله

اعلم ان المؤمنين جميعا مشتركون في اصل محبة الله لاشتراكهم في اصل الايمان ، ولكنهم متفاوتون في قدرها ، وسبب تفاوتهم امران :

احدهما — اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا ، فان اكثر الناس ليس لهم من معرفة الله الا ما قرع اسماعهم من كونه متصفا بصفات كذا وكذا ، من دون وصول الى حقيقة معناها ،والى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه ، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها . وأما العارفون : فلهم الخوض في بحر التفكر والتدبر في انواع المخلوقات، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية ، والمصالح العجيبة ، التي كل واحد منها كمشعلة في ازالة ظلمة الجهل ، والهداية الى كمال عظمة الله ، ونهاية جلاله وكبريائه ، فمثل الاكثرين كمثل عامي احب عالما بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف ، من دون علم ودراية بما في تصانيفه ، فتكون له معرفة مجملة ويكون له بحسنه ميل مجمل ، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه واطلع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات . ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه ، فمن عرف ذلك مجملا تكون له بحسبه محبة مجملة ، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب ، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه ، فمن اعتقد ان ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة انما هو بالهام الله — تعالى — اياها ، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الاشكال ، لا يكون في معرفة الله وادراك عظمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه . ثم ، كما ان دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية ، ولا يمكن لاحد ان يحيط بها ، وانما ينتهي كل الى ما يستعد له ؛ فينبغي أن تكون مراتب الحب أيضا غير متناهية ؛ وكل عبد ينتهي الى مرتبة تقتضيها معرفته .

وثانيهما — اختلافهم في الاسباب المذكورة للحب ، فان من يحب الله لكونه منعما عليه ومحسنا اليه ، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان

ولايكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرخاء والنعماء . واما من يحبه لذاته ، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه .

فصل

الواجب اظهر الموجودات

عجبا لاقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله ـ سبحانه ـ ، مع أن الله ـ تعالى ـ أظهر الموجودات وأجلاها ، لان البديهة العقلية قاضية بأنه يجب ان يكون في الوجود موجود قائم بذاته ، أي ما هو صرف الوجود ، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا ، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر واجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية ؛ قال الله ـ سبحانه ـ :

« الله نور السماوات والارض » (٣٧)

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره ، ومبدأ الادراك من المدرك انما هو الوجود ، فكلما ادركته انما تدرك اولا وجوده ، وان لم تشعر بذلك . ولا ريب في أن الظاهر لنفسه اظهر من الظاهر بغيره ، وأيضا كل موجود سوى الله ـ سبحانه ـ يعلم وجوده بقليل من الآثار ؛ فان وجود الحياة لزيد ـ مثلا ـ لا يدل عليه الا حركته وتكلمه وبعض أخر من اعراض نفسه ؛ ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات ؛ وكذا وجود السماء ـ مثلا ـ لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها ؛ ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها .

وأما وجود الواجب ـ تعالى ـ فيدل عليه كل شيء ، اذ ليس في الوجود مدرك محسوس أو معقول ، وحاضر أو غائب ، الا وهو شاهد ومعرف لوجوده ؛ فالسبب في خفائه مع كونه أجلى واظهر من كل شيء غاية وضوحه وظهوره ، فان شدة ظهور الشيء قد يكون سببا لخفائه ، لانه يكل المدارك ويحسرها ، فشدة ظهوره ـ سبحانه ـ بلغت حدا بهرت العقول وادهشتها ،

---

(٣٧) النور الآية ٣٥

فضعفت عن ادراكه . وهذا كما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش ، فان بصره ضعيف يبهره نور الشمس اذا أشرق ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لا متناع ابصاره ، فلايرى شيئا الا اذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الالهية في نهاية الاشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والارض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب باشراق نوره ؛ واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره ! ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره ، فان الاشياء انما تستبان باضدادها ، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر ادراكه ، فلو اختلفت الاشياء ، فدل بعضها على الله — تعالى — دون بعض ، ادركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد ، اشكل الامر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الارض ؛ فانا نعلم أنه عرض من الاعراض يحدث في الارض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غرب لها ، لكنا نظن أن لا هيئة في الاجسام الا الوانها ، وهي السواد والبياض وغيرهما ، وأما الضوء فلا ندركه وحده لكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع ادركنا تفرقة بين الحالتين ، فعلمنا ان الاجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه الا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابه غير مختلفه في النور والظلام . وهذا مع ان النور اظهر المحسوسات ، اذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الاشياء وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم اوغيبة او تغير ، لانهدت السماوات والارض وبطل الملك والملكوت ، وادركت التفرقة بين الحالتين ، ولو كان بعض الاشياء موجودا به ، وبعضها موجودا بغيره ، لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ، ولكن دلالته عامة في الاشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في الاحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل :

خفي لافراط الظهــور تعرضت　　لادراكــه أبصــار قوم أخافش
وحظ عيون الزرق من نور وجهه　　لشدته حظ العيون العوامش

قال أمير المؤمنين (ع) : « لم تحط الاوهام ، بل تجلى لها بها ، وبها امتنع منها» .وقال (ع) : « ظاهر في غيب ، وغائب في ظهور » . وقال(ع): « لاتجنه البطون عن الظهور ، ولا تقطعه الظهور عن البطون ، قرب فنأى وعلافدنا ، وظهر فبطن وبطن فعلن ، ودان ولم يدن » : أى ظهر وغلب ، ولم يغلب . ومن هناك قيل : « عرفت الله بجمعه بين الاضداد » .

فصــــل

علائم محبة الله

محبة العبد لله ــ سبحانه ــ له علامات :

الاولى ــ أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان في دار الســلام ، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه ، اذ كل من يحب شيئا يحب لقاءه ووصله ؛ واذا علم انه يمتنع الوصول اليه الا بالارتحال من الدنيــا بالموت لاحب الموت لامحالة ، وكيف يثقل على المحب ان يسافر من وطنه الى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، ولذا قال (حذيفة) عند موته :« حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح اليوم من ندم » . قال بعض الاكابر :« لايكره الموت الا مريب ، لان الحبيب لايكره لقاء الحبيب على كل حال » .

ثم من يكره الموت ، فان كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والاولاد والاموال ؛ وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال ؛ بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه اصلا بمــا يترتب عليه من لقاء الله ــ تعالى ــ ؛ ولم يجد في قلبه شوقا اليه مطلقا ؛ فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافيا لاصل الحب ؛ ولو لم يكن حبه للدنيا في غايــة الكمال ؛ بحيث لم يجد في قلبه ميلا الى ما يترتب على الموت من لقاء الله ؛ بل كان محبا للدنيا ؛ الا انه كان له شوق الى لقاء الله ــ تعالى ــ ايضا او كان لذلك كراهته للموت ضعيفة ؛ فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال حب الله ؛ لان الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ؛ ولا يبعد ان تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله ؛ فان الناس متفاوتون في حب الله؛

فمنهم من يحبه بكل قلبه . ومنهم من لايحبه بكل قلبه ؛ بل يحب معه غيره ايضا من الاهل والولد والمال ؛ فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها ، وان كانت كراهته للموت لاجل ارادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله ، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل ؛ لا لحب الاهل والمال ؛ ولا للتأسف على فراق الدنيا ؛ فهو لايدل ضعف الحب ولا ينافي اصله ؛ وهو كالمحب الذي وصل اليه خبر قدوم حبيبه ؛ فأحب ان يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيء أسبابها ؛ ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل ؛ وعلامة ذلك: الجد في العمل ؛ واستغراق الهم في تحصيل المعرفة ؛ والاستعداد للآخرة.

الثانية — أن يؤثر مراد الله — سبحانه — على مراده ، اذ المحب لايخالف هوى محبوبه لهوى نفسه ، كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجري ... فاترك ما اريد لما يريد

فمن كان محبا لله : يمتثل اوامره ويجتنب نواهيه ، ويحترز عن اتباع الشهوات ، ويدع الكسالة والبطالة ؛ ولا يزال مواظبا على طاعته وانقياده ويكون مبتهجا متنعما بالطاعة ولا يشغلها ؛ ويسقط عنه تعبها . وقد روي : « أن زليخا لما آمنت ، وتزوج بها يوسف (ع) ؛ انفردت عنه ؛ وتخلت للعبادة ؛ وانقطعت الى الله — تعالى — ؛ وكان يوسف يدعوها الى فراشه نهارا فتدافعه الى الليل ، واذا دعاها ليلا سوفت الى النهار ، فعاتبها في ذلك فقالت : يا رسول الله ! انما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك ، فاما اذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه ، وما أريد به بدلا » . ثم الحق ان العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها ، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه ، ويحب صحته ، والسبب ضعف المعرفة وغلبة الشهوة ، فيعجز عن القيام بحق المحبة .

الثالثة — الا يغفل عن ذكر الله — سبحانه — ، بل يكون دائما مستهترا بذكره ، اذ من أحب شيئا أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته ، لانه كلامه ، ويكون محبا للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته ، ويكون له كمال

الانس والالتذاذ بمناجاته ، وفي اخبار داود : « كذب من ادعى محبتي واذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ، فها أناذا موجود لمن طلبني » .

الرابعة ــ ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء ، ولا يفرح بوجودشيء سوى ما يقربه الى الله او يبعده عنه ، فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في المصائب ، ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية ، ولا يتأسف على ما يفوته الا على مافات منه من طاعة مقربة الى محبوبه ، او على صدور معصية مبعدة ، او على ساعة خلت عن ذكر الله والانس به .

الخامسة ــ ان يكون مشفقا رؤفا على عباد الله ؛ رحيما على اوليائه وشديدا على اعداء الله ، كارها لمن يخالفه ويعصيه ، اذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لاحياء المحبوب والمنسوبين اليه ، والبغض لاعدائه ومخالفيه .

السادسة ــ ان يكون في حبه خائفا متذللا تحت سلطان العظمة والجلال ، وليس الخوف مضادا للحب ، كما ظن ، اذ ادراك العظمة يوجب الهيبة وادراك الجمال يوجب الحب ، ولخصوص المحبين خوف الاعراض، وخوف الحجاب ، وخوف الابعاد ، وخوف الوقوف ، وسلب المزيد وقال بعض العرفاء : « من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريقهما أحبه الله ، فقربه ومكنه وعلمه » .

السابعة ــ كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب الدعوى ، تعظيما للمحبوب واجلالا له ، وهيبة منه وغيرة على سره ، فان الحب سر من اسرار المحبوب ، فلا ينبغي افشاؤه ، ولانه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع ، فيكون من الافتراء ، وتعظم به العقوبة في العقبى والبليةفي الدنيا . نعم ، ربما غشيته سكرة في حبه ، حتى يدهش فيها ، وتضطرب احواله ، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل . فمثله معذور ، لانه تحت سلطان المحبة مقهور ، ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي ان تكون في حق الله يستحيل ان يحصل لاحد وان يطلع على ما اعترف عظماء الانسان ــ اعني الانبياء والاولياء ــ من

العجز والقصور ، وان صنفا واحدا من الاصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، هم أهل المحبة لله ، ما خطر على قلوبهم مذ خلقهم الله — وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم — سوى الله — سبحانه — ؛ وما ذكروا غيره ؛ لاستحيي منه حق الحياء ان يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة ، وخرس لسان عن التظاهر بالدعوى. وروي في بعض الاخبار :« ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله — تعالى — أن يعطيه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فحار عقله وذهل لبه ، ووله قلبه ؛ وهام في الجبال ، وبقى شاخصا سبعة ايام ، لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء ؛ فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي اعطاه ، فأوحى الله — تعالى — اليه :(انا اعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ؛ وذلك ان مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا ، فأخرت اجابتهم الى أن شفعت انت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت اعطيتهم كما اعطيته ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ؛ فهذا ما أصابه من ذلك) . فقال : سبحانك سبحانك! أنقصه مما أعطيته ، فأذهب الله عنه جملة ما اعطاه ، وأبقى فيه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن ، وصار كسائر الكمل من العارفين »[٣٨].

والحق ان حقائق الصفات الالهية اجل واعظم من ادراك العقول البشرية ، ولا يطيق أحد من الكمل ان يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها ، فالوصول الى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال ، (وما قيل أو يقال فيه) وهم اوخيال فأين يحصل لاحد ما يليق به من المعرفة والمحبة ؟ فلو امكن ان تدخل امثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والارضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر غير متناه في جوف خردلة ، لأمكن أن تدخل في أعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله ، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر اوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات ، وهي أيضا لو ضوعفت الى

(٣٨) صححنا الرواية على « احياء العلوم » :٤/٢٨٨ .

غير النهاية في أزمنة غير متناهية ، لكانت بيانات قاصرة ، بل وهمية خيالية. فسبحان من لا سبيل الى معرفته الا بالعجز عن معرفته ! • ومن علامات المحبة الانس والرضا كما يأتي • وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في أبيات ، فقال :

لا تخدعن فللمحب دلائل ۞ ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ۞ وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ۞ والفقر أكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ۞ طوع الحبيب وان ألح العاذل
ومن الدلائل ان يرى متبسما ۞ والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ۞ لكلام من يحظى لديه سائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا ۞ متحفظا عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل ان تراه مشمرا ۞ في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ۞ خوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل ان تراه باكيا ۞ أن قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل ان تراه راضيا ۞ بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى ۞ من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل ان تراه مسلما ۞ كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ۞ والقلب محزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل ان تراه مسافرا ۞ نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

معنى حب الله لعبده

أعلم ان شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله سبحانه يحب العبد ، كقوله تعالى :

« يحبهم ويحبونه »(٣٩) **وقوله تعالى — : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله »** (٤٠) • **وقوله — تعالى — :« ان الله يحب التوابين ويحب**

---

(٣٩) المائدة ، الآية : ٥٧
(٤٠) الصف الآية : ٤

المتطهرين » (٤١) وقوله ـ تعالى ـ :« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (٤٢) .

وقال رسول الله (ص) : « ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطي الايمان الا من يحب » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وان رضي اصطفاه » . وقال (ص) :« من اكثر ذكر الله أحبه الله » . وقال (ص) حاكيا عن الله : « لايزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا ، جعل له واعظا من نفسه ، وزاجرا من قلبه ، يأمره وينهاه » ... وأمثال ذلك اكثر من أن تحصى .

ثم حقيقة الحب ـ وهو الميل الى موافق ملائم ـ غير متصور في حق الله تعالى ، بل هذا أنما يتصور في حق نفوس ناقصة ، والله سبحانه صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال ، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبدا ، اذ لايتصور تجدده وزواله ؛ فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غير ؛ بل ابتهاجه بذاته وصفاته وأفعاله ، وليس في الوجود الا ذاته وصفاته وأفعاله ولذلك قال بعض العرفاء ـ لما قرىء قوله ـ تعالى ـ : (يحبهم ويحبونه): « نحن نحبهم ، فانه ليس يحب الا نفسه » ، على معنى انه الكل ؛ وانه في الوجود ليس غيره ؛ فمن لايحب الا ذاته ، وصفات ذاته ، وأفعال ذاته، وتصانيف ذاته ؛ فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو اذاً لايحب الا ذاته . وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له تعالى بأفعاله له ، اذ المستفاد من الآيات والاخبار : أن له تعالى خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات ، فمعنى هذه المحبة يرجع الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، والى تمكينه اياه من القرب اليه ، والى ارادته ذلك به في الازل ، والى تطهير باطنه عن

(٤١) البقرة الآية : ٢٢٢ .
(٤٢) آل عمران ، الآية : ٣١

حلول الغير به ، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه ؛ حتى لايسمع الا بالحق ومن الحق ، ولا يبصر الا به ، ولا ينطق الا به — كما في الحديث القدسي ، فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله في درجة القرب من ربه ؛ وكل ذلك من فضل الله تعالى ولطفه به .

ثم قرب العبد من الله لايوجب تغيرا وتجددا في صفات الله تعالى ، اذ التغير عليه سبحانه محال ، لانه لايزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في أزل الآزال ، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه في مدارج الكمال ، والتخلق بمكارم الاخلاق التي هي الاخلاق الآلهية ، فكلما صار اكمل صفة وأتم علما واحاطة بحقائق الامور ،وأثبت قوةفي قهر الشياطين وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهـة عن الرذائل ، وأقوى تصرفا في ملكوت الاشياء ، صار أقرب الى الله ؛ ودرجات القرب غير متناهية ، لعدم تناهي درجات الكمال ، فمثل تقرب العبد الى الله ليس كتقرب أحد المتقاربين الى الآخر اذا تحركا معا ، بل كتقرب أحدهما مع تحركه الى الآخر الذي كان ساكنا ، او كتقرب التلميذ في درجات الكمال الى استاذه ، فان التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى بقاء العلم ، ويطلب القرب من استاذه في درجات العلم والكمال ، والاستاذ ثابت واقف ، وان كان التلميذ يمكن ان يصل الى مرتبة المساواة لاستاذه لتناهي كمالاته ، وأما العبد ، كائنا من كان ، لايمكن ان يصل الى كمال يمكن ان تكون له نسبة الى كمالاتـه سبحانه ، لعدم تناهي كمالاته شدة وقوة وعدة ، وعلامة كون العبد محبوبا عند الله : أن يكون هو محبا له تعالى ، مؤثرا اياه على غيره من المحاب ؛ وأن يرى من بواطن أموره وظواهره انه تعالى يهيىء له أسباب السعادة فيها ، ويرشده الى ما فيه خيره ؛ ويصده عن المعاصي بأسباب يعلم حصولها منه سبحانه ، وأنه تعالى يتولى أمره ؛ ظاهره وباطنه ؛ وسره وجهره ؛ فيكون هو المشير عليه ؛ والمدبر لأمره ؛ والمزين لأخلاقـه ؛ والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل لهمومه هما واحدا ، والمبغض للدنيا في قلبه ؛ والموحش له من غيره ، والمونس له بلذة المناجاة في خلواته؛

والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته •

تذنيــب

الحب فى الله والبغض فى الله

أعلم ان الاخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه ؛ ومعناه لايخلو عن أبهام ؛ فلابد ان نشير الى بعض هذه الاخبار ؛ ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه :

أما الاخبار : كقول النبي (ص) : « ودّ المؤمن للمؤمن في اللهأعظم شعب الايمان ؛ ألا ومن أحب في الله ؛ وابغض في الله ؛ ومنع في الله ؛ فهو من أصفياء الله » • وقال (ص) لأصحابه : « أي عرى الايمان اوثق ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم فقال بعضهم : الصلاة ؛ وقال بعضهم : الزكاة ؛ وقال بعضهم : الصيام ؛ وقال بعضهم : الحج والعمرة ؛ وقال بعضهمالجهاد فقال رسول الله (ص) : « لكل ما قلتم فضل وليس به ؛ ولكن اوثقعرى الايمان الحب في الله والبغض في الله ، وتوالي اولياء الله والتبرى من أعداء الله » • وقال (ص) : « المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه ــ وكلتا يديه يمين ــ وجوههم أشد بياضاوأضوأ من الشمس الطالعة ، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل ؛ يقول الناس : من هؤلاء ؟ فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » • وقال سيد الساجدين (ع) : « اذا جمع الله عز وجل الاولين والآخرين ، قام مناد فنادى ليسمع الناس ، فيقول : أين المتحابون في الله ؟ قال : فيقوم عنقمن الناس ، فيقال لهم : أذهبوا الى الجنة بغير حساب • قال : فتلقاهم الملائكة فيقولون : الى اين ؟ فيقولون : الى الجنة بغير حساب ، فيقولون : أي حزب انتم من الناس ؟ فيقولون : نحن المتحابون في الله • قال : فيقولون: وأي شيء كانت أعمالكم ؟ قالوا : كنا نحب في الله ونبغض في الله • قال : فيقولون : نعم أجر العاملين » • وقال الباقر (ع) : « اذا أردت ان تعلم ان فيك خيرا ، فأنظر الى قلبك ، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك ، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرأ مع من أحبه » • وقال (ع) :

« لو أن رجلا أحب رجلا لله ، لأثابه الله على حبه اياه ؛ وان كان المحبوب في علم الله من أهل النار ؛ ولو ان رجلا أبغض رجلا لله ؛ لأثابه الله على بغضه اياه ؛ وان كان المبغض في علم الله من أهل الجنة » . وقال الصادق عليه السلام : « من أحب لله ؛ وأبغض لله ؛ وأعطى لله ؛ فهو ممن كمل ايمانه » . وقال (ع) : « ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور ، قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء ، حتى يعرفوا به فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » . وقال (ع) : « وهل الايمان الا الحب في الله والبغض في الله ؟ ثم تلا هذه الآية :

« حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون (٤٣)

وقال (ع) : « ما التقى المؤمنان قط الا كان أفضلهما أشدهما حبا لأخيه » . وقال (ع) : « من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له » والاخبار بهذه المضامين كثيرة [٤٤] .

واذا عرفت ذلك ، فلنشر الى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول:

الحب الذي بين انسانين ؛ اما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية ؛ كالصحبة بحسب الجوار ؛ او بحسب الاجتماع في سوق ؛ او مدرسة ؛ أو سفر ؛ او باب سلطان ، او امثال ذلك ، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب في الله ، بل هو الحب بحسب الاتفاق ؛ او لايحصل بمجرد ذلك ، بل له سبب وباعث آخر ، وهذا على أربعة أقسام :

الاول — أن يحب انسان انسانا لذاته ، لا ليتوصل به الى محبوب ومقصود وراءه ؛ بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده ؛ بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدة اخلاقه ، لاستحسانه له ، فان كل جميل لذيذ في حق من ادرك جماله ، وكل لذيذ محبوب ؛ واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع . ثم ذلك المستحسن؛

---

(٤٣) الحجرات ، الآية : ٧

(٤٤) صححنا الاحاديث كلها على « اصول الكافي » : ج٢ ، باب الحب في الله والبغض في الله وعلى « الوافي » : ٣/٣٤٤ ، باب الحب في الله والبغض في الله .

اما أن يكون جمال الصورة، وكمال العقل ؛ وغزارة العلم ؛ وحسن الاخلاق والافعال ، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة ؛ وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب ، ومن هذا القسم ان يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما ، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق . ومن دون ملاحة في صورة . ولاغيرها من الاعضاء ، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة ؛ فان شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع ، والاشياء الباطنة خفية ، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر ان يطلع عليها ، والى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله (ص) بقوله : « الارواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ؛ وما تناكر منها اختلف » . فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف ؛ والبغض نتيجة التناكر . ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله ، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، لذا يتصور ممن لايؤمن بالله ، الا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموما، والا فهو مباح لايوصف بمدح وذم .

الثاني — أن يحبه لالذاته ، بل لينال منه محبوبا وراء ذاته ، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية . ولا ريب في أن كلما هو وسيلة الى المحبوب محبوب ، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر .

الثالث — أن يحبه لالذاته ، بل لغيره ، وذلك الغير راجع الى حظوظه في الآخرة دون الدنيا ؛ وذلك كحب التلميذ الاستاذ ، لان يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة. وهذا الحب من جملة الحب في الله ، وصاحبه من محبي الله ؛ وكذلك حب الاستاذ للتلميذ ؛ لانه يتلقف منه العلم ؛ وينال بواسطته مرتبة التعليم ؛ ويترقى به الى درجة التعظيم في ملكوت السماء . قال عيسى (ع) : «من علم وعمل وعلّم ؛ فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء » . ولا يتم التعليم الا بمتعلم ؛ فهو اذن آلة في تحصيل هذا الكمال ؛ فان أحبه لانه آلة اذ جعل صدره مزرعة لحرثه ؛ فهو محب لله .

بل التحقيق : أن كل من يحب أحدا لصنعته ، او فعله الذي يوجب تقربه الى الله ، فهو من جملة المحبين في الله ، كحب من يتولى له ايصال

الصدقة الى المستحقين ، وحب طباخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقربا الى الله ، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا ، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة ، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل ... وقس على ما ذكر أمثاله ، والمعيار أن كل من أحب غيره من حيث توسله لأجله الى فائدة أخروية فهو محب لله وفي الله .

الرابع ــ ان يحبه لله وفي الله ، لا لينال منه علما او عملا ، اويتوسل به الى أمر وراء ذاته ، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب اليه ، اما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق الى الله ؛ او لأجل خصوصية النسبة أيضا ، من تقربه الى الله ، وشدة حبه وخدمته له تعالى. ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب ان يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق به ويناسبه ، ولو من بعد ، فمن أحب انسانا حبا شديدا ؛ احب محب ذلك الانسان وأحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثني عليه أو يثني عليه محبوبه ، وأحب ان يتسارع الى رضاء محبوبه ، كما قيل :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله ، فهو أن يبغض انسان انسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له تعالى ، فان من يحب في الله لابد وأن يبغض في الله ، فانك ان أحببت انسانا لانه مطيع لله ومحبوب عنده ، فان عصاه لابد ان تبغضه ؛ لانه عاص فيه وممقوت عند الله ، قال عيسى (ع) : « تحببوا الى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم ، والتمسوا رضاء الله بسخطهم . وروى : « انه تعالى اوحى الى بعض أنبيائه : أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة ، وأما انقطاعك الي فقد تعززت بي ، ولكن هل عاديت في عدوا ، او واليت وليا ؟ » .

ثم للمعصية درجات مختلفة ، فانها قدتكون بالاعتقاد ، كالكفروالشرك والبدعة ، وقد تكون بالقول والفعل ، وهذا اما أن يكون مما يتأذى به

غيره ؛ كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر أنواع الظلم ؛ او لايكون مما يتأذى به غيره ، وهذا اما يوجب فساد الغير ، كالجمع بين الرجال والنساء ، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ماهو دأب صاحب الماخور ، أو لايوجب فساد الغير ؛ كالزنا وشرب الخمر ؛ وهذا أيضا اما كبيرة او صغيرة . واظهار البغض أيضا له درجات مختلفة ؛ كالتباعد والهجران ، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة ، والتغليظ في القول ، والاستخفاف والاهانة ؛ وعدم السعي في اطاعته ؛ والسعي في اساءته وافساد مآربه ؛ وبعض هذا أشد من بعض ؛ كما أن درجات الفسق والمعصية أيضا كذلك . فينبغي ان يكون الاشد من درجات البغض بازاء الاشد من درجات المعصية والفسق ؛ والوسط بازاء الوسط ؛ والاضعف بازاء الاضعف . وينبغي ألا يترك أولا النصيحة ، والامر بالمعروف . والنهي عن المنكر وتغليظ القول في الوعظ والارشاد ؛ لاسيما اذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبة متأكدة . ثم العاصي ان كان ممن له صفات محمودة ، كالايمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة او أمثال ذلك ، ينبغي ان يكون مبغوضا لأجل معصيته ومحبوبا لأجل صفته المحمودة ، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد اليه والتوحش عنه ؛ فلا تبالغ في اكرامه مبالغتك في اكرام من يوافقك في جميع اغراضك ولا تبالغ في اهانته مبالغتك في اهانة من خالفك في جميع أغراضك .

تتميم

الوفاء في الحب

اعلم ان من تمام الحب للأخوان في الله (الوفاء) ، وهو الثبات على الحب ولوازمه وادامته الى الموت وبعده مع أولاده واصدقائه ، وضده (الجفاء) ؛ وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة او بعد الموت بالنسبة الى أولاده وأحبته ، ولولا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة ، اذ الحب انما يراد للآخرة ، فان انقطع قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل؛ ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة : « وأخوان تحابا في الله أجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » . وروى : « أنه (ص) كان

يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه ؛ فقيل له في ذلك ؛ فقال : انها كانت تأتينا أيام خديجة ؛ وان كرم العهد من الدين » • فمن الوفاء مراعاة جميع الاصدقاء والاقارب والمتعلقين ؛ ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الاخ المحبوب في نفسه ؛ فان فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر من فرحه بتفقد نفسه ؛ اذ لاتعرف قوة المحبة والشفقة الا بتعديها من المحبوب الى كل من يتعلق به ؛ حتى أن من قوى حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب • ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع ــ ولو بعد الممات ــ لاتكون محبة في الله ؛ اذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها • فما قيل من ان (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) انما هو لدلالته على كون الحب في الله • وبالجملة : الوفاء بالمحبة تمامها • ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقته ؛ وألا يسمع بلاغات الناس عليه ؛ وأن يحب صديقه ويبغض عدوه ؛ وليس من الوفاء موافقة الاخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ؛ بل من الوفاء المخالفة له وارشاده الى الحق •

هذا وأما البعد والانس ؛ فقد عرفت ان الانس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول ؛ والبعد خلافه ؛ والانس والخوف والشوق ؛ كلها من آثار المحبة ، وكل واحد منها يرد على المحب بحسب نظره ، ومما يغلب عليه في وقته ؛ فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال ؛ واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه الجلال ؛ انبعثت النفس وانزعجت له ؛ وهاجت اليه ، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقا) ، وهو بالاضافة الى أمر غايب ؛ واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ؛ غير ملتفت الى مالم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه فيه ؛ فيسمى استبشاره (أنسا) ؛ وان كان نظره الى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة ، واستشعر امكان الزوال والبعد ؛ تألم قلبه بهذا الاستشعار ، فيسمى تألمه (خوفا) ؛ وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات ؛ فان غلب الانس وتجرد عن ملاحظة

ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته ؛ وغلب عليه الانس بالله ؛ ولم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة ، وذلك لأن الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله ، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الاشياء على القلب ؛ كما روى : « ان موسى (ع) لما كلمه ربه ، مكث دهرا لايسمع كلامه أحد من الخلق الا أخذه الغشيان » ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ،فيخرج عن القلب عذوبة ماسواه فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة ؛ ومجتمع في خلوة ، وغريب في حضر ؛ وحاضر في سفر ؛ وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ؛ ومخالط بالبدن ؛ متفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر ، قال أمير المؤمنين (ع) في وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر ، فباشروا روح اليقين ؛ واستلانوا ما أستوعره المترفون ، وأنسوا بما أستوحش منه الجاهلون ؛ صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الاعلى ، أولئك خلفاء الله في ارضه ؛ والدعاة الى دينه » •

فصل

الأنس بالله

من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الانس أيضا ، ظنا أنه يدل على التشبيه ؛ وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية وعن القصور في طريق المعرفة ، والجمود على أحكام الحس ؛ والغفلة عن عالم العقل والبصيرة ؛ وقد ظهر ثبوت الانس من بعض الاخبار السابقة ، ويدل عليه ما ورد في أخبار داود : « ان الله عز وجل أوحى اليه : ياداود ! أبلغ أهل ارضى : اني حبيب لمن أحبني ، وجليس لمن جالسني ؛ ومؤنس لمن أنس بذكرى • وصاحب لمن صاحبني ؛ ومختار لمن أختارني ؛ ومطيع لمن اطاعني ، ما أحبني عبدأعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسى ؛ واحببته حبا لايتقدمه أحد من خلقي ؛ من طلبني بالحق وجدني ؛ ومن طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا ياأهل الارض ما انتم عليه من غرورها ؛ وهلموا الى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ،وآنسوابي اوانسكم ،واسارع الى محبتكم» •

فصــــل

الانس قد يثمر الادلال

قال ابو حامـد الغزالي : « الانس اذا دام وغلب واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ؛ ولم ينغصه خوف البعد والحجاب ، فانه يثمر نوعا من الانبساط في الاقوال والافعال والمناجاة مع الله سبحانه ، وقد يكون منكرا بحسب الصورة ؛ لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الانس ؛ ومن لم يقم في ذلـك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام ، هلك وأشرف على الكفر • ومثاله مناجاة (برخ الاسود) الذي أمر الله تعالى كليمه موسى (ع) أن يسأله ليستسقى لبني أسرائيل ، بعد أن قحطوا سبع سنين ؛ وخرج موسى في سبعين الفاً ، فأوحى الله عز وجل اليه : كيف استجيب لهم وقـد أظلت عليهم ذنوبهم ؟ سرائرهم خبيثة ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ؛ ارجع الى عبد من عبادي يقال له (برخ) ؛ فقل له : يخرج حتى استجيب له • فسأل عنه موسى ، فلم يعرف ؛ فبينا موسى ذات يوم يمشي في طريق ، اذا بعبد اسود قد استقبله؛ بين عينيه تراب من أثر السجود ، في شملة قد عقدها على عنقه ؛ فعرفه موسى بنور الله عز وجل ؛ فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمي برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين ؛ أخرج فأستسق لنا ؛ فخرج ؛ فقال في كلامه : ما هذا من فعالك ؛ ولا هذا من حلمك ، وما الذي بدا لـك ؟ أتعصت عليك غيومك ؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك ؟ أم نفد ما عندك ؟ ام أشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفارا قبـل خلق الخاطئين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو ، أم ترينا انك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ ! ••• قال : فما برح حتى اخضل بنو اسرائيل بالمطر ، وانبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب ، ثم رجع (برخ) ، فأستقبله موسى ؛ فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربي ، كيف أنصفني ؟! فهمَّ به موسى ، فأوحى الله اليه : ان برخا يضحكني كـل يوم ثلاث

مرات » ! ! [٤٥] .ولاريب في أن امثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض ، فمن انبساط الانس قول موسى :

« ان هى الا فتنتك »(٤٦)

وقوله في التعلل والاعتذار ، لما قيل له :

« اذهب الى فرعون انه طغى »(٤٧) : « ولهم علي ذنب فاخاف ان يقتلون »(٤٧) .وقوله : « ويضيق صدرى » (٤٩) . وقوله : « اننا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى » (٥٠) .

وهذا من غير موسى سوء الادب ، لأن الذي أقيم مقام الانس يلاطف ويحتمل منه مالا يحتمل من غيره ، كيف ولم يحتمل من يونس النبي (ع) ما دون هذا الحال ، أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ، فنودي عليه الى يوم الحشر ، لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، ونهى نبينا ان يقتدى به ، فقيل له:

واصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم »(١) .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والاحوال ، وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، قال الله سبحانه:

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات »(٢)

فالانبياء والاولياء مختلفون في الصفات والاحوال ، ألا ترى أن عيسى

---

(٤٥) هذا من عجائب المنقولات الخرافية ،والغريب من «ابى حامد الغزالي» ان يركن الى مثله ، وقد اشار المصنف — قدس سره — الى بطلان مانقله بقوله : « ولا ريب » .

(٤٦) الاعراف ، الآية : ١٥٤ .

(٤٧) طه ، الآيــة : ٢٤ النازعات ، الاية : ١٧ .

(٤٨) الشعراء ، الآية : ١٤

(٤٩) الشعراء ، الآية : ١٣

(٥٠) طه ، الآية : ٤٥

(١) القلم ، الآية : ٤٨

(٢) البقرة ، الآية : ٢٥٣

بن مريم (ع) كان في مقـام الانبساط والادلال ؛ ولإدلاله له سلم على نفسه ؛ فقال :

« والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٣) .

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس . وأما يحيى عليه السلام فانه أقيم مقام الهيبة والحياء ؛ فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه؛ فقـال :

« والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » (٤)

وانظر كيف أحتمل لاخوةيوسف ما فعلوا به ؛ وقد قال بعض العلماء: « قد عددت من أول قوله تعالى » :

« اذ قالوا ليو.سف وأخوه أحب الى أبينا منا » (٥) .

الى رأس العشرين آية من أخباره تعالى عنهم ، فوجـدت به نيفا واربعين خطيئة ، بعضها أكبر من بعض ؛ وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع ؛ فغفر لهم وعفى عنهم ، ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قيل : لئن عاد محي اسمه عن ديوان النبوة ». ومن فوائد هذه القصص في القرآن : أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء الا وفيه أسرار وأنوار يعرفها الراسخون في العلم .

تذنيـب

العـزلة

أعلم ان من بلغ مقام الانس ؛ غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس ؛ لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام الى الله . فلابد لنا من بيان أن الافضل من العزلة والمخالطة أيهما ؛ فان العلماء في ذلك مختلفون ؛ والاخبار أيضا في ذلك مختلفة ؛ ولكل واحد منهما أيضا

---

(٣)مريم ، الآية : ٣٣
(٤) مريم ، الآية : ١٤
(٥) يوسف ، الآية : ٨

فوائد ومفاسد ؛ فنقول : الظاهر من جماعة : تفضيل العزلة على المخالطة مطلقا . والظاهر من الاخرى : عكس ذلك .

نظر الاولين الى أطلاق ما ورد في مدح العزلة ، والى فوائدها وما ورد في مدحها ؛ كقول النبي (ص) : « ان الله يحب العبد التقي الخفي » ؛ وقوله (ص) : « أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ؛ ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب » ؛ وقوله (ص) لمن سأله عن طريق النجاة : « ليسعك بيتك ، وامسك عليك دينك ، وابك على خطيئتك » ؛ وقول الصادق (ع) : « فسد الزمان ، وتغير الاخوان ؛ وصار الانفراد أسكن للفؤاد » ؛ وقوله (ع) : « أقلل معارفك ؛ وانكر من تعرف منهم » ؛ وقوله (ع) : « صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى ؛ ومحرس بحراسته ؛ فياطوبى لمن تفرد به سرا وعلانية ! وهو يحتاج الى عشر خصال : علم الحق والباطل ؛ وتحبب الفقر ؛ واختيار الشدة ؛ والزهد ؛ واغتنام الخلوة ؛ والنظر في العواقب ، ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود ؛ وترك العجب ؛ وكثرة الذكر بلا غفلة ؛ فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب ؛ وخلوة البيت عما لايحتاج اليه في الوقت . قال عيسى بن مريم عليهما السلام : (أخزن لسانك لعمارة قلبك ، وليسعك بيتك ، واحذر من الرياء وفضول معاشك ، واستح من ربك ؛ وابك على خطيئتك وفر من الناس فرارك من الاسد والافعى فانهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء ثم الق الله متى شئت) قال ربيع بن خثيم : « ان استطعت ان تكون اليوم في موضع لا تعرف ولاتعرف فافعل ففى العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش ، وكسر سلاح الشيطان ، والمجانبة من كل سوء وراحة القلب ؛ وما من نبى ولاوصى الا واختار العزلة في زمانه ؛ اما في ابتدائه واما في انتهائه »[٦]

واما فوائد العزلة ؛ فكالفراغ للعبادة ، والذكر والفكر ، والاستيناس بمناجات الله والاشتغال باستكشاف اسرار الله في ملكوت السماوات والارض

(٦) صححنا هذا القول ، وكذا الحديث السابق ، على «مصباح الشريعة» باب ٢٤ ، وعلى (البحار) : باب العزلة عن شرار الخلق — : مج١٥/٥١ط أمين الضرب .

والتخلص عن المعاصي التي يتعرض الانسان لها غالبا بالمخالطة : كالغيبة والرياء وسائر آفات اللسان ومسارقة الطبع الاعمال الخفية ؛ والاخلاق الردية من الناس والمداهنة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستخلاص من الفتن والخصومات واخطارها أومن شرالناس وايذائهم قولا وفعلا ،وقطع طمعه عن الناس وقطع طمعهم عنه ، والخلاص من مشاهدة الظلمة ، والفسقة والجهال والثقلاء والحمقى ؛ ومقاساة اخلاقهم •

ونظر الآخرين — اعني القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة — الى اطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة والى فوائدها، أماماورد في مدحها ؛ كقول النبى (ص) : « المؤمن الف مألوف ولاخيرفيمن لايألف ولايؤلف » •وقوله (ص) : « من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية» وكالأخبار الواردة فيذم الهجرة عن الاخوان ؛وقوله(ص) : « اياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد » •

وأما فوائد المخالطة : كالتعليم والتعلم وكسب الاخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها واستماع المواعظ والنصائح ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنازة وعيادة المرضى وزيارة الاخوان وقضاء حوائج المحتاجين ورفع الظلم عن المظلومين وادخال السرورعلى المؤمنين والاستيناس بالاخوان وباهل الورع والعبادة والتقوى وهو يروح القلب ويهيج داعية النشاط في العبادة وايصال النفع الى المسلمين بالمال والجاه واللسان واستفادة مزيد الاجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل اذاهم ؛ وكسر النفس وشهواتها وادراك صفة التواضع لتوقفه على معاشرة الناس ومخالطتهم وعدم حصوله في الوحدة؛ واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين فانها لاتحصل الا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجارى احوالهم • هذه هى فوائد كل من العزلة والمخالطة ؛ وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر • وانت — بعدما عرفت فوائد كل منهما وغوائله — تعلم ان الحكم بترجيح احدهما على الآخر على الاطلاق خطأ• كيف يجوز ان يقال :انالعزلة افضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئا من اصوله وفروعه؛ ولم يقرع سمعه علم الاخلاق ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها

فضلا عن ان تحصل له التخلية والتحلية ومع ذلك يمكن ان يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء واولى الاخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز ان يقال : ان المخالطة افضل لمن حصل ماقي وسعه وقدرته من العلم والعمل ؛ ووصل الى مرتبة الابتهاج والالتذاذ بالطاعات والمناجاة ، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية ؛ بل تترتب عليه المفاسدالكثيرة ؟

فالصحيح ان يقال : ان الافضلية فيهما تختلف بالنظر الى الاشخاص والاحوال والازمان والامكنة . فينبغي ان ينظر الى كل شخص وحاله ؛والى خليطه والى باعث مخالطته والى مايحصل بمخالطته من فوائدالمخالطةومايفوت لاجلها من فوائد العزلة ويوازن بين ذلك ؛ حتى يظهر الافضل والارجح . ولاختلاف ذلك في حق الاشخاص بملاحظة الاحوال والفوائد والآفات ؛ ربما يظهر — بعد التأمل — ان الافضل لبعض الخلق العزلة التامة ولبعضهم المخالطة ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة . وبما ذكر يظهر انالافضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق : الخلوة والعزلة اذ لاريب في ان المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والانس ؛ ولايتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك . ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة . قال اويس القرني : « ماكنتارىاحدا يعرف ربه فيأنس بغيره» . وقال بعضهم : « اذا رأيت الصبح ادركني استرجعت كراهية لقاء الناس » . وقال بعضهم : « سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه» وقال بعض الصالحين : « رايت في بعض البلاد عابدا خرج من بعض قلل الجبال ؛ فلما رآني تنحى عني وتستر بشجرة ؛ فقلت له : سبحان الله ! اتبخل علي بالنظر اليك ؟ فقال : يا هذا ! اني قمت فيهذا الجبل دهرا طويلا اعالجقلبي في الصبر عن الدنيا واهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري ؛ فسألت الله — تعالى — ان يعطيني ذلك فسكن قلبي عن الاضطراب والف الوحدة والانفراد ؛ فلما نظرت اليك خفت ان اوقع في الاول فاني اعوذ من شرك برب العالمين وحبيب القانتين ثم صاح وقال : واغماه من طول المكثفي الدنيا ! ثم حول وجهه عني وقال : سبحان من ذاق قلوب العارفين من لذة الخلوة وحلاوة الانقطاع اليه ! ماألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور

الحسان » .وقال بعض الاكابر : انما يستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فبملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ؛ ويستخرج العلم والحكمة » ومن هنا قيل : (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس) . فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله ، وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله ، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة ؛ فان غاية العبادات وثمرة المجاهدات أن يموت الانسان محباالله عارفاً بالله ،ولامحبة الا بالانس الحاصل بدوام الذكر ؛ ولا معرفة الا بدوام الفكر ؛ وفراغ القلب شرط لكل منهما ؛ ولا فراغ مع المخالطة .

فان قلت : لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله ؛ ولذا كان الانبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والانس .

قلنا : لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهرا ؛ والاقبال التام على الله سرا ؛ الا قوة النبوة . فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه ؛ فيطمع في ذلك . ثم ؛ بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الاخبار الواردة من الطرفين فان ما ورد في فضيلة العزلة انما هو بالنظر الى بعض الناس ؛ وما ورد في فضيلة المخالطة انما هو بالنظر الى بعض آخر .

ومنهـا :

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الالهية والتقديرات الربانية ، ويرادفه الانكار والاعتراض ، وهو من شعب الكراهة لافعال الله ؛ وهو ينافي الايمان والتوحيد . وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقـع القضاء والقدر؛ والغافل عن موارد الحكم والمصالح ، والاعتراض والانكار والسخط لافعال الخالق الحكيم العليم الخبير ، واني للعبد ألا يرضى بمـا يرضى به ربه ؛ ولعمري ! أن من يعترض على فعل الله فهو أشد الجهـلاء؛ ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقـد ورد في الخبر القدسي : « خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديـه ، وويل ثم ويل لمن قال لم

وكيف ! » . وفي خبر قدسي آخر : « أنا الله لا اله الا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر على نعمائي ؛ ولم يرض بقضائي ؛ فليتخذ ربا سواي » . وفي مناجاة موسى : « أي رب ! أي خلقك أحب اليك ؟ قال : من اذا أخذت منه المحبوب سالمني . قال : فأي خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرني في الامر ، فاذا قضيت له سخط قضائي » . وفي الخبر القدسي : « قدرت المقادير ، ودبرت التدبير ؛ وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا مني حين يلقاني ؛ ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني » . وقال الباقر (ع) : « من سخط القضاء مضى عليه القضاء ؛ وأحبط الله أجره » . وقال الصادق (ع) : « كيف يكون المؤمن مؤمنا ؛ وهو يسخط قسمته ؛ ويحقر منزلته ؛ والحاكم عليه الله ؛ وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه الا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له » وفي بعض الاخبار : « ان نبيا من الانبياء شكى الى الله — عز وجل — الجوع والفقر والعرى عشرسنين فما أجيب اليه ؛ ثم أوحى الله — تعالى — اليه : كم تشكو ؟ وهكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل ان اخلق السماوات والارض ؛ وهكذا سبق لك مني ؛ وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا ؛ أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟ أم تريد ان ابدل ما قدرته عليك ، فيكون ما تحب فوق ما احب ، ويكون ما تريد فوق ما اريد ؟ وعزتي وجلالي ! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة اخرى ، لامحونك من ديوان النبوة »[7] . وروي انه : « أوحى الله — تعالى — الى داود (ع) : تريد واريد وانما يكون ماأريد؛ فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد ؛ وان لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد ثم لا يكون الا ما اريد »[8] .

وبالجملة : من عرف أن العالم بجميع اجزائه ، من الجواهر والاعراض صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية ، وانها النظام الاصلح الذي لا يتصور

(٧) صححنا هذا الحديث ، وكذا الاخبار القدسية ، السابقة ، على « احياء العلوم : ٤/٢٩٥ — ٢٩٦

(٨) صححنا هذا الحديث ، وكذا ما روي قبله عن أهل البيت — عليهم السلام — على «اصول الكافي » : ج٢ — باب الرضا بالقضاء وعلى (سفينة البحار) : ١/٢٢٤

فوقه نظام ؛ ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الاصلحية والخيريــة ؛ وعرف الله بالربوبية ؛ وعرف نفسه بالعبودية ؛ يعلم أن السخط والاعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد ، ويكون غاية الجهل والخطر ، ولذلك لم يكن احد من الانبياء أن يقول قط في أمر : ليت كان كذا ، حتى قال بعض اصحاب النبي (ص) : « خدمت رسول الله (ص) عشر سنين ، فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلت ، ولا لشيء لم أفعله لم لم تفعله ؛ ولا قال في شيء كان: ليته لم يكن ؛ ولا في شيء لم يكن : ليته كان ؛ وكان اذا خاصمني مخاصم من أهله ، يقول : دعوه ، لو قضى شيء لكان » . وروي : « أن آدم (ع) كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، ويجعل أحدهم رجليه على اضلاعه كهيئة الدرج ؛ فيصعد الى رأسه ، ثم ينزل على اضلاعه كذلك وهو مطرق الى الارض لا ينطق ، ولا يرفع رأسه ؛ فقال له بعض ولده : ياأبت ! أما ترى ما يصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ، فقال : يا بني ! اني رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ؛ اني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ؛ ومن دار الشقاء ؛ فاخاف أن اتحرك حركة اخرى فيصيبني مالا أعلم »[٩] .

فصل

الرضا ــ فضيلة الرضا ــ رضا الله ــ رد انكار تحقق الرضا ــ هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا ــ طريق تحصيل الرضا ــ التسليم .

ضد السخط (الرضا) ، وهو ترك الاعتراض والسخط باطنا وظاهرا قولا وفعلا ، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها ؛ اذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه ، وصاحب الرضا يستوي عنده الفقر والغنى ، والراحة والعناء ؛ والبقاء والفناء ، والعز والذل ، والصحة والمرض ؛ والموت والحياة ولا يرجح بعضها على بعض ، ولا يثقل شيء منها على طبعه ؛ اذ يرى صدور الكل من الله ــ سبحانه ــ ، وقــد رسخ حبه في قلبه ، بحيث يحب افعاله ، ويرجح على مراده مراده ــ تعالى ــ ، فيرضى لكل ما يكون ويرد . وروي : « أن واحدا من ارباب الرضا عمر سبعين سنة ، ولم يقل

(٩) صححنا الحديث على «احياء العلوم» : ٢٩٥/٤

في هذه المدة لشيء كان : ليته لم يكن ، ولا لشيء لم يكن : ليته كان» .
وقيل لبعضهم : « ما وجدت من آثار الرضا في نفسك ؟ فقال : ما في رائحة من الرضا ، ومع ذلك لو جعلني الله جسرا على جهنم ، وعبر عليه الاولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة ؛ ثم يلقوني في النار ؛ وملأ بي جهنم لاحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه ، ولم يختلج ببالي أنه لم كان كذا ، وليت لم يكن كذا ؛ ولم هذا حظي وذاك حظهم » . وصاحب الرضا أبدا في روح وراحة ؛ وسرور وبهجة ، لانه يشاهد كل شيء بعين الرضا ، وينظر في كل شيء الى نور الرحمة الالهية ؛ وسر الحكمة الازلية فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه . وفائدة الرضا ، عاجلا ، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم ، وآجلا ، رضوان الله والنجاة من غضبه — تعالى — .

فصل

فضيلة الرضا

الرضا بالقضاء افضل مقامات الدين ، وأشرف منازل المقربين ، وهو باب الله الاعظم ؛ من دخله دخل الجنة . قال الله — سبحانه — :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (١٠)

وعن النبي (ص) : « أنه سأل طائفة من اصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون ، فقال : ما علامة ايمانكم ؟ فقالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ؛ ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون ورب الكعبة ! » ، وفي خبر آخر ؛ قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا انبياء » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، فان رضى اصطفاه » . وقال (ص) : « اعطوا الله الرضا من قلوبكم ، تظفروا بثواب فقركم » . وقال (ص) : اذا كان يوم القيامة ، أنبت الله — تعالى — لطائفه من امتي أجنحة ، فيطيرون من قبورهم الى الجنان ، يسرحون فيها ؛ ويتنعمون فيها كيف شاؤوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون

(١٠) المائدة ، الآية : ١٢٢ . التوبة ، الآية : ١٠١ المجادلة ، الآية ٢٢ : البينة الآية : ٨ .

ما رأينا حسابا ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينــا صراطا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون : من امة محمد (ص) ، فتقول : ناشدناكم الله ! حدثونا ما كانت اعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا ، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وما همـا ؟ فيقولون : كنا اذا خلونا نستحي أن نعصيه ؛ ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا » . وقال الصادق (ع) : « ان الله بعدله وحكمته وعلمه ، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله — تعالى — وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . وروي : « أن موسى (ع) قال : يارب ! دلني على امر فيه رضاك . فقال — تعالى — : ان رضاي في رضاك بقضائي » . وروي : « ان بني اسرائيل قالوا له (ع) : سل لنا ربك امرا اذا نحن فعلناه يرضى عنا ، فقال موسى (ع) : الهي ! قد سمعت ماقالوا ، فقال : ياموسى ! قل لهم يرضون عني حتى ارضى عنهم »[١١] . وقال سيد الساجدين (ع) : « الصبر والرضا رأس طاعة الله ، ومن صبر ورضى عن الله فيما قضى عليه فيما احب او كره ، لم يقض الله — عز وجل — له فيما أحب او كره الا ما هو خير له » . وقال — صلوات الله عليه — : « الزهــد عشرة اجزاء ، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين ؛ وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا » . وقال الباقر (ع) : « أحق خلق الله ان يسلم لما قضى الله — عز وجل — ، من عرف الله — عز وجل — ومن رضى بالقضاء ، أتى عليه القضاء وعظم الله أجره» . وقال الصادق (ع) : « أعلم الناس بالله ارضاهم بقضاءالله» . وقال (ع) : « قال الله — عز وجل — : عبدي المؤمن ، لا اصرفه في شيء الا جعلته خيرا له ، فليرض بقضائي ؛ وليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي اكتبه يا محمد من الصديقين عندي » . وقال (ع) : « عجبت للمرء المسلم لايقضي الله — عز وجل — له قضاء الا كان خيرا له ، ان قرض بالمقاريض كان خيرا له ، وان ملك مشارق الارض ومغاربها كان خيرا له » .وقال(ع):

---

(١١) صححنا الاحاديث على « احياء العلوم » : ٤/٢٩٥ — ٢٩٦ .

« ان فيما أوحى الله ـ عز وجل ـ الى موسى بن عمران (ع) : يا موسى ابن عمران ! ما خلقت خلقا أحب الي من عبدي المؤمن ، واني انما ابتليه لما هو خير له ، واعافيه لما هو خير له ؛ وازوي عنه لما هو خير له ، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي ، فليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي ، وليرض بقضائي ، اكتبه في الصديقين عندي،اذا عمل برضاي واطاع امري» . وقيل له (ع) : بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن ؟ قال : « بالتسليم لله ، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط » . وقال الكاظم (ع) : « ينبغي لمن غفل عن الله ، الا يستبطئه في رزقه ، ولا يتهمه في قضائه »[١٢] .

وصـــل

رضا الله

قد ظهر من بعض الاخبار المذكورة : أن رضا الله ـ سبحانه ـ من العبد يتوقف على رضا العبد عنه ـ تعالى ـ ، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله ـ سبحانه ـ عنه ، وهو اعظم السعادات في الدارين ، وليس في الجنة نعيم فوقه ، كما قال ـ سبحانه ـ :

« ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر »(١٣)

وفي الحديث : « ان الله يتجلى للمؤمنين في الجنة ، فيقول لهم :سلوني فيقولون : رضاك يا ربنا !» ، فسؤالهم الرضا بعد التجلي ، يدل على أنه أفضل كل شيء . وورد في تفسير قوله ـ تعالى ـ : « ولدينا مزيد » : انه يؤتي لاهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها :

احداها : هداية الله ، ليس عندهم في الجنان مثلها ، وذلك قوله تعالى :

« فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين »(١٤)

والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فتزيد ذلك على الهدية ، وهو

---

(١٢) صححنا الاحاديث على « اصول الكافى» ج٢ ـ باب الرضا بالقضاء وعلى « سفينة البحار »:١/٥٢٤ .

(١٣) التوبة ، الآية : ٧٢

(١٤) السجدة ، الآية : ١٧

قوله ــ تعالى ــ :

« سلام قولا من رب رحيم » (١٥)

والثالثة : يقول الله ــ تعالى ــ : « اني عنكم راض »، وهو أفضل من الهدية والتسليم ، وذلك قوله ــ تعالى ــ :

« ورضوان من الله أكبر » (١٦) :

أي من النعيم الذي هم فيه .

ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له ، الا انه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلي في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة . ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه . ويروه أهل الجنة اقصى الاماني ،وغاية الغايات.

فصـــل

رد انكار تحقق الرضا

من الناس من انكر امكان تحقق الرضا في انواع البلاء وفيما يخالف الهوى ، وقال المتمكن فيهما : هو الصبر دون الرضا ، وهـــو انما اتى من ناحية انكار المحبة ،إذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لايخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب . وذلك يكون من وجهين :

احدهما ــ ان يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالألم ، حتى يجرى عليه المؤلم ولايحس به ، وتصيبه جراحة ولايدرك المها . ولا تستبعدن ذلك ، فان المحارب عند خوضه في الحرب ، وعند شدة غضبه أو خوفه ، قد تصيبه جراحة وهو لايحس بها ، فاذا رأى الدم استدل به على الجراحة ، بل الذى يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه ، ولايحس بألمها لشغل قلبه . والسر : ان القلب اذا صار مستغرقا بامر من الامور ،لم يدرك ما عداه . فالعشق المستغرق الهم بشاهدة المعشوق او بحبه،قد يصيبه ماكان يتألم به او يغتم ، لولا عشقه ، ولا يدرك المه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه ، وهذا اذا اصابه من غير حبيبه ، فكيف اذا اصابه من حبيبه .

(١٥) يس ، الآية : ٥٨
(١٦) التوبة ، الآية ٧٢

ولا ريب في أن حب الله — تعالى — اشد من كل حب ، وشغل القلب به اعظم الشواغل ، اذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لايقاس به جمال ، فمن ينكشف له شيء منها ، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، ولايحس بما يجري عليه .

وثانيهما — الا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لايحس بالالم ولا يدركه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا فيه ، مريدا له بعقله ، وان كان كارها له بطبعه ، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة ، فانه يدرك ألمه ، الا انه راض به وراغب فيه . فالمحب الخالص لله ، اذا اصابته بلية من الله ، وكان على يقين بأن ثوابها الذي ادّخر له فوق مافاته ، رضي بها ورغب فيها ، واحبها وشكر الله عليها . هذا ان كان نظره الى الثواب والاجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا ، وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق ، فضلا عن حب الخالق والجمال الازلي الابدي الذي لامنتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لايعتريها الغلط والخطأ ، فان القلوب اذا وقفت بين جماله وجلاله ، فاذا لاحظوا جلاله هابوا ، واذا لاحظوا جماله تاهوا

ويشهد بذلك حكايات المحبين ، على ماهو في الكتب مسطور ، وفي الالسنة والافواه مذكور . فان للحب عجائب ، من لم يذق طعمها لايعرفها . وقد روينا : ان اهل مصر مكثوا اربعة اشهر لم يكن لهم غذاء الا النظر الى وجه يوسف الصديق (ع) ، كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجهه ، فشغلهم جماله عن الاحساس بالم الجوع . بل في القرآن ماهو ابلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة ايديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله ، حتى ما احسسن بذلك . وروي « ان عيسى (ع) مرّ برجل اعمى وابرص ، مقعد مفلوج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من الناس فقال عيسى : ياهذا ! أي شيء من البلاء تراه مصروفا عنك ؟ فقال : ياروح الله ! انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفة ، فقال : صدقت ! هات يدك ، فناوله يده ، فاذا هو احسن الناس وجها ، وافضلهم

هيئة ، قد أذهب الله عنه ما كان به ، وصحب عيسى وتعبد به » .

فصـــل

هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا

اعلم ان الدعاء غير مناقض للرضا ، وكذلك كراهية المعاصي ، ومقت اهلها ، وحسم اسبابها ، والسعى في ازالتها بالامر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي . وقد زعمت طائفة من اهل البطالة والغرور : ان جميع ذلك يخالف الرضا ، اذ كل مايقصد رده بالدعاء وانواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره ، فيجب للمؤمن أن يرضى به . وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاما من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق ، وهذا جهل بالتأويل ، وغفلة عن اسرار الشريعة ودقائقها .

اما الدعاء ، فلا ريب في انا قد تعبدنا به ، وقد كثرت ادعية الانبياء والائمة ، وكانوا على أعلى مقامات الرضا ، وتظاهرت الآيات ، وتواترت الاخبار في الامر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه ، واثنى الله — سبحانه — على عباده الداعين ، حيث قال :

« ويدعوننا رغبا ورهبا »(١٧) . وقال « ادعوني استجب لكم »(١٧) . وقال : « أجيب دعوة الداع اذا دعان »(١٩) .

وهو يوجب صفاء الباطن ، وخشوع القلب ، ورقـة النظر ، وتنور النفس وتجليها . وقد جعله الله — تعالى — مفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر مزايا اللطف والاحسان . وهو اقوى الاسباب لافاضة الخيرات والبركات من المبادي العالية .

فان قيل : ما يرد على العبد من المـكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره ، والآيات والاخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقا ، فالتشمر لرده بالدعاء يناقض الرضا .

قلنا : ان الله — سبحانه — بعظيم حكمته ، أوجد الاشياء على التسبيب

(١٧) الانبياء ، الآية : ٩٠ .
(١٨) المؤمن ، الآية : ٦٠ .
(١٩) البقرة الآية : ١٨٦

والترتيب بينهما فربط المسببات بالاسباب ، ورتب بعضها على بعض ، وجعل بعضها سببا وواسطة لبعض آخر ، وهو مسبب الاسباب • والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من اسبابها المعينة بحسب اوقاتها ، مطابقة لما في القضاء ، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الاشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي ، مطابقة لما في العناية الالهية المسماة بالعناية الاولى والعناية عبارة عن احاطة علم الله — تعالى — بالكل على ماهو عليه احاطة تامة فنسبة القضاء الى العناية كنسبة القدر الى القضاء • ثم ، من جملة الاسباب لبعض الامور الدعاء والتصدق وأمثالهما • فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الاسباب لازالة العطش ، ولو لم يشربه لكان عطشه باقيا الى ان يؤدي الى هلاكه ، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاط الردية ، ولو لم يشربه لبقيت على حالها ، وهكذا في سائر الاسباب ، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله — تعالى — لدفع البلايا ورفعها ، ولو لم يدع لنزل البلاء ولم يندفع •

فلو قيل : لو كان في علم الله — تعالى — وفي قضائه السابق ، أن زيدا — مثلا — يدعو الله ، أو يتصدق ، عند ابتلائه ببلية كذا ، وتندفع به بليته لدعاء او تصدق ، ودفع بليته ، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلي بتلك البلية ، لم يدع الله ولم يتصدق ، ولم تندفع عنه البلية • والحاصل : ان كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الازلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، فأي فائدة في سعي العبد واجتهاده ؟

قلنا : هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبورا في فعله ونفي الاختيار عنه ، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا ، وكونه من جملة الاسباب المرتبة منه — تعالى — لحصول مسبباتها ؛ كالتزويج لتحصيل الولد ، والاكل والشرب لدفع الجوع والعطش ، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد ، وغير ذلك • ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور في موضعها •

وأما انكار المعاصي وكراهتها ، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه ، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها ، فقال :

« ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها »(٢٠) . وقال : « رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم »(٢١)

وفي بعض الاخبار : « من شهد منكرا ورضي به فكأنه قد فعله » . وفي آخر : « لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب ، كان شريكا في قتله » . وفي آخر : « ان العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه » ، قيل وكيف ذلك ؟ قال « فيبلغه فيرضى به » .

وأما بعض الكفار والفجار والفساق ، ومقتهم والانكار عليهم ، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى . قال الله سبحانه:

« لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء »(٢٢) . وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء »(٢٣) .

وفي الخبر : « ان الله أخذ الميثاق على كل مؤمن ان يبغض كل منافق » . وقال (ص) : « أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله » . وقد تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله .

فان قيل : المعاصي ان لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد ، وان كانت بقضاء الله مطلقا فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله . والآيات والاخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقا ، وذلك تناقض ، فكيف السبيل الى الجمع ؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟

قلنا : المقرر عند بعض الحكماء : أن الشرور الواقعة في العالم ، من المعاصي وغيرها ، راجعة الى الاعدام دون الموجودات ، فلا تكون مرادة له — تعالى — ، ولا داخلة في قضائه ، وعند بعضهم أنها داخلة في قضائه بالعرض لا بالذات ، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله — تعالى — بالذات . وعند بعضهم : أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة . وعلى هذا

(٢٠) يونس ، الآية : ٧ .
(٢١) التوبة ، الآية ٨٨ ، ٩٤
(٢٢) آل عمران ، الآية : ٢٨
(٢٣) المائدة ، الآية : ٥٤

فينبغي أن تكون مكروهــة من حيث ذاتها ، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاءالله والرضا به ، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة .والتحقيق: أن الاوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم ، أعني أنها راجعة الى الاعدام وداخلة في قضائه — تعالى — بالعرض ، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة . وعلى هذا فوجه الجمع اظهر . ثم لابي حامد الغزالي هنا وجــه جمع آخر ، لا يروي الغليل ولا يشفي العليل .

فان قيل : بغض أهل المعاصي ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركها ، واثبات ذلك مشكل .

قلنا : لا اشكال فيه ، اذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في افعالهم ، لا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي . فالاولى فيها السكوت ، والتأدب بآداب الشرع ،والرجوع الىما ورد من العترةالطاهرة . وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابناالمسمى بـ (جامع الافكار) .

فصــل

طريق تحصيل الرضا

الطريق الى تحصيل الرضا ، أن يعلم أن ما قضى الله — سبحانه — له هو الاصلح بحاله ، وان لم يبلغ فهمه الى سيره فيه . مع أن الســخط والكراهة لايفيد شيئا ولا يتبدل به القضاء .فان ماقدر يكون ،ومالميقدر لم يكن ، وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة ،وتبقى تبعة السخط عليه . فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالالم، كما للعاشق ، وأن يهون عليه العلم بعظم التعب والعناء — كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر — فيفوض امره الى الله ، ان الله بصير بالعباد .

تتميم

التسليم

أعلم أن التسليم ، ويسمى تفويضا أيضا ، قريب من الرضا ،بل هو فوق الرضا، لانه عبارة عن ترك الاعراض في الامور الواردة عليه،وحوالتها

بأسرها الى الله ، مع قطع تعلقه عليها بالكلية ، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقا بشيء منها • فهو فوق الرضا ، اذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه ، فالطبع ملحوظ ومنظور له ، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة الى الله — سبحانه — ، وفوق مرتبة التوكل أيضا ، اذ التوكل — كما يأتي — عبارة عن الاعتماد في اموره على الله ، فهو بمنزلة توكيل الله في اموره ، وكأنه يجعل الله — تعالى — بمثابة وكيله ، فيكون تعلقه باموره باقيا ، وفي مرتبة التسليم بقطع العلاقة من الامور المتعلقة به بالكلية • ومنهـا :

الحزن

وهو التحسر والتألم ، لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب • وهو أيضا ، كالاعتراض والانكار ، ومترتب على الكراهة للمقدرات الالهية •

والفرق : ان الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحـزن ، كما أن ضد الكراهة — أعني الحب في ضدهما — بعكس ذلك ، أي ظهوره في السرور الذي ضد الحزن اشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض • فان الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح • والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط • فالسرور فوق الرضا في الشرافة ، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والرذالـة ، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتهيات الطبيعية ، والميل الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة ، وتوقع البقاء للامور الجسمانيـة • وعلاجه : ان يعلم ان مافي عالم الكون والفساد من: الحيوان ، والنبات ، والجمـاد ، والعروض ، والاموال ، في معرض الفناء والزوال ، وليس فيها ما يقبل البقاء وما يبقى ويدوم هو الامور العقلية ، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد • واذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة ، والاماني الباطلة • فلا يتعلق قلبـه بالاسباب الدنيوية ، ويتوجـه بشراشره الى تحصيل الكمالات العقلية ، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية ، والمجاورة للانوار القادسة الثابتة ، فيصل الى مقام البهجة والسرور ، ولا تلحقه احزان

عالم الزور ، كما اشير اليه في الكتاب الالهي بقوله :

« الا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون »(٢٤)

وفي أخبار داود (ع) : « يا داود ! ما لاوليائي والهم بالدنيا ؟ ان الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، ان محبي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون » . والحاصل : أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل ، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الامور الفانية ، أو يحزن بزوالها . ولقد قال سيد الاوصياء — عليه آلاف التحية والثناء — : «مالعلي وزينة الدنيا؟وكيف افرح بلذة تفنى ،ونعيم لايبقى؟!» . بل ينبغي ان يرضى نفسه بالموجود ، ولا يغتم بالمفقود ، ويكون راضيا بما يرد عليه من خير وشر . وقد ورد في الآثار : « ان الله —تعالى — بحكمته وجلاله ، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين » ، ومن رضى بالموجود ولا يحزن بالمفقود ، فقد فاز بأمن بلا فزع ، وسرور بلا جزع ، وفرح بلا حسرة ، ويقين بلا حيرة ، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس ، فان كل حزب بما لديهم فرحون ، كالتاجر بالتجارة ، والزارع بالزراعة ، بل الشاطر بالشطارة ، والقواد بالقيادة ، مع أن ما هو السبب والموجب المفرح في الواقع ونفس الامر ليس الا لاهل السعادة والكمال وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال . فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية ، والسعادات الابدية ، ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية ، والحطام الطبيعية ، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه (ص) :

« ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى »(٢٥)

ومن تصفح فرق الناس ، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الاشياء ، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم . فالصبيان فرحهم باللعب وتهيئة اسبابه ، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم . والبالغون

(٢٤) يونس ، الآية : ٦٢ .
(٢٥) طه ، الآية : ١٣١

حد الرجولية ، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار ، وبعضهم بالضياع والعقار وآخر بالاتباع والانصار ، وفرقة بالنسوان والاولاد ، وطائفة بالحرف والصنايع ، وبعضهم بالحسب والنسب ، والآخر بالجاه والمنصب ،وبعضهم بالقوة الجسمانية ، وآخر بالجمال الصوري ، وطائفة بالكمالات الدنيوية : كالخط ، والشعر ، وحسن الصوت ، والطب ، والعلوم الغريبة ؛ وغير ذلك ؛ حتى ينتهي الى من لا يفرح الا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية وهم أيضا مختلفون ، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة ، وآخر بمعرفة حقائق الاشياء ، حتى يصل الى من ليس فرحه الا بالانس بحضرة الربوبية ، والاستغراق في لجة أنواره ، وسائر المراتب عنده فيىء زائل وخيال باطل . ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أنيفرح ويبتهج به حصول هذه المرتبة وسائر الامور ، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. فلا ينبغي للعاقل ان يحزن بفقدها ويفرح بوجودها .ثم ، من تأمل ، يجد أن الحزن ليس أمرا وجوديا لازما ،بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص فيتفسه بسوء اختياره . اذ كلما يفقد من شخص ويحزن لاجله ليس موجودا لكثير من الناس ، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلا ، ومع ذلك لاتجدهم محزونين على عدمه ، بل فرحون راضون ، ولو كان الحزن لازما لفقد هذا الامر ، لكان كل من فقده محزونا ، وليس كذلك . وايضا كل حزن يعرض لاجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور ، ولو كان الحزن لاجلها أمرا ضروريا لازما لما زال أصلا .

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الامور الدنيوية ، مع أنه يعلم أن الدنيا دار فناء ، وزخارفها متنقلة بين الناس ، ولا يمكن بقاؤها لأحد ، وجميع الاسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل الى الناس على سبيل التبادل والتناوب . ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله علىالتناوب، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم ، ثم يعطيها غيره . فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به ، اذا وصلت اليه نوبة الاستتاع ، واذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة . وما المال والاهلون الا ودائع ، ولا بد يوما أن ترد الودائع. فلا ينبغي للعاقل أن

يغتم ويحزن لاجـل رد الوديعة ، كيف والحزن بردها كفران للنعمة ؟ اذ أقل مراتب الشكر أن ترد الوديعة الى صاحبها على طيب النفس ، لا سيما اذا استرد الاخس ــ أعني الخبائث الدنيوية ــ ، وبقى الاشرف ــ اعني النفس وكمالاتها العلمية والعملية ــ، فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالامور الفانية ، حتى لا يحزن بفقدها . قال سقراط : « اني لم أحزن قط ، اذ ما احببت قط شيئا حتى أحزن بفوته ، ومن سره ألا يرى ما يسوؤه،فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا » .

ومنهـا :

عـدم الاعتماد

أو ضعفه في اموره على الله ، والوثوق بالوسائط ، والنظر اليها فيها. وسببه : اما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، أو كلاهما . فهو من رذائل الايمان ، بل هو من شعب الشرك . ولذا ورد في ذمه من الآيات والاخبار ما ورد ، قال الله ــ سبحانه ــ :

« ان الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم »(٢٦) وقال : « أن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه »(٢٧) وقال : « ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لايفقهون »(٢٨) .

وفي اخبار داود (ع) : « ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ، الا قطعت اسباب السماوات من يـديه ، واسخطت الارض من تحته ، ولم ابال بأي واد هلك » . قال رسول الله (ص) :«من اغتر بالعبيد أذله الله » . وقيل « مكتوب في التوراة : ملعون من ثقتـه بانسان مثله » . فينبغي للمؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضـده ، أعني التوكل ، كما يأتي .

وصـل

التوكل ــ فضيلة التوكل ــ درجات للتوكل ــ السعي لاينافي التوكل ــ الاسباب التي لا ينافي السعي اليها التوكل ــ اعقل وتوكل ــ درجات الناس

(٢٦) الاعراف ، الآية : ١٩٣

(٢٧) العنكبوت ، الآية : ١٧ . (٢٨) المنافقون ، الآية : ٧ .

في التوكل ـ تفنيد زعم ـ طريق تحصيل التوكل .

***

التوكل اعتماد القلب في جميع الامور على الله ، وبعبارة اخرى : حوالة العبد جميع أموره على الله ، وبعبارة اخرى : هو التبري من كل حول وقوة ، والاعتماد على حول الله وقوته . وهو موقوف على أن يعتقد اعتقادا جازما بأنه لا فاعل الا الله ، وأنه لا حول ولا قوة الا بالله وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته عناية . فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده ، ولم يلتفت الى غيره ، ولا الى نفسه اصلا . ومن لم يجد ذلك من نفسه ، فسببه اما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه . فان القلب الضعيف ينزعج تبعا للوهم ، وطاعة له من غير نقصان في اليقين ، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش ، مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور منه اضرار ، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفر عنه ، كما لا يفر من سائر الجمادات . وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل ـ مثلا ـ ، فشبه العسل بين يديه بالعذرة ، فربما نفر طبعه لضعف قلبه ، وتعذر عليه أن يتناوله ، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذر فيه . فالتوكل لا يتم الا بقوة اليقين وقوة القلب جميعا ، اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . فالسكون في القلب شيء آخر ، واليقين شيء آخر . فكم من يقين لا طمأنينة معه ، كما قال تعالى :

« أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي »(٢٩) .

فالتمس أن يشاهد احياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله ، فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره الى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون في البداية . وكم من مطمئن لا يقين له ، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة . فان اليهودي مطمئن القلب الى تهوده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهما أصلا ، وانما يتبعون الظن وما

(٢٩) البقرة ، الآية : ٢٦٠ .

تهوى الانفس •واذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب ، وارتفع بضعف احدهما ، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معا، وضده ــ اعني عدم التوكل ــ من رذائل احدهما أو كليهما • ثم ، انك قد عرفت في باب التوحيد ، أن عماد التوكل وما يبتني عليه ، عليه هو المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي أن ينكشف للعبد باشراق نورالحق، بأنه لافاعل الا هو ، وان ما عداه من الاسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية • فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل • وقد عرفت ــ ايضا ــ أن المرتبة الثانية منه ــ اعني التوحيد الاعتقادي ــ اذا قويت ربما اورثت حال التوكل ،الا أن التوكل كما ينبغي موقوف على المرتبة الثالثة منه •

فصــل

فضيلة التوكل

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين ، بــل هو أفضل درجات الموقنين • ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيهما ورد من الكتاب والسنة ، قال الله ــ تعالى ــ :

« وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين »(٣٠)

وقال :« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٣١) • وقال :« ان الله يحب المتوكلين » (٣٢) • وقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٣٣) •وقال: « ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » (٣٤) :

أي عزيز لا يذل من استجار به ، فلا يضع من لاذ بجنابه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره • وقال رسول الله (ص) : « من انقطع الى الله ، كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب • ومن انقطع الى الدنيا ، وكله الله اليها » • وقال (ص) : « من سره أن يكون

---

(٣٠) المائدة ، الآية : ٢٦

(٣١) آل عمران ، الآية : ١٢٢ ، ١٦٠ ، المائدة الآية : ١٢ ، التوبة ، الآية ٥٢ ابراهيم ، ابراهيم ، الآية : ١١ المجادلة ، الآية ١٠ التغابن الآية : ١٣ •

(٣٢) آل عمران ، الآية : ١٥٩

(٣٣) الطلاق ، الآية : ٣

(٣٤) الانفعال ، الآية : ٥٠

أغنى الناس ، فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده » • وقال (ص): «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماصا وتروح بطانا »• وعن علي بن الحسين — عليهما السلام — قال : «خرجت حتى انتهيت الى هذا الحائط ، فاتكأت عليه ، فاذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهي ، ثم قال : ياعلي بن الحسين ! مالي أراك كئيبا حزينا؟ أعلى الدنيا ؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر • قلت : ما على هذا أحزن ، وانه لكما تقول • قال : فعلى الاخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر • قلت : ما على هذا أحزن ، وانه لكما تقول • فقال : مم حزنـك ؟ قلت مما تتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس •قال : فضحك، ثم قال: ياعلي بن الحسين ! هل رأيت احدا دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا ! قال :فهل رأيت احدا توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا !قال : فهل رايت احـدا سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ! • • • ثم غاب عني »، ولعل الرجل كان هو الخضر— على نبينا وعليه السلام — وقال الصادق (ع):« اوحى الله الى دواد : ما اعتصم بى عبد من عبادى دون أحد من خلقى ، عرفت ذلك من نيته ، ثم تكيده السماوات والارض ومن فيهن ، الا جعلت له المخرج من بينهن» •وقال (ع): « ان الغنى والعز يجولان ،فاذ ظفرا بموضع التوكل اوطنا » وقال (ع) : « من اعطى ثلاثا لايمنع ثلاثا : من اعطى الدعاء اعطى الاجابة ، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية ثم قال : أتلوت كتاب الله — عزوجل — (ومن يتوكل على الله فهوحسبه) وقال : (ولئن شكرتم لأزيدنكم) ، وقال : (ادعونى استجب لكم) ؟ » وقال (ع) : « ايما عبد أقبل قبل ما يحب الله— تعالى — اقبل الله قبل مايحب ومن اعتصم بالله عصمه الله ، ومن اقبل الله قبله وعصمه ، لم يبال لوسقطت السماء على الارض ، أو كانت نازلة نزلت على أهل الارض فتشملهم بلية ، كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية ، أليس — تعالى — يقول : (ان المتقين في مقام امين)؟ » • وقال (ع) « ان الله — تعالى — يقول : وعزتى وجلالي ومجدى وارتفاعى على عرشى ! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيرى باليأس ، ولاكسونه ثوب المذلة عند الناس ، ولأنحينه من قربى

ولابعدنه من وصلي ، أيؤمل غيرى في الشدائد والشدائد بيدى ؟ ويرجو غيري ؟ ويقرع بالفكر باب غيري ، وبيدي مفاتيح الابواب وهي مغلقـة ؟ وبابى مفتوح لمن دعانى ، فمن ذا الذى املنى لنوائبه فقطعته دونها ، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ؟ جعلت آمال عبادي عنـدي محفوظة ، فلم يرضوا بحفظي ، ومـلأت سماواتي ممن لايمل من تسبيحي، وأمرتهم ألا يغلقوا الابواب بينى وبين عبادى ، فلم يثقوا بقولي ، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لايملك كشفها احد غيرى الا من بعد اذنى ؟ فما لي اراه لاهيا عنى ؟ اعطيته بجودى مالم يسألنى ، ثم انتزعته عنه فلم يسألنى رده ، وسأل غيرى ، أفترانى ابدأ بالعطاء قبل المسألة ؟ ثم اسأل فلا اجيب سائلى ؟ أبخيل أنا فيبخلنى عبدى ؟ اوليس الجـود والكرم لى ؟ أوليس العفو والرحمة بيدى ؟ أولست أنا محل الآمال ؟ فمن يقطعها دونى ؟ أفلا يخشى المؤملون ان يؤملوا غيرى ؟ فلو ان اهل سماواتى واهل ارضى أملوا جميعا ، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ماامل الجميع ، ما انتقص من ملكى مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك انا قيمه ؟فيا بؤسا للقانطين من رحمتى ! ويابؤسا لمن عصانى ولم يراقبنى ! [٣٥]

فصـــل

درجات التوكل

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات :

الاول ـ ان يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحاله بالثقة بالوكيل ، وهذه اضعف الدرجات ، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة ،ولا ينافي اصل التدبير والاختيار ، بل ربما زاول كثيرا من التدبيرات بسعيـه واختياره . نعم ينافي بعض التدبيرات ، كالتوكل على وكيله في الخصومة ، فانه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل ،ولكن لا يترك التدبير الذي أشار اليه

(٣٥) صححنا الاحاديث على « اصول الكافى » : ج٢ ، باب التفويض الى الله والتوكل عليه وعلى «البحار» : باب التوكل والتفويض والرضا : مج ١٥ ١٥٣/٢ ، ط «امين الضرب» . وللعلامة (المجلسى)ـ قدس سره ـ فى الموضع المذكور ، فى الحديث الخامس ، تحقيق دقيق وبيان لطيف ، لايسع المقا ذكره هنا ، فمن اراد الوقوف عليه ، فعليه بمراجعة الموضع المذكور .

وكيله ، ولاالتدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون تصريح اشارته .

الثانية — ان تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه ، فانه لايعرف غيرها ، ولايفزع الا اليها ، ولايعتمد الا عليها . فان رآها تعلق في كل حال بذيلها ، وان ورد عليه امر في غيبتها كان اول سابق لسانه ياماه ! . والفرق بين هذا وسابقه ، ان هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله ، اى ليس يلتفت قلبه الى التوكل ، بل التفاته انما هو الى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . واما الاول فتوكل بالكسب والتكلف ، وليس فانيا عن توكله ، اى له التفات الى توكله ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . وهذا أقل وقوعا ودواما من الاول اذحصوله انما هو للخواص ،وغاية دوامه ان يدوم يوما او يومين ، وينافي التدبيرات، الا تدبير الفزع الى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط .

الثالثة — وهى اعلى الدرجات ، ان يكون بين يدى الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، بان يرى نفسه ميتا ، وتحركه القدرة الازلية كما يحرك الغاسل الميت . وهو الذى قويت نفسه ، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد . والفرق بينه وبين الثانى ، ان الثانى لايترك الدعاء والتضرع ، كما ان الصبى يفزع الى امه ، ويصيح ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها ،وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته ،فهذا مثال صبي علم انه ان لم يرض بامه ،فالام تطلبه ،وان لم يتعلق بذيلها فهي تحمله ، وان لم يسأل اللبن فهى تسقيه . ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل(ع) لماوضع في المنجنيق ليرمى به الى النار ، واشار اليه روح الامين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله سبحانه — فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالى » . وهذا نادر الوقوع ، عزيز الوجود ، فهو مرتبة الصديقين ،واذا وجد فدوامه لايزيد على صفرة الوجل ، او حمرة الخجل ، وهو ينافي التدبيرات مادام باقيا ، اذ يكون صاحبه كالمبهوت . ثم ، توكل العبد على الله قد يكون في جميع اموره ، وقد يكون في بعضها . وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها . وقال الكاظم (ع) في قوله

عزوجل :

((ومن يتوكل على الله فهو حسبه))٣٦

التوكل على الله درجات ،منها ان تتوكل على الله في امورك كلها فما فعل بك كنت عنه راضيا ، تعلم انه لايألوك خيرا وفضلا ، وتعلم ان الحكم في ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه ، وثق به فيها وفي غيرها. ولعل سائر درجات التوكل ان يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض ، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها .

فصل

السعي لاينافي التوكل

اعلم ان الامور الواردة على العباد اما ان تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم ، بمعنى انه لاتكون لها اسباب ظاهرة قطعية او ظنية لجلبها اودفعها او تكون لها اسباب جالبة لها او دافعة اياها ، الا ان العبد لا يتمكن منها. فمقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفيـة ، وحوالتها على رب الارباب ، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات ، لكان خارجا عن التوكل راسا ، او لاتكون خارجة عن قدرتهم ، بمعنى ان لها اسبابا قطعية او ظنية يمكن للعبد ان يحصلها ويتوصل بها الى جلبها او دفعها .فالسعي في مثلها لاينافي التوكل ، بعد ان يكون وثوقه واعتمـاده بالله دون الاسباب . فمن ظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالعقل رأسا ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة ، فقد ابعد عن الحق ، لان ذلك محرم في الشرع الاقدس ، فان الشارع كلف الانسان بطلب الرزق بالاسباب التى هداه الله اليها ، من زراعـة ، او تجارة ، او صناعة ، او غير ذلك مما احله الله ، وبابقاء النسل بالتزويج ، وكلفه بان يدفع عن نفسه الاشياء المؤذية بالتوسل الى الاسباب المعينة لدفعها . وكما ان العبادات امور امر الله ــ تعالى ــ عباده بالسعى فيها ، ليحصل لهم بها التقرب اليه والسعادات في دار الاخرة ،فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والالم عن النفس والاهل والعيال امور امرهم الله ــ تعالى ــ ليحصل لهم

(٣٦) الطلاق ، الآية : ٣

بها التوسل الى العبادات وما يؤدي الى التقرب والسعادة. ولكنه ـ سبحانه ـ كلفهم ايضا بالا يثقوا الا به، ولا يعتمدوا على الاسباب. كما انه ـ سبحانه ـ كلفهم بالا يتكلوا على اعمالهم الحسنة ، بل على فضله ورحمته . فمعنى التوكل المأمور به في الشريعة : اعتماد القلب على الله في الامــور كلها ، وانقطاعه عما سواه . ولا ينافيه تحصيل الاسباب اذا لم يسكن اليها ، وكان سكونه الى الله ـ سبحانه ـ دونها مجوزا في نفسه ان يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب ، دون هذه الاسباب التي حصلها ، وان يقطع الله هذه الاسباب عن مسبباتها .

فصـــل

الاسباب التى لاينافى السعى اليها التوكل

الاسباب التى لاينافي تحصيلها ومزاولتها للتوكل ، هى الاسباب القطعية او الظنية ، وهى التى يقطع او يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطا مطردا لايتخلف عنها ، سواء كانت لجلب نفع او لدفع ضر منتظر او لازالة آفة واقعة ، وذلك كمد اليد الى الطعام للوصول الى فيه ، وحمل الزاد للسفر ، واتخاذ البضاعة للتجارة ، والوقاع لحصول الاولاد ، واخذ السلاح للعدو ، والادخار لتجدد الاضطرار ، والتداوى لازالة المرض ، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل ، وغلق الباب ، وعقل البعير ، وترك الطريق الذى يقطع اويظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه ... وقس عليها غيرها .

واما الاسباب الموهومة ، كالرقية ، والطيرة ، والاستقصاء في دقائق التدبير ، وابداء التمحلات لأجـل التبديل والتغيير ، فيبطل بها التوكل ، لان امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء ، وليست مما امر الله ـ تعالى ـ بها ، بل ورد النهي عنها ، على ان المأمور بـه الاجمال في الطلب وعـدم الاستقصاء قال رسول الله (ص) : « الا ان الروح الأمين نفث في روعى : أنه لاتموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ـ تعالى ـ واجملوا في طلب ». وقـال (ص) : « ماأجمـل في الطلب من ركب البحر » . وقال الصادق (ع) : « ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع ، ودون طلب

الحريص، الراضي بدنياه، المطمئن اليها، ولكن انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ؛ ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتكتسب مالابد منه ، ان الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لامال لهم » . وقال (ع) : « اذا فتحت بابك ، وبسطت بساطك ، فقد قضيت ماعليك » .

فصل

اعقل وتوكل

اعلم ان التوكل لايبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة ، مع ان الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك ، لان الله — سبحانه — ربط المسببات بالاسباب ، وأبى ان يجرى الاشياء الا بالاسباب . ولذا لما اهمل الاعرابى بعيره ، وقال : توكلت على الله ، قال له النبى (ص) : اعقلها وتوكل » . وقال الصادق (ع) : اوجب الله لعباده ان يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التى سببها لذلك وامرهم بذلك » . وقال الله — تعالى :

« خذوا حذركم »(٢٧) . وقال في كيفية صلاة الخوف : « وليأخذوا حذرهم واسلحتهم » ٢٨ وقال : « وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ٣٩ . وقال لموسى : « فاسر بعبادي ليلا » ٤٠ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الاعداء دفعا للضرر .

وفي الاسرائيليات : ان موسى بن عمران (ع) اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو اسرائيل ، فعرفوا علته ، فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لااتداوى حتى يعافنى الله من غير دواء . فطالت علته ، فاوحى الله اليه : وعزتى وجلالى ! لاابرؤك حتى تتداوى بماذكروه لك . فقال لهم داوونى بما ذكرتم . فداووه ، فبرىء . فاوجس في نفسه من ذلك فاوحى الله تعالى اليه : اردت ان تبطل حكمتى بتوكلك علي ، فمن اودع العقاقير منافع الاشياء غيرى ؟ » . وروى : « ان زاهدا من الزهاد ، فارق الامصار واقام في سفح جبل ، فقال : لااسال شيئا حتى يأتينى ربى برزقى . فقعد سبعا ، فكاد

---

(٣٧) النساء ، الآية : ٧٠
(٣٨) النساء، الاية : ١٠١
(٣٩) الانفال ، الاية : ٦١ .
(٤٠) الدخان الآية : ٢٣

يموت ، ولم يأته رزق ، فقال : يارب ! ان احييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي ، والا فاقبضني اليك . فاوحى الله تعالى اليه : وعزتي وجلالي لاارزقك حتى تدخل الامصار ، وتقعد بين الناس . فدخل المصر فأقام ، فجاء هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فاكل وشرب فاوجس في نفسه ذلك ، فاوحى الله اليه : أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا ، أما علمت اني ارزق عبدي بايدي عبادي احب الي من أن ارزقه بيد قدرتي ؟» .

فصل

درجات الناس في التوكل

اعلم أن درجات الناس ـ كما عرفت ـ في التوكل مختلفة ، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه ، وفي قوة التوحيد وضعفه :

فمنهم: من كمل ايمانه ويقينه، بحيث سقط وثوقه عن الاسباب بالكلية، وتوجه بشراشره الى الواحد الحق ، ولا يرى مؤثرا الا هو ، وليس نظره الى غيره اصلا ، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته ، بحيث لايختلج بباله احتمال أن يكله ربه الى غيره ، ولا يعتري نفسه اضطراب اصلا . فلا بأس لمثله أن يعرض عن الاسباب المقطوعة او المظنونة بالكلية ، لان الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح اموره ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، سواء حصل الاسباب أم لا ، وسواء كسب أم لم يكتسب ، الا انه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع امر الله فيه ، الا انه ليس وثوقه الا بالله دون السبب والكسب . وما ورد من حكايات بعض الكمل من الاولياء ، من أنهم يسافرون في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله ، ويصل اليهم الرزق ، أولا يتحرزون من السباع الضارة ، أو يغلظون القول بالنسبة الى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة ، اعتمادا على الله ، والله ـ سبحانه ـ ينجيهم منهم ، كانوا منهم : أي من الكاملين في التوكل . قال الصادق (ع): «أبى الله ـ عز وجل ـ أن يجعل ارزاق المؤمنين الا من حيث لايحتسبون» . وانما خصه بالمؤمنين ، لان كمال الايمان يقتضي ألا يثق صاحبه بالاسباب وأن يتوكل على الله ـ عز وجل ـ وحده . وكمال الايمان انما يكون

لصاحب العلم المكنون من الانبياء والاولياء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومنهم : من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حدا تغيب عن نظره الاسباب والوسائط ، ويكون مقصور الالتفات الى جناب الحق . فهذا هو الذي لاينبغي له أن يعرض عن الاسباب ويتركها ، لان مثله ليس له المظنة التي توصله الى المقصد بدون الوسائط : اعني قوة التوكل على الله واليقين بـه سبحانه .

فصل

تفنيد زعم

بعض الناس زعم : أن حق التوكل أن يكتفي بالاسباب الخفية عن الاسباب الجلية ، كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ، بعد أن راض نفسه على جوع الاسبوع وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب ، واضطراب نفس ، وتشويش خاطر ، وفتور في ذكر الله ، وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له ، وان يوطن نفسه على أنه ان مات جوعا كان خيرا له في الآخرة .

وكأن يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب ، ويتفرغ للعبادة والفكر والذكر ، واستغراق وقته بها ، بحيث لا يستشرف نفسه الى الناس في انتظاره ومن يدخل فيحمل اليه شيئا ، بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله . وهذا محض الخطأ ، اذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الاسبوع ، ويمكنه التقوت بالحشيش ، صارت الاسباب له جلية . فان عدم الحاجة احد الغنائين . ثم ان كان اعتماده ـ حينئذ ـ على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش ، فاين التوكل ؟ وان كان وثوقه بالله وحده ، فليقم في بلده مع الاسباب ، كما أمر الله بـه في الشرع . وأما توطين نفسه باختياره على الموت ، فممنوع عقلا ، ومحرم شرعا . قال الله ـ سبحانه ـ :

« ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة » (٤١)

---

(٤١) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

وأما الجالس في بيته ، التارك لكسبه ، يعبد الله من دون طلب ، فهو أيضا قد ترك متابعة امر الله . قال الصادق (ع) : « ان من يقوته أشد عبادة منه » . وربما يكون مثله كلا على الناس ، فان حاله ينادي بالبؤس واليأس ، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل . وبالجملة لامدخل لخفاء الاسباب وجلائها في التوكل ، بعدما تقرر ان معناه الثقة بالله وحده ، لا بالاسباب ، فسواء وجود الاسباب وفقدها وجلاؤها وخفاؤها.

فصل

طريق تحصيل التوكل

الطريق الى تحصيل التوكل ـ بعد تقوية التوحيد والاعتقاد ، بأن الامور باسرها مستندة اليه سبحانه ، وليس لغيره مدخلية فيها ـ ان يتذكر الآيات والاخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه ، وكونه باعث النجاة والكفاية ، ثم يتذكر أن الله ـ سبحانه ـ خلقه بعد أن لم يكن موجودا ، واوجده من كتم العدم ، وهيأ له ما يحتاج اليه ، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها ، وقد ضمن بكفاية من توكل عليه ، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته ، ولا يوصل اليه ما يحتاج اليه ، ولايدفع عنه مايؤذيه ، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو . وينبغى ان يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الارزاق الى صاحبها وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عبيده ، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك اموال الاغنياء واذلال الاقوياء ، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة ، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجا ، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزا ذليلا بلا سبب ظاهر ، وكم من ذليل عاجز صار قويا واستولى على الكل. ومن تأمل في ذلك ، يعلم أن الامور بيد الله ، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به . والمناط أن يعلم ان الامور لو كانت بقدرة الله ـ سبحانه ـ من غير مدخلية للاسباب والوسائط فيها ، فعدم التوكل عليه ـ سبحانه ـ والثقة بغيره غاية الجهل ، وان كانت لغيره ـ سبحانه ـ من الوسائط والاسباب مدخلية ، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وانجاح الامور ، اذ السمع

والتجربة شاهدان بأن من توكل عليه وانقطع اليه كفاه الله كل مؤنة • فكما أن شرب الماء سبب لازالة العطش ، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع ،فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الاسباب لانجاح المقاصد وكفاية الامور •وعلامة حصول التوكل ، ألا يضطرب قلبه ، ولا يبطل سكونه بفقد اسباب نفسه وحدوث اسباب ضره • فلو سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته ، اوتعوق أمر من أموره ، كان راضيا به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم تضطرب نفسه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا • فان من لم يسكن الى شيء لم يضطرب بفقده ، ومن أضطر لفقد شيء فقد سكن اليه واطمأن به •

ومنهـا :

الكفران

وضده الشكر

الشكر ــ فضيلة الشكر ــ الشكر نعمة يجب شكرها ــ المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه ــ اقسام النعم واللذات ــ الاكل ــ لا فائــدة في الغذاء مالم يكن بشهوة وميل ــ عجائب المأكولات ــ حاجة تحضير الطعام الى آلاف الاسباب ــ تسخير الله التجار لجلب الطعام ــ نعم الله في خلق الملائكة للانسان ــ الاسباب الصارفة للشكر ــ طريق تحصيل الشكر ــ الصحة خير من السقم •

❊❊❊

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر ، وكونــه متعلقا بأي القوى ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى •

فنقول : الشــكر هو عرفان النعمة من المنعم ، والفرح به ، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير ، والتحميد للمنعم ، واستعمال النعمة في طاعته• أما المعرفة ، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله ، وأنه هو المنعم ، والوسائط مسخرات من جهته • ولو انعم عليك أحد ، فهو الذي سخره لك ، وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا الى الايصال اليك ، فمن عرف ذلك ، حصل أحد اركان الشكر لله ، وربمـا كان مجرد ذلك شكرا ، وهو الشكر بالقلب • كما روى : « أن موسى قال في مناجاته :الهي

خلقت آدم بيدك ، واسكنته جنتك ، وزوجته حواء أمتك ، فكيف شكرك؟ فقال : علم أن ذلك منى ، فكانت معرفته شكرا » .

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد ، وهما داخلان فيها . اذ التقديس تنزيهه - سبحانه - عن صفات النقص ، والتوحيد قصر المقدس عليه ، والاعتراف بعدم مقدس سواه وهذه المعرفة هى اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه ، والكل نعمة منه ، فينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « من قال : سبحانه الله ، فله عشر حسنات ، ومن قال : لا اله الا الله ، فله عشرون حسنة ، ومن قال : الحمد لله ، فله ثلاثون حسنة » . فسبحان الله : كلمة تدل على التقديس ، ولااله الاالله : كلمة تدل على التوحيد ، والحمد لله : كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق . ولا تظن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها ، بل هي بازاء الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من ابواب الايمان واليقين . واما الفرح بالمنعم ، مع هيئة الخضوع والتواضع ، فهو ايضا من اركان الشكر . بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه ، فهو ايضا في نفسه شكر بالقلب ، وانما يكون شكرا اذا كان فرحه بالمنعم او بالنعمة لامن حيث انه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا ، بل من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب من المنعم ، والنزول في جواره ، والنظر الى وجهه على الدوام . وأمارته ألا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة الآخرة ومعينة عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله ، لانه ليس يريد النعمة لذاتها ، بل من حيث انها توصله الى مجاورة المنعم وقربه ولقائه . وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح . أما المتعلق بالقلب فقصده الخير واضماره لكافة الخلق . وأما المتعلق باللسان فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه . وأما المتعلق بالجوارح ، فاستعمال نعم الله في طاعته و لتوقي من الاستعانة بها على معصيته حتى أن من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم ، ومن جملة شكر الاذنين

أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم ، فيدخل هذا وأمثاله في جملة شكر نعمة هذه الاعضاء . بل قيل : من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لاجله كفر نعمة الشمس ايضا ، اذ الابصار انما يتم بها ، وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويقي بهما ما يضره فيهما . بل المراد من خلق السماء والارض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين بها على الوصول الى الله ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به في الدنيا ، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها ، ولا انس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولايمكن الذكر والفكر الابقاء البدن ، ولايبقى البدن الا بالارض والماء والهواء والنار ، ولا يتم ذلك الا بخلق الارض والسماء وخلق سائر الاشياء وكل ، ذلك لاجل البدن . والبدن مطية النفس . والنفس الراجعة الى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة . فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التى لابد منها لاقدامه على تلك المعصية . واذا عرفت حقيقة الشكر ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران ، فانه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله ، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها الى القرب منه ، او ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم ، أو استعمالها فيما يكرهه .

ثم ، بما ذكرناه ، وان ظهر أن حقيقة الشكر ملتئمة من الامور الثلاثة، الا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد ايضا ، كما قال الصادق (ع) : « شكر كل نعمة ، وان عظمت ، أن تحمد الله » ، وقال (ع) : « شكر النعم اجتناب المحارم ، وتمام الشكر قول الرجل : الحمد لله رب العالمين». وسئل عنه (ع) : « هل للشكر حد اذا فعله العبد كان شاكرا ؟ قال : نعم! قيل : ما هو ؟ قال : يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وان كان فيما انعم عليه في ماله حق أداه . ومنه قوله — جل وعز — :

« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ٤٢ . ومنه قولهتعالى « رب انزلنى منزلا مباركا وانت خير المنزلين » ٤٣ . وقوله : « رب أدخلنى

---

(٤٢) الزخرف ، الآية : ١٣

(٤٣) المؤمنون ، الايه : ٢٩ .

مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا»)٤٤

وقال (ع) : « كان رسول الله (ص) اذا ورد عليه أمر يسره ، قال : الحمد لله على هذه النعمة . واذا ورد عليه أمر يغتم به ، قال : الحمد لله على كل حال » . وقال (ع) . « اذا أصبحت وأمسيت ، فقل عشر مرات : اللهم ما اصبحت بي من نعمة او عافية في دين أو دنيا ، فمنك وحدك لاشريك لك لك الحمد ولك الشكر بها علي يارب ، حتى ترضى وبعد الرضا . فانك اذا قلت ذلك ، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة » . وفي رواية : « كان نوح (ع) يقول ذلك اذا أصبح ، فسمى بذلك عبدا شكورا » . وقال (ع) : « اذا ذكر أحدكم نعمة الله ، فليضع خده على التراب شكرا لله ، فان كان راكبا فلينزل وليضع خده على التراب وان لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه [٤٥] ، وان لم يقدر فليضع خده على كفه ، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه » . وروي: « ان الصادق (ع) قد ضاعت دابته ، فقال : لئن ردها الله علي لاشكرن الله حق شكره » قال الراوى : فما لبث ان اتى بها ، فقال: « الحمد لله ». فقال قائل له جعلت فداك ! أليس قلت لأشكرن الله حق شكره ؟ فقال ابو عبد الله (ع) « ألم تسمعني قلت : الحمد لله ؟»[٤٦] . ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله ؛ ولذا أمر به . وقد كان السلف يتساءلون بينهم ؛ ونيتهم استخراج الشكر لله ، ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل . وقد روي: « أن الرسول الله (ص) قال لرجل : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير . فأعاد عليه السؤال فأعاد عليه الجواب ، فأعاد السؤال ثالثة ، فقال : بخير، أحمد الله واشكره . فقال (ص) : هذا الذي أردت منك » .

(تنبيه) لا ريب في أن الجزء الاول من الشكر ـ اعني معرفة النعم من الله ـ من متعلقات العاقلة وفضائلها . والثاني ـ اعني الفرح للنفس ـ

(٤٤) الاسراء ، الآية : ٨٠ .

(٤٥) القربوس ـ بفتحتين ـ : حنو السرج ، اى قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره .

(٤٦) هذه الرواية مذكورة فى «اصول الكافى» :ج٢ـ باب الشكر . وفى «الوافى» :٣٢٤/٣ ـ باب الشكر . الا ان المنقول فى نسخ «جامع السعادات» فيه اختلاف كثير عما فى الموضعين فصححناها عليهما .

ان كان من النعم العقلية الروحانية ، يكون متعلقا بالعاقلة ايضا ، وان كان لاجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء ـ مثلا ـ على عدو ظالم ، يكون متعلقا بالقوة الغضبية ، وان كان من نعمة المال والاولاد ، يكون متعلقا بالقوة الشهوية . والجزء الثالث ـ اعني العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم ـ فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته .وبهذا يظهر : أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث ، والاول من فضائلها اذا امتزجت وتسالمت ، والثانى من رذائلها .

فصل

فضيلة الشكر

الشكر أفضل منازل الابرار ، وعمدة زاد المسافرين الى عالم الانوار . وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء . وقد ورد به الترغيب الشديد ، وجعله الله سببا للمزيد . قال الله ـ سبحانه ـ :

«ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » ٤٧ . وقال : «لئن شكرتم لازيدنكم » ٤٨ وقال : فاذكرونى اذكركم واشكروا لي ولاتكفرون» ٤٩. وقال « وسنجزى الشاكرين »٥٠.

ولكونه غاية الفضائل والمقامات ، ليس لكل سالك أن يصل اليه ، بل ليس الوصول اليه الا لأوحدي من كمل السالكين . ولذا قال الله رب العالمين :

« وقليل من عبادى الشكور » ٥١ وكفى به شرفا وفضلا ، انه خلق من اخلاق الربوبية ، كما قال الله ـ سبحانه ـ : « والله شكور حليم »١ .وهو فاتحة كلام اهل الجنة وخاتمته ، كما قال الله ـ تعالى ـ : « وقالوا الحمد

---

(٤٧) النساء ، الآية : ١٤٦

(٤٨) ابراهيم ، الآية : ٧ .

(٤٩) البقرة ، الآية : ١٥٢

(٥٠) آل عمران ، الآية : ١٤٥

(٥١) سبا ، الآية : ١٣

(١) التغابن ، الآية : ١٧ .

لله الذى صدقنا وعده » ٢ . وقال :«وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين»٣

وقال رسول الله (ص) : « الطاعم الشاكر ، له من الاجر كأجر الصائم المحتسب . والمعافى الشاكر ، له من الاجر كأجر المبتلي الصابر . والمعطي الشاكر ، له من الاجر كأجر المحروم القانع » . وقال (ص) : « ان للنعم أوابد كأوابد الوحش ، فقيدوها بالشكر » . وقال (ص) : « ينادي مناد يوم القيامة : ليقوم الحمادون ! فيقوم زمرة . فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » فقيل : من الحمادون ؟ فقال : « الذين يشكرون الله على كل حال» وقال السجاد (ع) : « ان الله — سبحانه — يحب كل عبد حزين ، ويحب كل عبد شكور » . وقال الباقر (ع) : « كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها ، فقالت : يا رسول الله ! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال : ياعائشة ! ألا اكون عبدا شكورا ؟ . . .

قال : وكان يقوم على أطراف اصابع رجليه ، فأنزل الله — تعالى — :طه! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » . وقال الصادق (ع) : « ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهرا بلسانه ، فتم كلامه ، حتى يؤمر له بالمزيد » . وقال (ع) : « ثلاث لايضر معهن شيء : الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة » [٤] . وقال (ع) : « في كل نفس من انفاسك شكر لازم لك ، بل الف أو أكثر ، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله — تعالى — من غير علة يتعلق القلب بها دون الله —عزوجل— أو الرضا بما اعطى ، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من امره ونهيه بسبب نعمته . فكن لله عبدا شاكرا على كل حال ، تجد الله ربا كريما على كل حال ، ولو كان عند الله — تعالى — عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال ؛ لاطلق لفظة منهم على جميع الخلق بها ؛ فلما لم يكن افضل منها ، خصها من بين العبادات ، وخص أربابها ؛ فقال :

---

(٢) الزمر ، الآية : ٧٤
(٣) يونس الآية : ١٠

(٤) صححنا الاحاديث على « اصول الكافي » : ج ٢ ، باب الشكر . وعلى (البحار) : مج ١٥ : ٢/١٣٢ — ١٣٥ ، باب الشكر .

(وقليل من عبادي الشكور) • وتمام الشكر الاعتراف بلسان السر ، خاضعا لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره ، لان التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها ، وهي اعظم قدرا وأعز وجودا من النعمة التي من أجلها وفقت له ؛ فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه ، الى مالانهاية له ، مستغرقا في نعمه ، قاصرا عاجزا عن درك غاية شكره ، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله ، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه ، والعبد الضعيف لا قوة له أبدا الا بالله — عزوجل — ، والله غني عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الابد ، فكن لله عبدا شاكرا على هذا الاصل ، ترى العجب»[٥] •

ثم كما ان الشكر من المنجيات الموصلة الى سعادة الابد وزيادة النعمة في الدنيا ، فضده اعني الكفران — من المهلكات المؤدية الى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم • قال الله — سبحانه — :

« فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف »[٦] • **وقال تعالى « ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم »** [٧]

وقال الصادق (ع) :« اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك ، فانه لا زوال للنعماء اذا شكرت ، ولا بقاء لها اذا كفرت • الشكر زيادة في النعم ، وامان من الغير ، أي من التغيير » •

فصل

الشكر نعمة يجب شكرها

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله،فالشكر على كل نعمة على أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته • ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضا نعمة من الله ، اذ جميع ما يتعاطاه باختيارنا نعمة من الله ، لان جوارحنا ، وقدرتنا ، وارادتنا ، ودواعينا ، وافاضة المعارف علينا ،وسائر الامور التي هي اسباب حركاتنا ، بل نفس حركاتنا ، من الله • وعلى هذا ، فالشكر على كل نعمة

---

(٥) صححنا الحديث على « مصباح الشريعة » : الباب السادس . وعلى « سفينة البحار » ١/٧١٠

(٦) النحل الآية : ١١١

(٧) الرعد الآية : ١٢

نعمة اخرى من الله يحتاج الى شكر آخر ، وهو أن يعرف أن هذا الشكر أيضا نعمة من الله — سبحانه — ، فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه .وهذه المعرفة والفرح تحتاج الى شكر آخر . وهكـذا ، فلابد من الشـكر في كل حال ، وليس يمكن ان تنتهي سلسلة الشكر الى مالا يحتاج الى شكر. فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن اداء حق شكره — تعالى —،اذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم ، حتى شـكره من الله وهـذا غاية ما يمكن للعبد . ويشهد بذلك ما روي : « أن الله — عز وجل — أوحى الى موسى (ع) : يا موسى ! اشكرني حق شكري . فقال : يارب! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به الا وأنت انعمت به على ؟ قال : يا موسى ! الآن شكرتني ، حيث علمت أن ذلك مني » . وكذلك أوحى ذلك الى داود ، فقال : « يارب ! كيف اشكرك وانا لا استطيع أن اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك » . وفي لفظ آخر : « وشكري لك نعمة اخرى منك ويوجب علي الشكر لك ، فقال : اذا عرفت هذا فقد شكرتني » . وفي خبر آخر : « اذا عرفت ان النعم منى ، رضيت عنك بذلك شكرا » .وروي : « أن السجاد (ع) كان اذا قرأ هذه الآية (وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) يقول : سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه الا المعرفة بالتقصير عن معرفتها !» .كما لم يجعل في أحد من معرفة ادراكه اكثر من العلم انه لايدركه فشكره — تعالى — معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره ، فجعـل معرفتهم بالتقصير شكرا ، كما علم علم العارفين بأنهم لايدركونه ،فجعله ايمانا علما منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك ، فان شيئا من خلقه لايبلغ مدى عبادته ، فكيف يبلغ مدى عبادته من لامـدى له ولا كيف ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وقال ابو الحسن (ع) :« من حمد الله على النعمة فقد شكره ، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة »[٨] ، يعني انه نعمة فوق تلك النعمة ، يستدعي شكرا آخر .

---

(٨) صححنا الروايات على «اصول الكافي» ج٢ ، بـاب الشكر . وعلى «الوافي» ٣/٣٢٤ باب الشكر

فصــــل

المدرك لتمييز محاب الله عن مكارهه

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه ، والكفران عبارة عن نقيض ذلك — اعني ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه — فلابد من معرفةما يحبه وما يكرهه ، وتمييز محابه عن مكارهه ، حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران ، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما . وهذا التمييز والتعريف له مدركان :

أحدهما — الشرع ، فانه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه ، عبر عن الاول بالواجبات والمندوبات ، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات . فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لم يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر .

وثانيهما — العقل والنظر بعين الاعتبار ، فان العقل متمكن — في الجملة — من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات . فان الله سبحانه ما خلق شيئا في العالم الا وفيه حكم كثيرة ، وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة ، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله تعالى . فمن أستعمل كل شيء على النحو الذي يؤدى الى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله تعالى ، وان استعمل شيئا على النحو الذي لم يؤد الى المقصود منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها ، فقد كفر نعمة الله » .

ثم العقل لايتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء ، اذ الحكم المقصودة من الاشياء ، اما جلية أو خفية . أما الجلية : كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس ، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار ، وحكمة انشقاق الارض بأنواع النبات في وجود الغيم ونزول الامطار ، وحكمة الابصار في العين ، والبطش في اليد ، والمشى في الرجل ، وحصول الاولاد ، وبقاء النسل في آلات التناسل وخلق الشهوة ، وحكمة المضغ والطحن في خلق الاسنان وأمثال ذلك . وأما الحكم الخفية : كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة ، وأختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص ، والحكم التي في بعض الاعضاء الباطنية للحيوان ، من

الامعاء والمرارة والكلية وأحاد العروق والاعصاب والعضلات ، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك . فهذه الحكم وأمثالها لايعرفها كل أحد ، ومن يعرف منها شيئا فلا يعرف الا قدرا يسيرا . فان جميع أجزاء العالم ، سماءه وكواكبه ، وما فيها من الاوضاع والحركة والاختصاصات ، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض ،وما فيها من البحار والجبال والرياح ، والمعادن والنبات والحيوان، لاتخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة الى الف او اكثر ، وقليل منها جلية ، وأكثرها دقيقة خفية ، وبعضها متوسطة في الجلاء والخفاء ، يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والارض ، وأكثر الحكم الدقيقة مما لايعرفها غير خالقها وموجدها . ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية ، الروحانية والجسمانية ، جارية على وفق الحكمة ، ومستعملة ذواتها واجزاؤها وما يتعلق بهاعلى الوجه الذي هو مقتضىالمصلحة المقصودة منها واماالانسان فلكونهمحل الاختيارومجراه فقديجرى ويستعملالاشياءالتي يتمكن من أستعمالها على خلاف ذلك ، فيكون كافرا بنعمة الله سبحانه . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد ، اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويأخذ ما ينفعه ، لاليهلك به غيره . ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ، لانها خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقى بها ما يضره فيهما . ومن أدخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر نعمة الله فيهما ، لانهما حجران لا منفعة ولا عوض في أعيانهما ، وانما خلقهما الله تعالى ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الاموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة ، فهما عزيزان في أنفسهما . ولا غرض في اعينهما . ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنه ملك ، كل شيء لاكمن ملك ثوبا ، فانه لايملك الا الثوب . فان أحتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، اذ لاغرض له في ذاته ، بخلاف النقدين ، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء ، ومن حيث المعنى كأنهما كل الشيء . والاشياء انما تستوى نسبتها الى المختلفات ـ اذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها

بخصوصها — كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون ، وكالحرف لامعنى لها في نفسها ، بل تظهر لها المعاني في غيرها ، وكذلك النقدان ، لاغرض فيهما مع كونهما وسيلة الى كل غرض . فالحكمة فيخلقهما أن يحكما بين الاموال بالعدل ، وتعرف بهما المقادير المختلفة ، وتقوم بهما الاشياء المتباينة ، ويحصل التوسل بهما الى سائر الاموال ، فيلزم اطلاقهما لتداولهما الايدي ، وتحصل بهما التسوية في تبادل الاعيان والمنافع المتخالفة ، فمن أدخرهما وحبسهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكفر نعمة الله فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن ، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل الىما يحتاج ، وانفق الزائد في سبيل الله ، فهو الذي أستعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما . ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الاسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتهما وحكمتهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، أخبرهم الله عن ذلك بقوله :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ٩

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما ، يظهر أن من أتخذ الاواني منهما فقد كفر نعمة الله فيهما أيضا ، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم ، لانهما انما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما ، اذ لاغرض في عينيهما ، فاذا أتجر فيعينهما فقد اتخذهما مقصودا لأنفسهما علىخلاف وضع الحكمة ، وكذلك الحكمة في خلق الاطعمة أن يغتذى بها ، فلا ينبغي ان تصرف عن جهتها وتقيد في الايدي ، بل اللازم ان تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج . ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الاطعمة ، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها . واذا عرفت ذلك ، فقس عليه جميع أفعالك وأعمالك وحركاتك وسكناتك ، فان كل فعل يصدر منك اما شكر أو كفران لايتصور أن ينفك عنهما ، مثلا لو أستنجيت باليمين ، فقد كفرت نعمة اليدين ، اذ خلق الله اليدين وجعل

(٩) التوبة ، الآية : ٣٥

احداهما أقوى ، واستحق الاقوى لرجحانه التفضيل ، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل ، وهذا التفضيل انما يتصور بأن تصرفه الاقوى في الافعال الشريفة ، كأخذ المصحف وأكل الطعام ، وتصرف الاضعف في الاعمال الخسيسة ، كازالة النجاسة ، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة ، وكذلك اذا لبست خفك فأبتدأت باليسرى فقد ظلمت، لأن الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ؛ والبداءة في الحظوظ ينبغي ان تكون بالاشرف ؛ وهو العدل والعمل على وفق الحكمة ؛ فخلافه ظلم وكفران. وكذلك ان استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم ، لانه خلق الجهات متعددة متسعة ، وشرّف بعضها بأن وضع فيه بيته ، فينبغي أستقباله بالافعال الشريفة ، كالصلاة والجلوس للذكر والاغتسال والوضوء ، دون الافعال الخسيسة ، كقضاء الحاجة ورمى البزاق ، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه الى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله . وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله في خلق الاشجار وفي خلق اليد . أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة المعينة عليها . وأما الشجر، فلأن الله تعالى خلقه ، وخلق له العروق وساق اليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لاعلى وجه ينتفع به عباده ، مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة . نعم ان كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك . اذ الشجر والحيوان جعلا فداءين لاغراض الانسان ، فأنهما جميعا فانيان هالكان . فأفناء الاخس في بقاء الاشرف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعا. واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الارض جميعا »(١٠).

ثم هذه الافعال المتصفة بالكفران ، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد

(١٠) الجاثية الآية : ١٢

الذي هو أفق الشياطين . ولذلك يوصف بعضها — في لسان الفقه — بالكراهة وبعضها بالحضر . وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محظورة ، مع ان جميعها عدول عن العدل ، وكفران للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة الى القرب ، لأن الخطاب به انما هو الى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام ؛ وقد انغمسوا في ظلمات أعظم من أن تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها . فان المعاصي كلها ظلمات ، الا أن بعضها فوق بعض ، فيتمحق بعضها في جنب البعض . ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده اذا أستعمل سكينه بغير اذنه ، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه . ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند أرباب القلوب بالحظر ، ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الانبياء والاولياء من الآداب . حتى نقل: « ان بعضهم جمع أكرارا من الحنطة ليتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرةفابتدأت بالرجل اليسرى سهوا ،فأريدأن اكفره بالصدقة» .

فصل

اقسام النعم واللذات

أعلم ان النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر . وهي تنقسم الى مؤثر لذاته لا لغيره ، أي تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية أخرى ، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لاانقضاء لها ، أعني لذة النظر الى وجه الله ، وسعادة لقائه ، وسائر لذات الجنة ؛ من البقاء الذي لافناء له ؛ والسرور الذي لاغم فيه ؛ والعلم الذي لاجهل معه ، الغنى الذى لافقربعده وغير ذلك . فانها لاتطلب ليتوصل بهاالىغاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها ؛ وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « لاعيش الا عيش الآخرة » ، وغالب هذه النعمة والسعادة وأقواها وأشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية — كما لايخفى — ، فيختص بادراكها العقل ، ولاحظ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها . والى ما يقصد لغيره ، أي تكون مطلوبة لأجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة اليها ، سواء أكانت مقصودة

لذاتها أيضا أم لا . وهي تنقسم الى أربعة اقسام :

القسم الاول — وهو الاقرب الاخص : الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب ؛ ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة ، وهذه مع كونها لذيذة في نفسها ، تكون وسيلة الى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة أخرى . ولذلك قلنا : هى أقرب الوسائل واخصها . وأشرفها العلم وأشرف أفراد العلم : العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله ؛ وأحوال النشأة الآخرة ، وسائر أفعاله ، وعلم المعاملة الراجع الى علم الاخلاق ، اذ هو الذي يؤدي الى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر ، وسائر العلوم انما هي مقصودة من حيث كونها وسائل الى هذا العلم ، وهذه الفضائل لذيذة في الدنيا والآخرة نافعة فيهما ، أي تؤدى الى الراحة فيهما ، وجميلة على الاطلاق ، أي تستحسن في جميع الاحوال . وضدها — أعني الجهل والاخلاق السيئة — ضارة مؤلمة في الدارين ، قبيحة على الاطلاق . وسائر الصفات ليست جامعة لهذه الاوصاف . فان أكل لذائذ الاطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع ، أي حصول الراحة في الحال ، ولكنه ضار في المال ، وترك الشهوات بعكس ذلك .

ثم لذة المعرفة وفضائل الاخلاق دائمة لازمة لاتزول أبدا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ؛ وعقلية يختص بادراكها العقل دون سائر الحواس . وأما غيرها من اللذات ؛ فبعضها مما يشترك فيه الانسان وبعض الحيوانات ؛ كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء ، وهذه اللذة موجودة في الاسد والنمر وبعض أخر من الحيوانات . وبعضها مما يشترك فيــه الانسان وسائر الحيوانات ، كلذة البطن والفرج ، وهي أخس اللذات ، ولذلك أشترك فيها كل مادبء ودرج ؛ حتى الديدان والحشرات . فمن جاوز هــذه اللذة ، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء ، فان جاوزها أيضا أرتقى الى اللذة العقليه، فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة ، لاسيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه مرتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها الا بخروج حب الرئاسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاه ، ولذلك قمعها بالكلية ، بحيث لايقع بها الاحساس قط ، يشبه ان يكون

خارجا عن مقدرة البشر • نعم ربما غلبت لذة المعرفة في أحوال ، بحيث لايقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة ، الا أن ذلك لايدوم ، بل تعتريه الفترات ، فتعود الى الحالة البشرية • وعلى هذا تنقسم القلوب الى أربعة أقسام : قلب : لايحب الا الله ، ولا يستريح الا اليه ، وليس فرحه الا بزيادة المعرفة والفكر فيه ، ولا يسكن الا بحبه وأنسه ، وقلب : أغلب أحواله الانس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن في بعض الاوقات والاحوال يعتريه الرجوع الى أوصاف البشرية • وقلب : أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية ، وفي بعض الاوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والانس به • وقلب : لايدري مالذة المعرفة وما معنى الانس بالله ، وانما لذته بالرئاسات والشهوات • والاول — ان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية الندور • والثاني — أيضا نادر • والسر في ندور هذين القسمين : أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وانسه ، او غلب عليه ذلك ، فهو من ملوك الآخرة ، والملوك هم الاقلون ولا يكثرون فكما لايكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا الانادرا ، وأكثر الناس دونهم ، فكذا في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة • اذ الدنيا عالم الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما ان الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ؛ وهي وان كانت الثانية في رتبة الوجود ، الا أنها في أمر الرؤية أولى ، لانك ترى صورتك في المرآة أولا ، ثم ترى نفسك ؛ فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق الرؤية والمعرفة ، وانقلب المتأخر متقدما • وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم • وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملكوت ، فمن الناس من لاينظر في مرآة عالم الشهادة الا بنظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك الا ويعبر به الى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الخلق به ، فقيل :

« فاعتبروا ياأولي الابصار » ١١

---

(١١) الحشر الآية : ٢

ومنهم من عميت بصيرته ، فلم يعتبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح الى حبسه له أبواب جهنم . وأما الثالث — فأكثر وجودا منه . وأما الرابع — فدار الدنيا طافحة به ، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم ، اما لعدم الذوق ، اذ من لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، اذ الشوق فرع الذوق وذلك اما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذي لايدرك لذة العسل ، ولا يستلذ الا باللبن ، فهؤلاء ممن يحيى باطنهم بعد كالطفل . واما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب أتباع الشهوات ، كالمريض الذي لايدرك لذة السكر ، او الميت الذي سقط عنه الادراك ، وهؤلاء كالمرضى او الاموات بسبب اتباع الشهوات .

القسم الثاني — الفضائل البدنية : وهي أربعة : الصحة ، والقوة ، وطول العمر ، والجمال .

الثالث — النعم الخارجة المضيفة بالبدن : وهي : المال ، والجاه ، والاهل ، وكرم العشيرة .

الرابع — الاسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية ؛ ويعبر عنها بالنعم التوفيقية : وهي : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض ، الى أن ينتهي الى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها . والتوقف اما على سبيل اللزوم والضرورة ، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية ، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن ، أو على سبيل النفع والاعانة ، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة . ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الاخلاق وصحة البدن ظاهر . وأعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبنى على أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة ، فحاجات الجميل الى الاجابة أقرب ، وجاهه في الصدور أوسع . وأيضا الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس ، لأن نور النفس اذا تم أشراقه تأدى الى البدن . ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن . ثم إنا لانعنى بالجمال ما يحرك الشهوة ، فان ذلك أنوثة ، بل نعنى به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة ، وأرتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال

في اللحم ، وتناسب الاعضاء ، وتناسب خلقة الوجه ، بحيث لاتنبو الطباع عن النظر اليه • وأما أحتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية الى النعم التوقيفية ، فلأن المراد بالتوقيفية هو التآلف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، بشرط كون المراد والمقضى سعادة • وبعبارة أخرى : هو توجيه الاسباب نحو المطلوب •

وأما الهداية ، فلها مراتب : أولاها : الهداية العامة ، وهي اراءة طريق الخير وتعريفه • وثانيتها : الخاصة ، وهي الافاضات المتتالية الواردة من الله على بعض عبيده ، نظرا الى مجاهدتهم • وثالثتها : الهداية المطلقة ،وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية ، فيهتدى بهما الى مالا يهتدى اليه بالعقل • وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة ، كائنا ما كان ، على مساعدة القضاء والقدر ، وعلى العلم بطريق الخير ، ظاهر •

وأما الرشد ، فالمراد به العناية الإلهية ، التي تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده ، فيقويه على ما فيه صلاحه ، ويفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن • وبعبارة أخرى : هو هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها • وقد ظهر أحتياج تحصيل الخير والسعادة اليه من مفهومه •

وأما التسديد ، فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه، ليصل اليه في أسرع وقت • فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد أعانة ونصرة بتحريك الاعضاء الى صوب الصواب والسداد • وقد ظهر وجه كون التسديد معينا في طلب الخير أيضا من حاق معناه •

وأما التأييد ، فانه جامع للكل ، اذ هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة فكأنه من داخل ، وبقوة البطش ومساعدة الاسباب من خارج • وتقرب منه العصمة ، وهي عبارة عن وجود إلهي يسنح في البـاطن ، يقوى به الانسان على تحري الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانـع باطني غير محسوس يمنع عن الشر • وهو المراد من برهان الرب في قوله تعالى :

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه »[12]

---

(١٢) يوسف ، الآية : ٢٤ .

تنبيه

أعلم أن النعم الآخروية ، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها ؛ وتفاصيلها وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه ، الى أن ينتهي الى مسبب الاسباب ، مما لايمكن دركها ، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها.

وأما الوسائل الاربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضا الى أربعة أقسام ، وصار مجموعها ستة عشر قسما ، فيستدعي كل قسم من الستة عشر أسبابا ، وتلك الاسباب أسبابا ؛ حتى تنتهي بالآخرة الى مسبب الاسباب وموجد الكل . والمتفكر يعلم ، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء . فان نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الاكل ، فان أحصاءها وان لم يكن ممكنا ، الا أنا نشير الى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء ، لتقاس عليها البواقي . فنقول :

نعمة الاكل تتوقف على ادراك الغذاء وأسبابه ، وعلى شهوة الطعام وميله وارادته وأسبابه ، وعلى القدرة الى تحصيله وأسبابه ، وعلى وجود أصل الغذاء المأكول وتكونه ، وعلى أصلاحه بعد وجوده وتكونه ، وعلى الاسباب الموصلة له الى كل انسان لو كان بعيدا عنه ، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الافعال الباطنة الى أن يصير جزء للبدن ، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الافعال المذكورة . فها هي نذكرها أجمالا وتلويحا في فصول :

فصل

الاكل

الاكل يتوقف أولا على أدراك الغذاء المأكول رؤية ولمسا واستشماما وذوقا ، اذ مالم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه ، ومالم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أوصافه اللازمة في الاكل ، ومالم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما تطيب رائحته ، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد ، لاسيما لبعض الحيوانات ، ومالم يذقه لم يدرك أنه موافق او مخالف له ، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة ، فخلقها الله

سبحانه • ثم ، الاسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لاتتناهى، فلا تتعرض لبيانها • وبعد ادراك الغذاء — على ما ذكر — لابد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقا ورآه مرة أخرى موافقا أو مخالفا ،وهذه القوة هي الحس المشترك ، الذى يتأدى اليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه ؛ فانك اذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرًّامخالفالكفتركته فاذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ مالم تذقه ، لو لا الحس المشترك، اذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلابد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا ، حتى اذا أدرك الصفرة حكم بأنه مرّ ، فيمتنع عن تناوله ثانياً • وهذه القوة — أعني الحس المشترك — يتوقف خلقه علىأسباب ونعم لايمكن أحصاؤها ، فلتذرها على سنابلها •

ثم الادراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك ، مما تشترك فيه سائر الحيوانات ، ولو انحصر ادراك الانسان أيضا به لكان ناقصا • اذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثاني الحال ، فتمرض وتموت ، اذ ليس لها الا الإحساس بالحاضر ، وأما ادراك العواقب فليس لها اليه سبيل• فيتوقفه تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى • فخلق اللهللانسان العقل ، به يدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها في المآكل ، وبه يدرك كيفية طبخ الاطعمة وتركيبها وأعداد أسبابها ، فينتفع بعقله في الاكل الذي هو سبب صحته ، وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه ، اذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من ان تحصى ، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله • والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن ، والحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الاخبار والموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكل كل واحدة منها بأمر خاص • فواحدة بأخبار الالوان ، وأخرى بأخبار الاصوات وأخرى بأخبار الروائح ، وأخرى بأخبار الطعوم ، وأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة • فهذه الجواسيس يقتنصون الاخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها الى الحس المشترك ، وهو قاعد في مقدمة الدماغ ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك ، يجمع

القصص والكتب الواردة من نواحي العالم ، ويأخذها ويسلمها الى العقل الذي هو السلطان مختومة ، اذ ليس له الا أخذها وحفظها ، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس اليه • ولكن اذا صادف القلب العاقل الذي هو الامير والملك سلم ، لانها آتية اليه مختومة ، فيفتشها الملك ويطلع على أسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها • وبحسب مايلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود — أعنى الاعضاء — في الطلب او الهرب او اتمام التدبيرات التي تعن له • ثم عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر ، وهذه ما يتوقف عليه الاكل من الادراكات وأسبابها •

فصل

لافائدة فى الغذاء مالم يكن بشهوة وميل

اذا أدرك الغذاء ، لم يفد فائدة مالم تكن شهوة له وميل وشوق اليه• اذ لولا الميل اليه لكان ادراكه بأي حس وقوة فرضا معطلا • ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك انه أنفع الاشياء له ، وقد سقطت شهوته ، فلا يتناوله ، فيبقى البصر والادراك معطلا في حقه ؟ فيتوقف الاكل على ميل الى الموافق ، ويسمى شهوة ، ونفرة عن المخالف ، ويسمى كراهة • فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمتقاضى الذي يضطره الى التناول ، وهذه الشهوة لولم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسه ، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الاكل بها ، ولم يجعلها كالزرع الذي لايزال يجتذب الماء اذا أنصب في أسافله حتى يفسد ، ولذلك يحتاج الى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى • ثم مجرد الميل والشهوة لايكفى ، مالم تنبعث الداعية الى تناول الغذاء،فخلق الله تعالى له الارادة أعني انبعاث النفس الى تناوله • وربما حصل الاحتياج الى قوة الغضب أيضا ليندفع عن نفسه المؤذى وما يضاده ويخالفه ، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء • ثم لكل واحد من الشهوة ، والكراهة، والارادة ، والغضب ، أسباب لايمكن احصاؤها • ثم بعد أدراك الغذاء وميله وشهوته وارادته ، لايفيد شيئا من ذلك مالم يتحقق الطلب والاخذ بالفعل بآلاتهما • فكم من زمن شائق الى شيء بعيد منه مدرك له مائل

اليه مريد له ، لايمكنه ان يمشي اليه لفقد رجله ، او لايمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج او عذر فيهما . فلابد من آلات للحركة ، وقدرة في تلك الآلات على الحركة ، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا ، فلذلك خلق الله تعالى لك الاعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف أسرارها . فمنها ماهو آلة للطلب ، كالرجل للانسان ، والجناح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والمانـع من طلب الغذاء ، كالقرن لبعض الحيوانات ، والانياب لبعض أخر منها ،والمخلب لبعض آخر منها ،والاسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة . ومنها ماهو آلة للأخذ والتناول ، كاليدين للانسان . ثم لهذه الاعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر ، وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكر .

فصـــل

عجائب المأكولات

عمدة ما يتوقف عليه الاكل وأصله ومناطه ، هي الاغذية والاطعمـة المأكولة ، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لاتحصى ، وأسباب متواليـة لاتتناهى . والاغذية والادوية من الاطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حدا يمكن احصاؤها وحصرها ، فضلا عن بيان عجائبها وأسبابها . فنحن نترك الجميع ، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة ، ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها . فنقول :

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يغتذي به كما خلق فيك ، فان النبات انما يفارقك في الحس والحركة دون الاغتذاء ، لانه يغتذي بالماء . ولا تعرض لذكر آلات النبات في أجتذاب الغذاء الى نفسه ، بل نشير الى لمعة من كيفية أغتذاء الحبة . فنقول :

ان الحبة لاتغتذي بكل شيء ، بل يتوقف اغتذاؤها على أرض فيها ماء . ولابد ان تكون أرضها رخوة متخلخلة بتغلغل الهواء اليها ، فلو تركتها في ارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء . ثم الهواء لايتحرك اليها بنفسه ، فلابد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وأرسلنا الرياح لوافح » ١٣

وإلقاحها انما هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والارض • ثم لايكفي ذلك في انباته في برد مفرط ، فيحتاج الى حرارة الصيف والربيع • فهذه أربعة أسباب ، فان الماء لابد ان ينساق الى أرض الزراعة من البحار والشطوط والانهار والعيون والسواقي ، فأنظر كيف خلق الله جميع ذلك • ثم الارض ربما تكون مرتفعة لاترتفع اليها مياه العيون والقنوات ، فخلق الله الغيوم ، وهي سحب ثقال حاملات للماء ، وسلط عليها الرياح لتسوقها بأذنه الى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات ، وترسلها مدرارا على الاراضى في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا على قدر الحاجة ، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشي • ونعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والامطار لايمكن احصاؤها • وأما الحرارة ، فانها لايمكن ان تحصل في الماء والارض ، لكونهما باردين • فخلق الله الشمس ، وسخرها ، وجعلها — مع بعدها عن الارض — مسخنة لها في وقت دون وقت ، ليحصل الحر عند الحاجة اليه ، والبرد عند الافتقار اليه ، وهذه أخص حكم الشمس ، والحكم فيها أكثر من أن تحصى • ثم النبات ان أرتفع على الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر الى رطوبة تنضجها ، فخلق الله القمر ، وجعل من خاصيته الترطيب ، كما يظهر لك ذلك اذا كشفت رأسك له في الليل ، فانه تغلب على رأسك الرطوبة المعبر عنها بـ (الزكام) ، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها ، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم • وهذا أيضا أخص فوائد القمر وحكمه ، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمع في استقصائه ، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لاتفى القوى البشرية بأحصائها • وكما انه ليس في اعضاء البدن عضو لافائدة فيه ، فكذلك ليس عضو من أعضاء بدن العالم لاتكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة • والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه

---

(١٣) الحجرة الآية : ٢٢

كالاعضاء له ، وهي متفاوتة تفاوت اعضاء البدن ، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر ، وكلها مسخرات لله سبحانه ، وآثار من قدرته الكاملة ، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة ، وليست في أنفسها الا أعدام صرفة • فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له ، اذا نظروا الى ملكوت السماوات والارض ، والآفاق والانفس ، والحيوانات والنباتات ، لاينظرون اليها الا من حيث انها آثار قدرة ربهم ، ورشحات صفاته ، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها ، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك • كما أن من احب عالما لم يزل مشغوفا بطلب تصانيفه ، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له • فكذلك الامر في عجائب صنع الله ، فان العالم كله من تصنيفه تعالى ، بل جميع المصنفين أيضا من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده • فان تعجبت من تصنيف ، فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه • كما اذا رأيت لعب المشعوذ [١٤] يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة، فلا تتعجب من اللعب ، فانها خرق محركة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة عن الابصار • وقد ظهر أن غذاء النبات لايتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك الا بالافلاك التي هي مركوزة فيها ، ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك تتسلسل الاسباب الى أن تنتهي الى مسبب الاسباب وغاية الكل ، وليس لنا سبيل الى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها •

فصل

حاجة تحضير الطعام الى آلاف الاسباب

ثم ما ينبت من الارض من النبات ، وما يحصل من الحيوانات ، لايمكن أن تقضم وتؤكل كذلك ، بل لابد في كل واحد من أصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف ، بالقاء البعض وابقاء البعض ، الى غير ذلك من الاعمال التي لاتحصى ، وكل من الاطعمة يتوقف أصلاحها على أمور خاصة كثيرة ،

(١٤) المشعوذ : الرجل الحيال الذى يصنع الشعبذة .

واستقصاء ذلك في كل طعام طويل • فلنأخذ رغيفا واحدا ، وننظر الى بعض ما يحتاج اليه حتى يستدير ويصلح للأكل ، اذ بيان جميع ما يحتاج اليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكنا ، فنقول :

أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الارض ، ثم القاء البذر فيها ، ثم الثور الذي يثير الارض مع آلاته ، كالفدان وغير ذلك ، ثم تنقية الارض من الحشائش ، والتعهد بسقي الماء الى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه ، ثم الحصاد ، ثم الفرك ، ثم التنقية والتصفية ، ثم الطحن ، ثم العجن ؛ ثم الخبز • فتأمل عدد هذه الافعال ، واستحضر سائر الافعال التي لم نذكرها ، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج اليها • من الحديد والخشب والحجر وغيرها • وانظر الى أعمال الصناع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرهما ، واحتياج كل منها الى آلات كثيرة • ثم انظر كيف ألف الله سبحانه بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين ، وسلط عليهم الانس والمحبة ، حتى ائتلفوا وأجتمعوا وبنوا المدن والبلاد ، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة ، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ، ولو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش ، لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض • ثم لما كان في جبلة الانسان الغيظ والعداوة ، والحسد والمنافسة ، والانحراف عن الحق ، ربما زالت المحبة بين البعض لاعراض ، فيزدحمون عليها ، ويتنافسون فيها ، وربما أدى الى التنافر والتقابل • فبعث الله الانبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا اليها عند التنازع ، فيرتفع نزاعهم • ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الانبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها • وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهرا عليها لو أرادوا التخلف عنها ، فسلط الله السلاطين اولى القوة والعدة على الناس ، وألقى رعبهم في قلوبهم ، والهمهم اصلاح العباد ، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والاسواق واضطروا الخلق الى قانون الشرع والعدل ، وألزموهم التالف والتعاون ، ومنعوهم عن التفرق والتباغض فاصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين ، واصلاح السلاطين بالعلماء ، واصلاح العلماء بالانبياء ، واصلاح الانبياء بالملائكة

واصلاح الملائكة بعضهم ببعض الى ان ينتهى الى حضرة الربوبية ، التى هى ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليفه وقد ظهر مما ذكر : ان من فتش يعلم ان رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح للاكل مالم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الانس •

فصــــل

تسخير الله التجار لجلب الطعام

ثم جميع الاطعمة لما لم يمكن ان يوجد في كل مكان وبلد ، اذ لكل واحد شروط مخصوصة لاجلها ، لايمكن الا ان يوجد في بعض الاماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الارض ، وقد يبعد عنهم بعض مايحتاجون اليه من الاطعمة ، بحيث تحول بينهم وبينها البرارى والبحار ، فسخر الله — تعالى — التجار ، وسلط عليهم حرص المال وشره الربح ،حتى يقاسوا الشدائد ، ويركبوا الاخطار في قطع المفاوز وركوب البحار فيحملون الاطعمة وانواع الحوائج من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق • فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادى والجبال من الجمال وكيفية قطعها البراري والمراحل تحت الاعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش، ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها وحركاتها ، ومن الحمار وصبره على التعب وانظر كيف خلق الله مايحتاج اليه السفن وهذه الحيوانات من الاسباب والغذاء ، وينتهى الى حد لايمكن تحديده •

فصــــل

نعم الله فى خلق الملائكة للانسان

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لايفيد فائدة مالم يؤكل ويصير جزء للبدن • وهذا موقوف على اعمال كثيرة ، محتاجة الى أسباب كثيرة ، من الطحن ، والجذب ، والهضم المعدى والكبدى ، وغير ذلك من الافعال التى يحتاج كل منها الى اسباب كثيرة • وقد اشرنا الى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكر ، فارجع اليه • وهنا نشير الى انموذج من نعمة الله في خلق الملائكة • فنقول :

ان كثرة الملائكة لم تبلغ حدا يمكن تصوره تفصيلا او اجمالا . ولهم طبقات وأصناف : منها : طبقات الملائكة الارضية . ومنها : الملائكة السماوية . ومنها : حملة العرش العظيم . ومنها : المسلسلون . ومنها : المهيمنون . . وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم ، ولايحيط بهم الا الله — سبحانه — فكل صنع من صنائع الله في الارض والسماء لايخلوعن ملك أو ملائكة موكلين به . فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع الى الاكل والاغتذاء الذى كلامنا فيه ، دون مايجاوزه وذلك من صنائع الله وافعاله ، ومن الوحى الى الانبياء والهداية والارشاد وغيرها ، فان استقصاء ذلك ليس من مقدورات البشر . فنقول : ان كل جزء من اجزاء بدنك ، بل من اجزاء النبات ، لايغتذى الا بأن يوكل به سبعة من الملائكة ، هم أقل الاعداد الى عشرة الى مائة ، الى أكثر من ذلك بمراتب .

بيان ذلك : ان معنى الاغتذاء : ان يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك . وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء ، حتى يصير جزء للبدن كالجذب والهضم وصيرورته لحما وعظما . ومعلوم ان الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها ، ومجرد الطبع لايكفي في ترددها في اطوارها ، كما ان البر بنفسه لايصير طحينا وعجينا وخبزا مطبوخا الا بصناع ، والصناع في الباطن هم الملائكة ، كما ان الصناع في الظاهر هم أهل البلد . فالغذاء ، بعد وضعه في الفم الى أن يصير دما لابد له من صناع من الملائكة ، ولانتعرض لهم ولبيان عددهم ، ونقول : بعد صيرورته دما الى ان يصير جزء للبدن ، يتوقف على سبعة من الملائكة ، اذ لابد من ملك يجذب الدم الى جوار اللحم والعظم اذ الدم لايتحرك بنفسه ، ولابد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولابد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق ، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة ، ومن سادس يلصق مااكتسب صفة اللحم باللحم ، وماكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لايكون منفصلا ، ولابد من سابع يراعى المقادير في الالصاق ، فيلحق بالمستدير على مالايبطل استدارته ، وبالعريض

على مالايبطل عرضه ، وبالمجوف على مالايبطل تجويفه ، وهكذا . . .
ويراعى في الالصاق لكل عضو مايليق به ويحتاج اليـه . فلو جمع لانف الصبى — مثلا — من الغذاء مايجمع على فخذه ، لكبر أنفه ، وبطل تجويفه وتشوهت صورة ، بل ينبغي ان يسوق الى الاجفان مع رقتها ،والى الافخاذ مع غلظتها ، والى الحدقة مع صفائها ، والى العظم مع صلابته ؛ مايليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، ويراعى العدل في القسمة والتقسيط والا بطلت الصورة ، وتشوهت الخلقة ، ورق بعض المواضع وضعف البعض فمراعاة هذه الهندسة مفوضة الى ملك من الملائكة . واياك وان تظن ان الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فان من أحال هذه الامـور الى الطبع جاهل ولايدرى مايقول . فان اراد من الطبع قوة عديمة الشعور ويقول : ان كل فعل من هذه الافعال موكول الى قوة لاشعور لها ، فنقول ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرتـه ، اذ لاريب في ان مالاشعـور له ليس له في نفسه ان يفعل فعلا ما ، فضلا عن ان يفعل أفعالا متقنةمحكمة مشتمله على الحكم الدقيقة ، والمصالح الجليلة والخفية . فتكون هذهشروطا ناقصة لايجاد الله سبحانه هذه الافعال بلاواسطة اوبواسطة عددهذهالقوى من الملائكة . وعلى أى تقدير ، لابد من سبعة اشخاص من مخلـوق الله سبحانه — مسخرين في باطنك ، موكلين بهذه الافعال ، قد شغلوا بك وانت في النـوم تستريح ، وفي الغفلة تتردد ،وهم يصلحون الغـذاء في باطنك ولاخبر لك منهم ، وكذلك في كل جزء من اجزائـك التى لاتتجزأ ، حتى يفتقر بعض الاجزاء — كالعين والقلب — الى أكثر من مائة ملك . ثم الملائكة الارضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لايحيط بكنهـه الا الله ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش ، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس ، المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت .ومن اراد ان يعلم — اجمالا — كثرةالملائكة الموكلين بالسماوات والارضين ، وأجراء النبات والحيوانات ، والسحب والهواء والبحار والجبال والامطـار وغير ذلك ، فليرجع في ذلك الى الاخبـار الواردة من الحجج — عليهم السلام — .ثم لابد أن يفرض كل فعل من الافعال السبعة المذكورة

الى ملك من الملائكة ، ويكون الموكل به ملكا واحدا على حدة ، ولايمكن أن يفوض جميعها الى ملك واحد ، كما لايمكن أن يتولى انسان واحد سبعة اعمال في الحنطة ، كالطحن وتمييز النخالة ، ودفع الفضلة عنه ، وصب الماء عليه ، والعجن ، وقطعها كسرات مدورة ، وترقيقها رغفانا عريضة ، والصاقها بالتنور • اذ الملك وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات • فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد ، كما اشير اليه بقوله ــ تعالى ــ :

« وما منا الا له مقام معلوم » ١٥

ولذلك ، ليس بينهم تحاسد وتنافس • ومثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الاخر له مثال الحواس الخمس ، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه امورا مختلفة ، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه ، فانه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل ، ولذلك ترى انه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى • وذلك غير موجود في الملائكة ، فانهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية ، ولكل منهم طاعة خاصة معينة • فالراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجد دائما ، والقائم منهم قائم أبدا ، لا اختلاف في افعالهم ولا فتور ، ولكل واحد منهم مقام معلوم • واذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج اليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الارضية المستمدين من الملائكة السماوية ، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء ، وسائر افعالك الباطنة والظاهرة ، فان بيان ذلك ليس ممكنا • ثم قس على ذلك اجمالا جملة صنائع الله وافعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملكوت ، وعالم الملك والشهادة ، فسماواته وارضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما فان اعداد الملائكة الموكلين بها غير متناهية ، كيف ومجامع طبقات الملائكة وانواعهم خارجة عن الاحصاء ، فضلا عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات؟

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة ، الى أن ينتهي الى الله ، واتصال البعض بالبعض ووقوع الارتباط والترتب

---

(١٥) الصافات ، الآية : ١٦٤

بينهما : ان من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود ، فمن نظر الى غير محرم — مثلا — فقد كفر ، ففتح العين نعمة الله في الاجفان ، ولا تقوم الاجفان الا بالعين ، ولا العين الا بالرأس ، والا الرأس الا بجميع البدن ، ولا البدن الا بالغذاء ، ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب ، ولا يقوم شيء من ذلك الا بالسماوات ولا السماوات الا بالملائكة . فان الكل كالشيء الواحد ، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض . فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود ، من ابتداء الثرى الى منتهى الثريا . وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان ، ولا ماء ولا هواء ، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك ،الا يلعنه . ولذلك ورد في الاخبار : « ان البقعة التي يجتمع فيها الناس ، اما تلعنهم اذا تفرقوا ، أو تستغفر لهم » . وكذلك ورد : « ان الملائكة يلعنون العصاة » . وورد : « ان العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت في البحر » . وأمثال هذه الاخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء ، وكل ذلك اشارة الى ان العاصي بتطريفة واحدة يجني على جميع الملك والملكوت .

ثم جميع ماذكرناه انما يتعلق بجزء من المطعم ، فاعتبر ما سواه . ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر ؟ كيف ولله في كل طرفةعلى كل عبد من عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء ؟ فان في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، اذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجتمع روح الهواء الى القلب ، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لانقطع قلبه وهلك . ولما كان اليوم والليلة اربعا وعشرين ساعة وفي كل ساعة يوجد الف نفس تخمينا ، واذا اعتبرت ذلك وقست عليهسائر النعم ، يكون عليك في كل يـوم وليلة آلاف ألوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك ، بل في كل جزء من اجزاء العالم ، وكيف يمكن احصاء ذلك ولذلك قال الله — تعالى — :

« وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها » ١٦

---

(١٦) ابراهيم ، الآية : ٣٤ النحل ، الآية : ١٨

وورد : « ان من لم يعرف نعمة الله الا في مطعمه ومشربه ، فقد قل علمه وحضر عذابه » . فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء ، ولا يلم خاطره بموجود ، الا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه . ولذلك قال موسى بن عمران : « الهي ! كيف أشكرك ولك علي في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت اصلها ، وان طمست رأسها » .

فصـــل

الاسباب الصارفة للشكر

اعلم أن السبب الصارف لاكثر الخلق عن الشكر ، اما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله ـ سبحانه ـ ، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وآحادها ، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها ، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرد أن يقولوا بلسانهم: الحمد لله ، أو الشكر لله ، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، بحيث لايتنبهون للقيام بالشكر ، كما في سائر الفضائل والطاعات أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الاحوال من النعم نعمة . ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم ، لكونها عامة للخلق ، مبذولة لهم في جميع الحالات . فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصا بها ، فلا يعدها نعمة . وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها ، فلا يتصورون خلاف ذلك ، ويظنون أن كل انسان يلزم أن يكون على هذه الاحوال . فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء ، ووفور الماء ، وصحة البصر والسمع وأمثال ذلك . ولو أخذ يخنقهم ، حتى انقطع عنهم الهواء ، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار ، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء ، ما تواه.فان ابتلى واحد بشيء من ذلك ، ثم نجى منه ، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه . وكذا البصير ، اذا عميت عينه ، ثم اعيد عليه بصره ، عده نعمة وشكره ، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيرا دائما كان غافلا عن الشكر. وهذا غاية الجهل ، اذ شكرهم صار موقوفا على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال ، مع أن النعمة في جميع الاحوال أولى بالشكر.

فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة • ومثلهم كمثل العبد السوء الذي لو لم يضرب بطر وترك الشكر ، واذا ضرب في غالب الاحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك •ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الارض كلها • كما نقل : « ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء ، وفي يده كوز ماء يشربه ، فقال له : عظني • فقال : لو لم تعط هذه الشربة الا ببذل أموالك وملكك كله ، ولو لم تعطه بقيت عطشانا ، فهل تعطيه ؟ قال : نعم! قال : فكيف تفرح بملك لا يساوي شربة ماء ! » • هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله ، لرأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها احد ، أو يشاركه يسير من الناس ، اما في العقل ؛ أو في الخلق ؛ أو في الورع والتقوى ، أو الدين ، أو في صورته وشخصه ، أو أهله وولده أو مسكنه وبلده ؛ أو رفقائه وأقاربه ، أو عزه وجاهه ، أو طول عمره وصحة جسمه ، أو غير ذلك من محابه • بل نقول : لو كان أحد لايكون مخصوصا بشيء من ذلك ، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيته في بعض هذه على سائر الخلق • فان أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس ، أو أحسن أخلاقا منهم ، مع أن الامر ليس كذلك • ولذلك لايشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال ، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ، ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها ، ولا يرى ذلك من نفسه •

وبالجملة : كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال مالا يراه في غيره ، وان لم يكن مطابقا للواقع • ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطي ما خصص به غيره ، لكان لايرضى به • بل التأمل يعطي : ان كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والافعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائنا من كان ، بل لو وكل اليه الاختيار وقيل له : أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس لم يخير الا نفسه • والى هذا أشار الله — سبحانه — بقوله :

« كل حزب بما لديهم فرحون »[١٧]

واذا كان الامر هكذا ، فأني له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة ؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله الا الأمن والصحة والقوة لعظمت النعمة في حقه ، ولم يخرج عن عهدة الشكر . قال رسول الله (ص): « من أصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، وعنده قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها » . ومهما فتشت الناس ، لوجدتهم يشكون عن امور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم . بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الايمان الذي به وصوله الى النعيم المقيم والملك العظيم ، لكان جديرا به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره . بل ينبغي للعاقل ألا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان . ونحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع مادخل تحت ملوك الارض من الشرق الى الغرب ، من اموال واتباع ، وانصار وبلدان وممالك ، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه ، لرجائه أن نعمة العلم تفضي به الى قرب الله — تعالى — في الآخرة . بل لو سلم اليه جميع ذلك عوضا عن لذة العلم في الدنيا ، مع نيله في الآخرة الى ما يرجوه ، لم يأخذه ولم يرض به ، لعله بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لا تسرق ولا تغصب ، وصافية لا كدورة فيها بخلاف لذات الدنيا .

فصل

طريق تحصيل الشكر

الطريق الى تحصيل الشكر أمور :

الاول — المعرفة والتفكر في صنائعه — تعالى — ، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة .

الثاني — النظر الى الأدنى في الدنيا والى الاعلى في الدين .

الثالث — أن يحضر المقابر ، ويتذكر أن أحب الاشياء الى الموتى، وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا الى الدنيا ، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا ، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب،

(١٧) المؤمنين ، الآية : ٥٤ . الروم ، الآية : ٣٢

أو يزيد ثوابهم وترفع درجاتهم • فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته ورده الى الدنيا ، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العود لاجله •

الرابع — أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض ايام عمره من المصائب العظيمة والامراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها ، فليتصور أنه هلك بها ويغتنم الآن حياته وماله من النعم ، فليشكر الله على ذلك ، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافي طبعه •

الخامس — أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث انه لم تصبه مصيبة أكبر منها ، وانه لم تصبه مصيبة في الدين • ولذلك قال عيسى (ع) في دعائه : « اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني ! » • وقال رجل لبعض العرفاء : « دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي » ، فقال له : « اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك ، ماذا كنت تصنع؟ » • ومن حيث ان كل مصيبة انما هي عقوبة لذنب صدر منه ، فاذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة ، كما قال رسول الله (ص) : « ان العبد اذا أذنب ذنبا فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا ، فالله اكرم من أن يعذبه ثانيا » • وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا — عليهم السلام — ايضا ، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها الى الآخرة • ومن حيث ان هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية اليه ألبتة ، افقد أتيت وفرغ منها • ومن حيث ان ثوابها اكثر منها وخير له ، لما يأتي في باب الصبر من عظم مثوبات الابتلاء بالمصائب في الدنيا • ومن حيث انها تنقص في القلب حب الدنيا والركون اليها ، وتشوق الى الآخرة والى لقاء الله سبحانه • اذ لا ريب في أن من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد ، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، يورث طمأنينة القلب الى الدنيا وانسا بها ، حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته ، واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها ، وصارت الدنيا سجنا عليه وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن • ولذلك قال رسول الله (ص): « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » • فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها ، والتفاتها الى عالمها الاصلي ، وتشوقها الى

الخروج عنها اليه ورغبتها الى لقاء الله وما أعد في الدار الآخرة لأهلها.

فان قلت : غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه ، وأما الشكر عليه فغير متصور ، اذ الشكر انما يستدعي نعمة وفرحا ، والبلاء مصيبة والم فكيف يشكر عليه ؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء واحد ، اذ الصبر يستدعي بلاء وألما ، والشكر يستدعي نعمة وفرحا ، فهما متضادان غير مجتمعين، فكيف حكمتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية؟

قلنا : كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم الى مطلق ومقيد . فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والايمان والاخلاق الحسنة في الدنيا ، والنعمة المقيدة في الدنيا — أي ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه — كالمال الذي يصلح الدين من وجه ، ويفسده من وجه . والبلاء المطلق ، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والاخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا ، والبلاء المقيد ، كمصائب الدنيا ، من الفقر والخوف والمرض وسائر اقسام المحن والمصائب ، فانها وان كانت بلاء في الدنيا ، ولكنها نعم في الآخرة . وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة ، أو رياضة النفس ، أو زيادة التجرد ، أو رفع الدرجة . فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق ، ولا معنى لاجتماع الصبر معه ، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه ، كما يأتي . والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه ، اذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية ، بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه . وأما البلاء المقيد ، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر ، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين ، بل الصبر من حيث ايجابه الاغتمام والالم في الدنيا ، والشكر من حيث ادائه الى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر .

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة ، ولم يشكر على جهة خيرية ، صار بلاء مطلقا لزم تركه بالرجوع الى الصبر والشكر . واما النعمة المقيدة ، كالمال والثروة ، فان أدت الى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر ، ولم يكن محلا للصبر ، وان ادت الى فساده كانت بلاء مطلقا واجب الترك ، وان أدت الى بلاء الدنيا ، كأن يصير ماله سببا لهلاك أولاده ، وفساد مزاجه ويصير فوته باعثا لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية ، كان حكمه حكم البلاء

المقيد • ثم يأتي في باب الصبر : ان الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية ، وفيهما يتحقق الشكر والصبر ، اذ الشكر — كما عرفت — هو عرفان النعمة من الله والفرح بـه ، وصرف النعمة الى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر — كما يأتي — وهو ثبات باعث الدين ، اعني العقل النظري ؛ في مقابلة باعث الهوى ، اعني القوة الشهوية • ولا ريب في انه في أداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور ، اذ هو صرف النعمة الى ما هو المقصود ، اذ باعث الدين انما خلق لحكمة دفع باعث الهوى ، وقد صرفه الى مقصود الحكمة • وانت خبير بأنه وان تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، الا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، اذ الصبر انما هو عليهما ، واما الشكر فعلى باعث الدين أعني العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية ، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية ، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق ، أي ما يصبر عليه وما يشكر عليه ،واتحدا في فعل الصبر والشكر اذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة ، وهو عين الطاعة وترك المعصية ، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة ، وهو ايضا عين الطاعة وترك المعصية • ويمكن ان يقال : ان من فعل هذه الطاعة ، وترك هذه المعصية عرف كونهما من الله وفرح به ، ويعمل طاعة اخرى شكرا له • وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية ،اعني المشكور عليه وما يصبر عليه ، اذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها ، ويختلف فعلاهما • اذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ،وفعل الشكر تحميد أو طاعة أخرى •

فصل

الصحة خير من السقم

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه الى سعادة الابد انه خير من العافية في الدنيا ، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها،فاياك ان تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا،فان رسول الله(ص) كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا ومن بلاء الآخرة ، وكان يقول هو

والانبياء والاوصياء — عليهم السلام — : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة »، وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وسوء القضاء . وقال(ص) : «سلوا الله العافية ،فما أعطى عبد أفضل من العافية الا اليقين»، وأشار باليقين الى عافية القلب من الجهل والشك ، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن ، وقال (ص) في دعائه : « والعافية أحب الي ».

وبالجملة : هذا اظهر من ان يحتاج الى الاستشهاد . اذ البلاء انما يصير نعمة بالاضافة الى ما هو اكثر منه في الدنيا والآخرة ، وبالاضافة الى مايرجى من الثواب في الآخرة ، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها الى الآخرة .فينبغي ان يسأل تمام النعمة في الدنيا ،والثواب في الآخرة على شكر المنعم ، والتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ،فانه قادر على اعطاء الكل ؛ وما نقل عن بعض العارفين ، من سؤالهم المصائب والبلاء ، كما قال بعضهم : « اود ان اكون جسرا على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون ، واكون انا في النار » وقال سمنون المحب : « وليس لي في سواك حب فكيفما شئت فاختبرني » فمبناه على غلبة الحب ، بحيث يظن المحب بنفسه انه يحب البلاء . ومثل ذلك حالة تعتريه وليس لها حقيقة . فان من شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة . فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه . وقد روي : « ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذي يمنعك عني ، ولو أردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لاجلك ؟ فسمع ذلك سليمان (ع) ، فطلبه وعاتبه في ذلك فقال : يانبي الله كلام العشاق لا يحكى » .ونقل : « أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور ، ابتلى بمرض الحصر ، فكان يصيح ويجزع ويسأل الله العافية ، ويظهر الندامة مما قال ، ويدور على ابواب المكاتب، ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب » . والحاصل : ان صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية ، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله ، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية انما يكون في غليان الحب ، فلا يثبت ولا يدوم . ومع ذلك كله ، فاعلم ان الظاهر من بعض الاخبار الآتية

في باب الصبر : ان في الجنان درجات عالية لايبلغها أحد الا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها ، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع ، من الانبياء والاولياء بالمصائب العظيمة في الدنيا ، وماورد من أن اعظم البلاء موكل بالانبياء ثم بالاولياء ، ثم بالامثل فالامثل في درجات العلاء والولاء . وعلى هذا فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس . فمن كان قوي النفس صابرا شاكرا في البلاء ، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والانس والطاعات والاقبال عليها ، ولم يصر باعثا لنقصان الحب لله ، فالبلاء في حقه افضل في بعض الاوقات ، اذ بأزائه في الاخرة من عوالي الدرجات مالا يبلغ بدونه . ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعا أو كفرانا ، او منعه عن شيء مما ذكر ، فالعافية أصلح في حقه ، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول الى المراتب العظيمة ، فلا ريب في أن العافية وعدم هذا البلاء افضل وأعلى منه . فان البصير الذي توسل بعينيه الى النظر الى عجائب صنع الله ، وتوصل به الى معرفة الله ، وتمكن لأجل العينين الى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من أنواع العلوم ، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور ، وينتفع من علومه الناس أبدا ، وربما بلغ لأجل العينين الى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والانس والاستغراق، ولولا وجود العينين له لم يبلغ الى شيء من ذلك ، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل وأصلح من عدمه ، ولولا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلا — وقد كان ضريرا من بين الانبياء — فوق رتبة موسى وابراهيم وغيرهما — عليهم السلام — لانه صبر على فقد البصر ، وموسى لم يصبر عليه ، ولكان الكمال في أن يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم . وهذا باطل، فان كل واحد من الاعضاء آلة في الدين ، فيفوت بفواتها ركن من الدين . ويدل على ذلك ما ورد في عدة من الاخبار : « أن كل ما يرد على المؤمن من البلاء أو عافية أو نعمة أو بلية ، فهو خير له واصلح في حقه » وما ورد في بعض الاحاديث القدسية : « ان بعض عبادي لايصلحه الا الفقر والمرض ، فأعطيته ذلك ، وبعضهم لايصلحه الا الغنى والصحة ، فأعطيته ذلك » . وبذلك يجمع بين أخبار العافية وأخبار البلاء .

الجزع

ومنها :

وهو اطلاق دواعي الهوى ، من الاسترسال في رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب ؛ او ضيق الصدر والتبرم والتضجر . وهو وان كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذى من رذائل القوة الغضبية فقط، الا أنه لما كان ضده الصبر ، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية — كما يأتي — فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط ، بل ذكرناه هنا . ثم الجزع في المصائب من المهلكات ، لانه في الحقيقة انكار لقضاء الله ، واكراه لحكمه ، وسخط على فعله . ولذا قال رسول الله (ص) : « الجزع عند البلاء تمام المحنة » وقال (ص) : « ان عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله اذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » . وفي الخبر القدسي : « من لم يرض بقضائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يصبر على بلائي ، فليطلب ربا سواى » .وروى: « ان زكريا لما هرب من الكفار ، واختفى في الشجرة ، وعرفوا ذلك ، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا ، فأنّ أنة ، فأوحى الله اليه : يازكريا ! لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة! فعض زكريا (ع) على أصبعه حتى قطع شطرين » وبالجملة : العاقل يعلم ان الجزع في المصائب لافائدة فيه ، اذ ما قدر يكون ، والجزع لايرده . ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضى مدة ، فليتركه أولا حتى لايضيع أجره . وقد نقل : « انه مات ابن لبعض الاكابر ، فعزاه مجوسى ، وقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . فقال: أكتبوه عنه » . وقال الصادق (ع) : « الصبر يظهر مافي بواطن العباد من النور والصفاء ، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة . والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده الا المختبون ، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين ، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب . وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه ، وما كان عن أضطراب لايسمى صبرا . وتفسير الجزع أضطراب القلب وتحزن الشخص ، وتغير اللون

والحال . وكل نازلة خلت أوائلها من الاخبات والانابة والتضرع الى الله فصاحبها جزوع غير صابر . والصبر ما أوله مر وآخره حلو ، من دخله من أواخره فقد دخل ، ومن دخله من أوائله فقد خرج ، ومن عرف قدر الصبر لايصبر عما منه الصبر ، وقال الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: فكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ، فمن صبر كرها ،ولم يشك الى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره ، فهو من العام ، ونصيبه ما قال الله عز وجل : وبشر الصابرين : أي بالجنة والمغفرة . ومن استقبل البلاء بالرحب ، وصبر على سكينة ووقار ، فهو من الخاص ، ونصيبه ما قال الله عز وجل : ان الله مع الصابرين » (١٨) .

فصـــل

الصبر ـ مراتب الصبر ـ أقسام الصبر ـ فضيلة الصبر ـ الصبر على السراء ـ أختلاف مراتب الصبر في الثواب ـ طريق تحصيل الصبر ـ التلازم بين الصبر والشكر ـ القانون الكلي في معرفة الفضائل ـ تفضيل الصبر على الشكر .

* * *

ضد الجزع (الصبر) ، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب ، بأن تقاوم معها ، بحيث لاتخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة ، فيحبس لسانه عن الشكوى ، وأعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة . وهذا هو الصبر على المكروه ، وضده الجزع . وله أقسام أخر لها اسماء خاصة تعد فضائل أخر : كالصبر في الحروب ، وهو من أنواع الشجاعة ، وضده الجبن . والصبر في كظم الغيظ ؛ وهو الحلم ، وضده الغضب . والصبر على المشاق ، كالعبادة ، وضده الفسق ، أي الخروج عن العبادات الشرعية . والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات ، وهي العفة ، واليه اشير في قوله سبحانه :

(١٨) صححنا الحديث على «مصباح الشريعة » : باب ٩٢ وعلى «البحار» باب الصبر واليسر بعد العسر ، مج ١٥ : ١٤٣/٢

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فان الجنة هي المأوى »١٩

وضده الشره • والصبر عن فضول العيش ، وهو الزهد ، وضده الحرص • والصبر في كتمان السر ، وضده الاذاعة ، والاولان ، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب • والرابع ، من نتائج المحبة والخشية. والبواقي ، من فضائل قوة الشهوة كما يأتي • وبذلك يظهر : أن من عدّ الصبر مطلقا من فضائل القوة الشهوية او القوة الغضبية انما أراد به بعض أقسامه •

ويظهر من ذلك : أن اكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر • ولذلك لما سئل رسول الله (ص) عن الايمان ، قال : « هو الصبر ، لانه أكثر اعماله وأشرفها » ، كما قال : « الحج عزم » • وقد عرّف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى ، وبعبارة أخرى : انه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى • والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادي الى طريق الخير والصلاح ، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية الى الفوز والفلاح • والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل ، والقتال دائما بين الباعثين قائم ، والحرب بينهما أبدا سجال [٢٠] ، وقلب العبد معركته ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله ، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فان ثبت باعث الدين بأمداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته ، غلب حزب الله والتحق بالصابرين ، وان تخاول وضعف حتى سلب باعث الهوى بأمداد الشياطين ولم يصبر على دفعه، التحق بأتباع الشياطين • وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة ، أي اليقين بكون الهوى عدوا قاطعا لطريق الوصول الى الله مضادا لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة • ثم باعث الدين اما يقهر داعي الهوى بالكلية، بحيث لاتبقى له قوة المنازعة ، فيدوم الصبر ، وتستقر النفس في مقام الاطمينان ، وتنادي من وراء سرادقات الجمال بخطاب : (يا أيتها النفس

---

(١٩) النازعات ، الآية : ٤٠ — ٤١

(٢٠) « الحرب بينهم سجال » : مثل مشهور ، اى تارة لهم وتارة عليهم

المطمئنة ! ارجعي الى ربك راضية مرضية) ، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين ، وتنسلك في سلك عباده الصالحين ، أو يغلب داعي الهوى وينقهر باعث الدين ، بحيث لاتبقى له قوة المنازعة ، وييأس عن المجاهدة والمقاومة، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سر الله ووديعته الى حزب الشيطان. ومثله مثل من أخذ أعز اولاده المتصف بجميع الكمالات ، ويسلمه الى الكفار من أعدائه ، فيقتلونه لديه ، ويحرقونه بين يديه ، بل هو أسوء حالا منه بمراتب كما لا يخفى . اذ لا يكون لاحدهما الغلبة التامة ، بل يكون بينهما تنازع وتجاذب ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب ذاك ، فتكون النفس في مقام المجاهدة الى أن يغلب أحد الباعثين ، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان . ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر اما أن تكون في جمع مقتضياته أو بعضها ، وتخرج من القسمين ثلاثة أحوال :

الاولى ــ ان يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الاوقات.

الثانية ــ أن يغلب عليه الجميع في الجميع .

الثالثة ــ أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع ، أو يغلب عليها كلا أو بعضا دون بعض .

وقد أشير الى أهل الحالة الاولى في الكتاب الإلهي بقوله تعالى :

« يا ايتها النفس المطمئنة . . . الى آخر الآية » ٢١ والى الثانية بقوله: « ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »٢٢ والى الثالثة بقوله : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » ٢٣

فصل

مراتب الصبر

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات ، ان كان بيسر وسهولة فهو الصبر حقيقة ، وان كان بتكلف وتعب فهو التصبر مجازا . واذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى ،

(٢١) الفجر ، الآية : ٢٧ ــ ٢٨
(٢٢) السجدة ، الآية : ١٣
(٢٣) التوبة ، الآية : ١٠٣

تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة ، كما قال الله سبحانه :

« فاما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » ٢٤

ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا ، واذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة . وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . ولذلك قال رسول الله (ص) : « أعبد الله على الرضا ، فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خير كثير» . قال بعض العارفين : « أهـل الصبر على ثلاث مقامات : الاول : ترك الشكوى ، وهذه درجة التائبين . الثاني : الرضا بالمقدر ، وهذه درجـة الزاهدين . الثالث : المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين » . وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن . ثم باعث الصبر اما اظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس ، ليكون عندهم مريضا ، كما نقل عن معاوية : انه اظهر البشاشة ، وترك الشكوى في مرض موته ، وقال :

وتجلدي للشامتـيـن أريهـم انـي لريب الدهر لا أتزعزع

وهذا صبر العوام ، وهم الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، او توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة ، وهذا صبر الزهاد والمتقين ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ٢٥

أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله سبحانه . اذ كل ما يرد من المحبوب محبوب ، والمحب يشتاق الى التفات محبوبة ، ويرتاح به وان كان ما يؤذيه ابتلاءً وامتحاناً له ، وهذا صبر العارفين ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وبشر الصابرين ، الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » ٢٦

---

(٢٤) الليل ، ، الآية : ٥–٧
(٢٥) الزمر ، الآية : ١٠
(٢٦) البقرة ، الآية : ١٥٥ — ١٥٧ .

وقد ورد : أن الامام محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال لجابر بن عبدالله الانصاري — وقد اكتنفته علل وأسقام ، وغلبه ضعف الهرم — : « كيف تجدحالك ؟ » قال : أنا في حال الفقر أحب اليّ من الغنى ،والمرض أحب اليّ من الصحة ، والموت أحب الي من الحياة • فقال الامام (ع): « أما نحن أهل البيت ، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة ، فهو أحب الينا » • فقام جابر ، وقبل بين عينيه، وقال : صدق رسول الله (ص) حيث قال لي : « ياجابر ! ستدرك واحدا من أولادي اسمه اسمي ، يبقر العلوم بقرا » •

تذنيب

اقسام الصبر

الصبر بأعتبار حكمه ينقسم الى الاقسام الخمسة ، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض ، وعلى بعض المكاره وأداء المندوبات نفل ، وعلى الاذية التي يحرم تحملها حرام ، كالصبر على قطع يده ، او يد ولده ، او قصد حريمه بشهوة محظورة ، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع • وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محمودا ، بل بعض أنواعه ممدوح ، وبعض أنواعه مذموم ، والشرع محكم ، فما حسنه حسن، وما قبحه قبيح •

فصل

فضيلة الصبر

الصبر منزل من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الموحدين • وبه ينسلك العبد في سلك المقربين ، ويصل الى جوار رب العالمين • وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات اليه ، وذكره في نيف وسبعين موضعا من القرآن • ووصف الله الصابرين بأوصاف ، فقال عز من قائل :

« وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا لماصبروا »[٢٧] وقال : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا »[٢٨] وقال : « ولنجزين الذين

---

(٢٧) السجدة ، الآية : ٢٤

(٢٨) الاعراف ، الآية : ١٣٦

صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون٢٩ وقال : « أولئك يؤتـون أجرهم مرتين بما صبروا ٣٠ . فما من فضيلة الا واجرها بتقدير وحساب الا الصبر ، ولذا قال : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» ٣٢ . ووعد الصابرين بانه معهم ، فقال : « واصبروا ان الله مـع الصابرين »٣٢ وعلق النصرة على الصبر ، فقال : « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »٣٣ . وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى ، فقال : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»٣٤

والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء ، والاخبار المادحة له أكثر من أن تحصى . قال رسول الله (ص) : « الصبر نصف الايمان » . وقال (ص) : « من أقل ما اوتيتم اليقين وعزيمته الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولئن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب الي من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف انتفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه » . . . ثم قرأ قوله تعالى :

« ماعندكم ينفد وما عند الله باق » ٣٥

وقال (ص) : « الصبر كنز من كنوز الجنة » . وقال (ص) : « أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس » . ولا ريب في ان الصبر مما تكرهه النفوس ، ولذا قيل : (الصبر صبر) . وقال (ص) : « في الصبر على تكره خير كثير » . وقال (ص) : « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا ايمـان لمن لاصبر له » . وسئل (ص) عن الايمان ، فقال : « الصبر والسماحة » . وقال (ص) :

(٢٩) النحل ، الآية : ٩٦
(٣٠) القصص ، الآية : ٥٤
(٣١) الانفال ، الاية : ٤٧ .
(٣٢) آل عمران ، الآية : ١٢٥
(٣٣) البقرة ، الآية : ١٥٧
(٣٤) الزمر ، الآية : ١٠
(٣٥) النحل ، الآية : ٩٦

« ما تجرع عبد قط جرعتين ، أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ، ولا قطرت بقطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دم اهريقت في سبيل الله ، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب الى الله تعالى من خطوة الى الصلاة الفريضة ، وخطوة الى صلة الرحم » . وروى : « انه تعالى أوحى الى داود (ع) : ياداود ! تخلق باخلاقي ، وان من اخلاقي اني أنا الصبور » . وروى : « أن المسيح قال للحواريين : انكم لاتدركون ما تحبون الا بصبركم على ما تكرهون » [٣٦] . وقال (ص) : « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله : انا لله وانا اليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي واعقبني خيرا منها ، الا وفعل الله ذلك » . وقال (ص) : « قال الله عز وجل : اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله او ولده ، ثم أستقبل ذلك بصبر جميل ، استحييت منه أن انصب له ميزانا وانشر له ديوانا » [٣٧] . وقال (ص) : « الصبر ثلاثة : صبر عندالمصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الارض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الارض الى العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الارض الى منتهى العرش » . وقال (ص) : « سيأتى على الناس زمان لاينال الملك فيه الا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى الا بالغصب والبخل ، ولا المحبة الا باستخراج الدين واتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدرعلى المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، آتاه الله ثواب خمسين صديقا ممن صدق بي » [٣٨] . وقال (ص) : « ان الله تعالى قال لجبرئيل : ما جزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانك ! لاعلم لنا الا ما علمتنا .

(٣٦) صححنا النبويات على « احياء العلوم » : ٤/٥٣ ، كتاب الصبر
(٣٧) صححنا الرواية على « البحار » : مج ١٥ : ٢/ ١٤٨ ، باب الصبر واليسر بعد العسر

قال : جزاؤه الخلود في داري ، والنظر الى وجهي » • وقال (ص) لرجل قال له : ذهب مالي وسقم جسمي : « لاخير في عبد لايذهب ماله ولا يسقم جسمه ، ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه ، واذا ابتلاه صبره » • وقال(ص): « ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله تعالى لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك » • وقال (ص) : « اذا أراد الله بعبد خيرا ، وأراد ان يصافيه ، صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا، فاذا دعاه، قالت الملائكة صوت معروف ، واذا دعاه ثانيا ، فقال : يارب ! قال الله تعالى : لبيك عبدي وسعديك ! ألا تسألني شيئا الا أعطيتك ، او رفعت لك ما هو خير، وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه • فاذا كان يوم القيامة جيء بأهل الاعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان ، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا ، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب ، فذلك قوله تعالى : انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » • وقال (ص) : « اذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب ، وهو مقيم على معصيته ، فأعلموا أن ذلك أستدراج » ••• ثم قرأ قوله تعالى :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء »[٣٩]

يعني : لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات، حتى اذا فرحوا بما أوتوا ـــ أي بما أعطوا من الخير ـــ أخذناهم بغتة • وروى : « أن نبيا من الانبياء شكى الى ربه ، فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ، ويكون العبد الكافر لايطيعك ويجترى على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ! فأوحى الله تعالى اليه : أن العباد الي والبلاء لي ، وكل يسبح بحمدي • فيكون المؤمن عليه من الذنوب ، فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء ، فيكون كفارة

---

(٣٨) صححنا الرواية ، وكذا ماقبلها ، على «اصول الكافي» : ج٢ ، باب الصبر وعلى « الوافي » : ٢٢١/٢ ـــ ٢٢٣ ، باب الصبر .

(٣٩) الانعام ، الآية : ٤٤

لذنوبه حتى يلقاني ، فأجزيه بحسناته ، ويكون الكافر له من الحسنات ، فأبسط له في الرزق وأزوى عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته » [٤٠] • وعن أبي عبدالله (ع) قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله عز وجل : اني جعلت الدنيا بين عبادي قرضا، فمن أقرضني منها قرضا أعطيته بكل واحدة منهن عشرا الى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك ، ومن لم يقرضني منها قرضا فأخذت منه شيئا قسرا ، اعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني • قال: ثم تلا ابو عبدالله (ع) قوله عز وجل (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم » ، فهذه واحدة من ثلاث خصال ، (ورحمة) اثنتان ، (واولئك هم المهتدون) ثلاث • ثم قال ابو عبدالله (ع) : هذا لمن أخذ الله منه شيئا قسرا » • وقال أمير المؤمنين (ع) : « بنى الايمان على اربع دعائم : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل » • وقال امير المؤمنين (ع) « الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل ، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عزوجل عليك » • وقال علي (ع) : « الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الانبياء » • وقال أمير المؤمنين (ع) : « أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات ، فهو شهيد ، وان ضربه فمات ، فهو شهيد » [٤١] • وقال أمير المؤمنين (ع) : « من أجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك ، ولاتذكر مصيبتك » • وقال أمير المؤمنين (ع) : « ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله ؟ » قالوا : بلى ! فقرأ عليهم :

«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفوا عن كثير » ٤٢

فالمصائب في الدنيا بكسب الاوزار ، فاذا عافاه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وان عفى عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة » • وقال الباقر (ع) : « الجنة محفوفة بالمكاره والصبر ، فمن

---

(٤٠) صححنا الاحاديث الاربع على « احياء العلوم» : ١١٤/٤ ، باب الصبر

(٤١) صححنا الروايات الثلاث على «اصول الكافي » : ج٢ ، باب الصبر وعلى « الوافي» : ٣/٢٢١–٢٢٣ ، باب الصبر

(٤٢) الشورى ، الآية : ٣٠

صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة . وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار » . وقال (ع) : « مروة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى ، اكثر من مروة الاعطاء » (٤٣) وقال (ع) : « لما حضرت ابي علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة ، ضمني الى صدره ، ثم قال : يابني ! أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة ، وبما ذكر أن أباه أوصاه به ، قال : يابني اصبر على الحق وان كان مرا » . وقال الصادق (ع) : « اذا دخل المؤمن قبره ، كانت الصلاة عن يمينه ، والزكاة عن يساره ، والبر مطل عليه ، ويتنحى الصبر ناحيته . فاذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته ، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر : دونكم صاحبكم ، فان عجزتم عنه فأنا دونه » . وقال عليه السلام : « اذا كان يوم القيامة ، يقوم عنق من الناس ، فيأتون باب الجنة ، فيضربونه ، فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، فيقال لهم : على ما صبرتم ؟ فيقولون : كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله ، فيقول الله تعالى : صدقوا ! أدخلوهم الجنة . وهو قول الله تعالى : انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقال (ع) : « من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه ، كان له مثل أجر الف شهيد » . وقال (ع) : « ان الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا ، فصارت عليهم وبالا ، وابتلى قوما بالمصائب فصبروا ، فصارت عليهم نعمة » وقال عليه السلام : « من لايعد الصبر لنوائب الدهر يعجز » . وقال (ع) : « ان من صبر صبر قليلا ، وان من جزع جزع قليلا ... ثم قال : عليك بالصبر في جميع أمورك ، فان الله عز وجل بعث محمدا (ص) فأمره بالصبر والرفق ، فقال :

« واصبروا على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » ٤٤

وقال ابو الحسن (ع) لبعض أصحابه : « ان تصبر تغتبط ، والا

(٤٣) قال العلامة « المجلسي » ـ قدس سره في «بحار الانوار »: مج١٥ ج٢ ، في باب الصبر على المصيبة ، في ذيل هذا الخبر : « بيان المروة : هي الصفات التي بها تكمل انسانية الانسان »

(٤٤) المزمل ، الآية : ١٠

تصبر يقدر الله مقاديره ، راضيا كنت أم كارها » [٤٥] • والاخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه وأجره آكثر من أن تحصى • ولذلك كان الاتقياء والاكابر محبين طالبين له ، حتى نقل : « ان واحدا منهم دخل على ابن مريض له ، فقال : يابني ! لئن تكن في ميزاني أحب الي من أن أكون في ميزانك • فقال : ياأبه ! لئن يكن ماتحب أحب الي من ان يكون ما أحب » • وقال بعضهم : « ذهبت عيني منذثلاثين سنة ، ماعلم بهأحد » •

فصل

الصبر على السراء

كل ما يلقى العبد في الدنيا ، وما يوافق هواه ، أو لايوافقه ، بل يكرهه ، وهو في كل منهما محتاج الى الصبر • اذ ما يوافق هواه ؛كالصحة الجسمية ، واتساع الاسباب الدنيوية ، ونيل الجاه والمال ، وكثرة الاولاد والاتباع ، لو لم يصبر عليه ، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به ، أدركه الطغيان والبطر • (فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) • وقال بعض الاكابر : « البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لايصبر عليها الا الصديق » • وقال بعض العرفاء : « الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء » • ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش، قالوا : « ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلا تقدر على الصبر عليها » • ومن هنا قال الله سبحانه :

« يأايها الذين آمنوا لاتلهكم اموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله »[٤٦] •وقال « ان من ازواجكم وأولادكم عدوا لكم » [٤٧]

ومعنى الصبر على متاع الدنيا : ألا يركن اليه ، ويعلم أنه مستودع عنده ، وعن قريب يسترجع عنه ، فلا ينهمك في التنعم والتلذذ ، ولا يتفاخر

(٤٥) صححنا الاحاديث الواردة عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ في باب الصبر على الجزء الثاني من اصول الكافي باب الصبر ، وعلى الوافي : ٣/٢٢١ ـ ٢٢٢ ، كتاب الصبر

(٤٦) المنافقون ، الآية : ٩

(٤٧) التغابن ، الآية : ١٤

به على فاقده من أخوانه المؤمنين ، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي منصبه بأعانة المظلومين ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه .

والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء : أنه ليس مجبورا على ترك ملاذ الدنيا ، بل له القدرة والتمكن على التمتع بهـا ، بخلاف البلاء ، فانه مجبور عليه ، ولا يقدر على دفعه ، فالصبر عليه أسهل. ولذا ترى أن الجائـع اذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه اذا قدر عليه .

وأما مالا يوافق هواه وطبعه ، فله ثلاثة أقسام :

الاول ــ مايكون مقدورا للعبد ، كالطاعات والمعاصي . أما الطاعة، فالصبر عليها شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عنها ،وتشتهي التقهر والربوبية كما يأتي وجهه ، ومـع ذلك يثقل عليها بعض العبادات بأعتبار الكسل ، وبعضها بأعتبار البخل ، وبعضها بأعتبارهما ، كالحج والجهاد ، فلا تخلو طاعة من أعتبار يشق على النفس أن تصبر عليه ، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها الى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة ، اذ يحتاج اليها قبل العمل في تصحيح النية والاخلاص ، وتطهيرها عن شوائب الرياء ، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في أثنائه ، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه، ويستمر على ذلك الى الفراغ وبعد الفراغ عنه ، لئلا يتطرق اليه العجب ، ولا يظهر رياء وسمعة . والنهي عن ابطال العمل وعن ابطال الصدقات بالمن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر . وأما المعاصي ، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس . فصبرها عليها شديد ، وعلى المألوفة المعتادة أشد ، اذ العادة كالطبيعة الخامسة ، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها ، فان الاستبعاد في مثل لبس الحرير أكثر من الاستبعاد في أطلاق اللسان طول النهار في أعراض الناس ، مع أن الغيبة أشد من الزنا ، كما نطقت به الاخبار . فاذا أنضافت العادة الى الشهوة ، ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله ، فيصعب تركها .

ثم المعصية ان كانت مما يسهل فعلها ،كان الصبر عنها أشد ، كمعاصى

اللسان من الغيبة والكذب ، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ماتقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية ، كالكلمات التي توجب نفي الغير ، والقدح فيه ، والثناء على ذاتها تصريحا أو تعريضا ، كان الصبر عنها أشد. اذ مثل ذلك — مع كونه مما تيسر فعله وصار مألوفا معتادا — أنضافت اليه شهوتان للنفس فيه : احداهما نفى الكمال من غيرها ، وأخراهما اثباتــه لذاتها . وميل النفس الى مثل تلك المعصية في غاية الكمال ، اذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلوء ، فصبرها عنها في غاية الصعوبة . وقد ظهر مما ذكر : أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصي انما يصدر من اللسان. فينبغي لكل أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروى على كلام يريد أن يتكلم به ، فان لم يكن معصية تكلم به ، والا تركه ، ولو لم يقدر على ذلك ، وكان لسانه خارجا عن أطاعته في المحاورات ، وجبت عليه العزلة والانفراد ، وتركه التكلم مع الناس ، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه . ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف فيآحاد المعاصيبأختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفا ، فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم ان داعية نفسه الى أي معصية أشد ، فيكون سعيه في تركها أكثر . ثم حركة الخواطر بأختلاج الوساوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقبائح الكلمات ، فلا يمكن الصبر عنها أصلا ، الا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه ، كمن أصبح وهمومه همواحد . وأكثر جولان الخاطر انمايكون في فائت لاتدارك له ، او في مستقبل لابد وان يحصل منه ما هو مقدور . وكيف كان ، فهو تصور باطل ، وتضييع وقت . اذ آلة استكمال العبد قلبه ، فاذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنسا بالله ، او فكريستفيد به معرفة بالله ، ويستفيد بالمعرفة حب الله ، فهو مغبون .

الثاني — ما ليس حصوله مقدورا للعبد ، ولكنه يقدر على دفعــه بالتشفى ، كما لو أوذي بفعل او قول ، او جنى عليه في نفسه او ماله ، فان حصول الاذية والجناية وان لم يرتبط بأختياره ، الا أنه يقدر على التشفي من المؤذي اوالجاني بالانتقام منه ، والصبر على ذلك بترك المكافات . وهو قــد يكون واجبا ، وقد يكون فضيلة ، وهو أعلى مراتب الصبر .

ولأجل ذلك خاطب الله نبيه (ص) بقوله :

« واصبروا كما صبر اولو العزم من الرسل » ٤٨ وبقوله : « فاصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » ٤٩ . وبقوله : « ودع اذاهم وتوكل على الله ٥٠ وقال : « ولتسمعن من الذين اوتــو الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور »٥١ . وقال « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»٥٢

وقال رسول الله (ص) : « صل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » وروى : « أنــه (ص) قسم مرة مالا ، فقال بعض الاعراب من المسلمين : هذه قسمة ماارید بها وجــه الله ! فاخبر به رسول الله ، فاحمرت وجنتاه ثم قال : رحم الله أخي موسى ، قد اوذى باكثر من هذا فصبر»

الثالث ــ ماليس مقدورا للعبد مطلقا ، كالمصائب والنوائب . والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة ، ولا ينال الا ببضاعة الصديقين ، والوصول اليه يتوقف على اليقين التام . ولذا قال النبي (ص) : « أسألك من اليقين مايهون على مصائب الدنيا » . وقد تقدم بعض الاخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر . وقال (ص) : « قال الله : اذا ابتليت عبدى ببلائى فصبر ، ولم يشكنى الى عواده ، أبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمــه ، فان ابرأته ابرأته ولاذنب له ، وان توفيته فالى رحمتى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من اجلال الله ومعرفة حقه : ألا تشكو وجعك ، ولاتذكر مصيبتك » . وقال (ص) : « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، اولئك لهم الامن وهم مهتدون » . وقال (ص) : « ان الله ــ تعالى قال لجبرائيل : ماجزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانك ! ! لاعلم لنا الا ماعلمتنا . قال : جزاؤه الخلود في دارى ، والنظر الى وجهى» . وقال داود (ع) : « يارب ! ماجزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟

---

(٤٨) الاحقاف ، الآية : ٣٥
(٤٩) المزمل ، الآية : ١٠
(٥٠) الاحزاب ، الآية : ٤٨
(٥١) آل عمران ، الآية : ١٨٦
(٥٢) النحل ، الآية : ١٢٦

قال : جزاؤه ان ألبسه الامان ، لاانزعه عنه ابدا » •وقال لابنه سليمان(ع) « يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر في ما قد فات » • وروى : « ان من ابتلى بموت ثلاثة ادلاد ، لم يرد على النار أصلا » •

تذنيب

اختلاف مراتب الصبر فى الثواب

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها ، فهو راجع الى الصبر عن المعصية • وعلى هذا فاقسام الصبر ثلاثة : الصبر على المصائب والنوائب ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية• ثم ما تقدم من الخبر النبوى صريح في كون الاول أقل ثوابا ، والاخراكثر ثوابا ، والوسط وسطا بينهما • وربما ظهر من بعض الاخبار : كون الاول أكثر ثوابا • وأبو حامد الغزالي رجح الاول أولا ، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخبر النبوى ، ثم رجح الثانى ثانيا محتجا بماروى عن ابن عباس أنه قال : « الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه :صبرعلىأداء فرائض الله — تعالى — فله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى — وله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى ، فله تسعمائة درجة » • وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه الا ببضاعة الصديقين ، لكونه شديدا على النفس •

وعندى : ان القول بكون أحدهما أكثر ثوابا على الاطلاق غيرصحيح اذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة ،أكثر ثوابا من الصبر على موت كثير من أعز الاولاد بعيد ، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثوابا من كف النفس عن كبائر المعاصى ، وفطامها عن ألذ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد ، فالصواب :التفضيل بأن كل صبر من أي قسم كان من الثلاثة اذا كان على النفس أشد وأشق فثوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر ، كائنا ما كان ، لما ثبت وتقرر انافضل الاعمال أحمزها ، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الاخبار •

فصــــل

طريق تحصيل الصبر

الطريق الى تحصيل الصبر : تقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الهوى والاول : انما يكون بأمور :

الاول — ان يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والاخرة ، وان يعلم ان ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما فات ، وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، اذ فاته ما لايبقى معه الامدة الحياة في الدنيا ، وحصل له مايبقى بعد موته أبد الدهر ، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة ، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية . ومن اسلم خسيسا في نفيس ، فلا ينبغي ان يحزن بفوات الخسيس في الحال .

الثاني — ان يتذكر قلة قدرة الشدة الدنيوية ووقتها واستخلاصه عنها عن قريب ، مع بقاء الاجر على الصبر عليها .

الثالث — ان يعلم ان الجزع قبيح مضر بالدين والدنيا ، ولايفيد ثمرة الا حبط الثواب وجلب العقاب ، كما قال امير المؤمنين (ع) : « ان صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور ،وان جزعت جرت عليك المقادير وانت مازور

الرابع — ان يعود مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجا حتى يدرك لذة الظفر بها فيتجرى عليها ، ويقوى متنه في مصارعتها . فان الاعتياد والممارسة للاعمال الشاقة يؤكد القوى التى تصدر منها تلك الاعمال . ولذا تزيد قوة الممارسين للاعمال الشاقة — كالحمالين والفلاحين — على قوة التاركين لها فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء واراد .

وأما الثاني : أعنى تضعيف الهوى ، انما يكون بالمجاهدة والرياضة ، من الصوم والجوع وقطع الاسباب المهيجة للشهوة من النظر الى مظانها وتخيلها ، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذى يشتهيه بشرط الا يخرج عن القدر المشروع .

تتميم

ان قيل : الصبر في المصائب ان كان المراد به الا تكون في نفسه كراهة المعصية ، فذلك داخل تحت الاختيار ، اذ الانسان مضطر الى الكراهة ، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب ؟

قلت : من كان عارفا بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره ، بأن يعلم يقينا بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أوسعة ، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض من ذلك مما يعده شرا ، فأمر عرضى لايمكن نزع الخير المقصود منه ، وان ذلك اذا كان متيقنا له ، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن، وطابت بقضائه وقدره ، وتوسع صدره بمواقع حكمه ، وايقن بأن قضاءه لم يجر الا بالخيرة • وقد أشار الى ذلك أمير المؤمنين (ع) بقوله : « اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين » • ون بلغ بهذه الدرجة، يتلذذ وبكل ما يرد عليه • ومثله يتمتع بثروة لا تنفد ، ويتأيد بعز لا يفقد ، فيسرح في ملك الابد ، ويعرج الى قضاء السرمد • هذا مع أن العبد انما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى ، واظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها ، وهذه الامور داخلة تحت اختياره ، فينبغي ان يجتنب عنها ،ويظهر الرضا بالقضاء ، ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع ، لان ذلك مقتضى البشرية • ولذلك لمامات ابراهيم ولد النبي (ص) فاضت عيناه بالدمع ، فقيل له : أما نهيتنا عن هذا ؟ قال : « هذه رحمة ، انما يرحم الله من عباده الرحماء » • وقال ايضا (ص) : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا يقول ما يسخط الرب » • بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا ايضا ، فان المقدم على الفصد والحجامة راض به ، مع انه متألم بسببه لامحالة • نعم ، من كمال الصبر كتمان المصائب ، لما ورد من أن كتمان المصائب والاوجاع والصدقة من كنوز البر • وقد ورد المدح في كثير من الاخبار على عدم الشكاية من الامراض والمصائب • وقال الباقر (ع) : « الصبر الجميل ، صبر ليس فيه شكوى الى الناس » • وفي بعض الاخبار:

« أن الشكاية أن تقول : ابتليت بما لم يبتل به أحد ، واصابني مالم يصب أحدا ، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة ، وحميت اليوم ، ونحو ذلك » . وقال الصادق (ع) : « من اشتكى ليلة ، فقبلها بقبولها ، وأدى الى الله شكرها ، كانت كعبادة ستين سنة » ، قيل له : ما قبولها ؟ قال : « يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها ، فاذا اصبح حمد الله على ما كان » .

تتميم
التلازم بين الصبر والشكر

اعلم أنه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر ، فرجح كلا منهما على الآخر طائفة . والظاهر أنه لا ترجيح لاحدهما على الآخر ، لانهما متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر . اذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر ، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكرا ، كما مر في باب الشكر . والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر ، لما مر من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعما ، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم ، ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيما لله — سبحانه — . وهذا هو الشكر بعينه ، لانه تعظيم لله يمنع عن العصيان ، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس اليه ، وهذا هو عين الصبر عن المعصية . وأيضا ، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر ، فكل صبر يستلزم الشكر ، وبالعكس .

وبالجملة : لاريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر ، فان اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية ، بل اتحادهما فيهما ، أمر ظاهر ، كما تقدم . وفي البلاء المقيد الدنيوي ، اذا حصل فيه الصبر ، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له ، من الثواب الاخروي ، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة الى الآخرة ، فيشكر على ذلك . فهو لاينفك عن الشكر ، لانه يعرف هذه النعم من الله ، كما يعرف البلاء ايضا من الله فيفرح بالنعم ، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره . وفي النعمة المقيدة مثل المال ، اذا توسل به الى تحصيل الدين ، فلا ريب في انه كما تحقق فيه الشكر تحقق فيه الصبر ايضا . اذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين

حبس النفس عما تحبه وتميل اليه ، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. وفي البلاء المطلق ، كالكفر والجهل، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه ، وفي النعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم وحسن الاخلاق ، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر ايضا . اذ تحصيل السعادة ، والعلم ، والاخلاق الفاضلة ، والابقاء عليها ، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه . مع ان الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران وهو الصبر على المعصية . حتى أن شكر العينين بالنظر الى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم ، والنظر الى ما تميل اليه النفس من النظر الى غير المحارم وأمثال ذلك .

فان قيل : استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه، الا أن الكلام في أنه اذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل ، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما ، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقق جهتين ، فأي الجهتين أفضل ؟ مثل أن يبتلى أحد بمصيبة دنوية ، فصبر عليها ، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب ، وشكر عليها ايضا ، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الاخروي وغيرها من الله ، وفرح بها ، وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة اخرى ، فهل الافضل حينئذ جهة الصبر ، او جهة الشكر ؟

قلنا : التأمل يعطي : أن كل صبر هو شكر بعينه ، وبالعكس . فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما . فان الصبر على البلاء انما هو حبس النفس عن الجزع تعظيما لله . وهذا هو عين الشكر اذ كل طاعة لله — سبحانه — شكر ، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران ، وهو عين الصبر عن المعصية .

فان قلت : فعلى هذا ، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة ، وقد تقدم انهما متضادان ، اذ الصبر يستدعي ألما ، والشكر يستدعي فرحا ، وقد ذكرت ان اجتماع الصبر والشكر في محل واحد انما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة .

قلنا : امتناع الاتحاد فيهما انما هو في الصبر والشكر على ما هو كان

نعمة وبلاء بعينه ، فانه لايمكن أن يكون الصبر على فوت ولد ـ اعني حبس النفس عن الجزع ـ هو عين الشكر على النعمة ، اذ موت الولد بعينه ليس نعمة ، بل هو مستلزم للنعمة . فالشكر على اللازم ، والصبر على الملزوم. فاختلفت جهتا الصبر والشكر ،فلا اتحاد . وما ذكرناه من الاتحاد انما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية ، أو على البلاء والطاعة. وندعي أن من وصلت اليه نعمة ، فشكر عليها بعرفانها من الله ، ففرح بها وعمل بمقتضى الفرح ، من التحميد أو طاعة اخرى ، كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هي الكفران ، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره. كذا من ابتلى ببلية ، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع ، فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع ، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب . وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل صبر وشكر ، ولا يتحقق شكر لايكون عن الصبر من هذا الوجه،وبالعكس. وليس بينهما تضاد وتغاير اصلا ، واستلزم واختلاف الجهة انما هو في٥٦ الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم ؛ولا يمكن هنااتحادهما لتضادهما ؛ وفي هذه الصورة ؛ يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر ؛ من حيث ملاحظة الاعتبار السابق فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضا .

فان قيل : عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر ، وليس داخلا في الصبر ، فينبغي أن يكون الشكر لذلك افضل من الصبر .

قلنا : في الشق الاول من صورة العينية والاتحاد ، يكون عرفان النعمة داخلا في الصبر ، وفي الشق الثاني منهما ، وفي صورة الاستلزام ، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر . فكما أن الشاكر يرى نعمة العينين من الله ، فكذا الصابر يرى العمى من الله ، فهما في المعرفة متساويان . ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر انما اذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم [1] ، وعلى هذا يكون

(١) قال استاذ البشر المحقق «الطوسى» ـ قدس سره ـ في تعريف الصبر « الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه ، وهو يمنع الباطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية ، والاعضاء عن الحركات غير المعتادة . »

الرضا فوقه ، لو قطع النظر عن كون الصبر شكرا أيضا ، ويكون الشكر فوق الرضا ، اذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لايمكن الا على محبوب يفرح به ، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم ، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته ، اذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به ، لانه يراه من محبوبه . وحينئذ ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر ، وبدونها رضا ، ومع الفرح به شكر .

تنبيه

القانون الكلي في معرفة الفضائل

اعلم أن المعيار والقانون الكلي في معرفة فضائل الاعمال والاحوال وترجيح بعضها على بعض عند ارباب القلوب : أن العمل كلما كان اكثر تأثيرا في اصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وأشد اعدادا له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفاته وأفعاله ، كان أفضل . وعلى هذا القانون ، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما ،لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما ، اذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته ، وسبب الاختلاف اسباب:

منها ــ الاختلاف بين اقسام النعم وأقسام البلاء .

ومنها ــ اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين في الشكر،واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة . فربما كان بعض درجات الصبر أشد تنويرا وأكثر اصلاحا للقلب من بعض درجات الشكر ، وربما كان الامر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما . فان الاعمال والاحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة ،وباختلافها ــ كثرة وقلة ــ تختلف درجاتهما. فمن الامور والاحوال التي تندرج تحت الشكر : حياء العبد من تتابع نعم الله عليه ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر ،واعتذاره من قلة الشكر ،واعترافه بأن النعم ابتداء من الله ــ تعالى ــ من غير استحقاقه لها ، وعلمه بأن الشكر ايضا نعمة من نعمه ومواهبه ،وحسن تواضعه بالنعم ، والتذلل ، وقلة اعتراضه ، وحسن ادبه بين يدي المنعم وتلقى النعم بحسن القبول ،واستعظام

صغيرها ، وشكر الوسائط ، لقوله (ص) : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » . وقال السجاد (ع) : « أشكركم لله أشكركم للناس » . وقال (ع) : « يقول الله — تعالى — لعبد من عبيده يوم القيامة : أشكرت فلانا ؟ فيقول : بل شكرتك يارب ! فيقول : لم تشكرني اذ لم تشكره » . وقال الصادق (ع) : « اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك » . ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الاحوال في الشكر ، وطال زمانه ، ازداد فضله . وقد نقل : « أن رجلا (كان) يهوى ابنة عم له ، وهي ايضا تهواه ، فاتفق مزاوجتهما فقال الرجل ليلة الزفاف لها : تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا ، فقالت : نعم ! فصليا تلك الليلة بأسرها ، ولم يتفرغ احدهما الى صاحبه . فلما كانت الليلة الثانية ، قالا مثل ذلك ، فصليا طول الليل ... فهكذا يفعلان في ثمانين سنة ، وبقيا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة ، من دون رجوع لاحدهما الى الآخر ، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما ، فضلا عن شيء آخر » . ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من صبرهما على بلاء العزوبة لو لم يحصل بينهما الجمع والوصول .

تتميم

تفضيل الصبر على الشكر

أعلم ان الظاهر من بعض الاخبار : أن الصبر أفضل وأكثر ثوابا من الشكر . كما روى : « أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الارض ، فيجزيه الله جزاء الشاكرين . ويؤتى بأصبر أهل الارض ، فقال له : أترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول : نعم يارب ! فيقول الله تعالى : كلا ! أنعمت عليه فشكر ، وابتليتك فصبرت ، لاضعفن عليك الأجر عليه! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » . وكقوله (ع) : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » . وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر ، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه . وكقول الباقر (ع) : « مروة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى ، اكثر من مروة الاعطاء » . ويؤيد ذلك قوله تعالى : (انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) . وينبغى ان يرتكب في أمثال هذه الاخبار تقييدان :

أحدهما ــ التقييد ببعض المراتب ، بأن يقال : المراد ان بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر . وهذا مما لاريب فيه ، فان من سلب أعز أولاده وابتلى بالفقر والمرض ، ومع ذلك صبر ولم يجزع ، فهو أفضل البتة ممن اعطى مالا كثيرا فقال : شكرا لله ، الحمد لله ، من دون أبداءعمل آخر من الطاعات . وليس المراد أن كل ما يسمى صبرا أفضل من كل درجة من درجات الشكر . اذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات ، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية ، من دون فتور ، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت‌منه.

وثانيهما ــ التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر . فان الجمهور لايفهمون من حبس النفس‌عن الجزع عند الابتلاء ببلية الا الصبر ، ولا يلتفتون الى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله ، وهو عين الشكر . وكـذا لايفهمون من اظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة الا الشكر ، ولا يلتفتون الى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران ، وهو الشكر بعينه .

ومنها :

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته . وضده الطاعة ، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له باداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة . وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي : الطهارة ، والصلاة ، والذكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن ، والصوم ، والحج ، وزيارة النبي (ص) والائمة عليهم السلام : والجهاد في‌سبيل الله ، واداء المعروف ، الشامل للزكاة ، والخمس، والصدقة المندوبة ، وغيرها . والاخير ــ اعني أداء المعروف بأقسامه ــ قد تقدم . والجهاد في هذا الزمان ساقط . فنشير الى بعض الاسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي ، في مقاصدوخاتمة . وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة ، فهي مذكورة في الفقهيات .

المقصد الاول

الطهارة ــ حقيقة الطهارة ــ ما ينبغي للمؤمن في الطهارة ــ أزالة

الاوساخ ـ آداب الحمام ـ السر في ازالة الاوساخ .

أعلم ان الطهارة والنظافة أهم الامور للعباد . اذ الطهارة الظاهرة وسيلة الى حصول الطهارة الباطنة ، وما لم تحصل الاولى لم تحصل الثانية. ولذا ورد في مدحها ما ورد ، قال الله سبحانه :

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين » (٢) . وقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم »(٣) .

وقال رسول الله (ص) : « بني الدين على النظافة » . وقال (ص): « الطهور نصف الايمان » . وقال (ص) : « مفتاح الصلاة الطهور ». وقال (ص) : « بئس للعبد القاذورة » . وقال (ص) : « من اتخذ ثوبا فلينظفه » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « النظيف من الثياب يذهب الهمّ والحزن ، وهو طهور للصلاة » .

ثم للطهارة أربع مراتب :

الاولى ـ تطهير الظاهر من الاحداث والاخباث والفضلات .

الثانية ـ تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات .

الثالثة ـ تطهير القلب من مساوي الاخلاق ورذائلها .

الرابعة ـ تطهير السرّ عما سوى الله تعالى ، وهي تطهير الانبياء والصديقين . والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها ، اذ الغاية القصوى في عمل السرّ أن ينكشف له جلال الله وعظمته ، وتحصل له المعرفة التامة ، والحب والانس . ولا يمكن حصول ذلك مالم يرتحل عنه ماسوى الله ، ولذلك قال الله تعالى :

« قل الله ثم ذرهم » ٤ . فان الله وغيره لايجتمعان فى قلب واحد : « وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » (٥).

فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله ، والنصف الآخر شروق نور

(٢) التوبة ، الآية : ١٠٩
(٣) المائدة ، الآية : ٧
(٤) الانعام الآية : ٩١ .
(٥) الاحزاب الآية : ٤

الحق فيه . والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالاخلاق المحمودة ، والعقائد الحقة المشروعة . ولا يتصف بها مالم ينظف عن نقائضها ، من الاخلاق المذمومة ، والعقائد الفاسدة . فتطهيرها عنها أحد الشطرين ، والشطر الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقة .

وأما عمل الجوارح ، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات . ولا يمكن ذلك مالم يطهر عن المعاصي والمناهي . فهذا التطهير نصف عملها ، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات . وقس على ذلك الحال في المرتبة الاولى . والى ذلك الاشارة بقول النبي (ص) : « الطهور نصف الايمان » . فان المراد : أن تطهير الظاهر ، والجوارح ، والقلب ، والسر ، من النجاسات والمعاصي ورذائل الاخلاق وما سوى الله نصف الايمان ، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الاخلاق ، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله . ولا تظنن أن مراده (ص) أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بافاضة الماء نصف الايمان ، مع تلوث الجوارح بأخباث المعاصي ، وتنجس القلب بأقذار مساوي الاخلاق ، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله . فالمراد التطهير في المراتب الاربع ، التي هي من مقامات الدين ، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض ، ولا يمكن أن ينال العبد ماهو الفوق ، مالم يتجاوز ما دونه ، فلا يصل الى طهارة السر مما سوى الله ، وعمارته بمعرفة الله ، وانكشاف جلاله وعظمته ، مالم يفرغ عن طهارة القلب عن الاخلاق المذمومة ، وتحليته بالملكات المحمودة . ولا يصل الى ذلك مالم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات . ولا يصل الى ذلك مالم يفرغ عن ازالة الخبث والحدث عن الظاهر ، وعمارته بالنظافة والنزاهة .

فصل

حقيقة الطهارة

طهارة الظاهر ، اما عن الخبث ، او عن الحدث ، او عن فضلات البدن ، وما يتعلق بها من الاحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة ، مستقصاة في كتب الفقه .

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وازالته عند التخلي لقضاء الحاجة ،

أن يتذكر عنده نقصه وحاجته ، وخبث باطنه ، وخسة حاله ، وما يشتمل عليه من الاقذار ؛ وكونه حامل النجاسات ، ويتذكر بأستراحة نفسه عند أخراجها ، وسكون قلبه عن دنسها ، وفراغه للعبادات والمناجات ، وأن الاخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة ، وأقذار كامنة ، لتستريح نفسها عند أخراجها ، ويطمئن قلبه من ازالة دنسها ، وعند أخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة ، ويتأهل للقرب والوصول الى حريم العزة . فكما يسعى في أخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا ، فينبغي أن يجتهد أيضا في اخراج الاقذار الباطنة ، والنجاسات الداخلة الغائضة [٦] في الاعماق ، المفسدة على الاطلاق ، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد . قال الصادق (ع) : « انما سمي المستراح مستراحا لاستراحة النفس من أثقال النجاسات ، واستفراغ الاقذار والكسافات فيها . والمؤمن يعتبر عندها ان الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته ، فيستريح بالعدول عنها وتركها ، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال ، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين . فان الراحة في هوان الدنيا ، والفراغ من التمتع بها ، وفي ازالة النجاسة من الحرام والشبهة . فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته اياها ، ويفر من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه ، طلبا لحسن المآب ، وطيب الزلفى . ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات ، الى أن يتصل بأمان الله تعالى في دار القرار ، ويذوق طعم رضاه ، فان المعول على ذلك ، وما عداه فلا شيء » [٧] . وينبغي أن يتأمل في ان ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيه ، ويحترص في طلبه من لذائذ الاطعمة ، وكلما كانت ألذ عفوتها أشد ، فما

(٦) الغائضة : الغائر . غيض الدمع حبسه واخفاه

(٧) الحديث مذكور فى « مصباح الشريعة » ، الباب التاسع وفى « مستدرك الوسائل » : ٣٧/١ — ٣٨ ، كتاب الطهارة . وفى الموضعين اختلاف كثير عما ذكر هنا ، فصححناه كما كان فى الموضعين .

كانت عاقبته ذلك ، فليحذر من أن يأخذه من غير حله ، فيعذب أبد الآباد لأجـله .

فصـــل

ما ينبغي للمؤمن في الطهارة

ينبغي لكل مؤمن ان يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث : أن تكليفه بها للدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات انما هو لكون أعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للأمور الدنيوية ، منهمكة في الكدورات الطبيعية ، فخرجت عن أهليـة القيـام بين يدي الله سبحانه ، والاشتغال بعبادته . فالامر بغسلها ، لتتطهر عن هذه الكدورات ، فيتأهل للمناجاة . ولا ريب في أن مجرد غسلها لايطهرها عن الادناس الدنيوية والكدورات الجسمانية ، مالم يطهر قلبه عن الاخلاق الذميمة ، والعلائق الدنيوية ، وما لم يعزم على الرجوع الى الله ، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها . فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهرا عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات ، جازما على فطام الاعضاء التي هي أتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا ، لتسرى نوريته وطهارته الى تلك الاعضاء ، ثم أمر في الوضوء أولا : بغسل الوجه، الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة ، التي هي أعظم الاسباب الباعثةعلى مطالب الدنيا ، ليتوجه ويقبل بوجه للقلب على الله ، وهو خال من تلك الادناس ،وثانيا : بغسل اليدين ، لمباشرتهما أكثر الامور الدنيوية والمشتهيات الطبيعية المانعة من الاقبال على الآخرة ، وثالثا : بمسح الرجلين ، للتوصل بهما الى أكثر المطالب الدنيوية ، والمقاصد الطبيعية . فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها في العبادات والاقبال عليها . وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة ، لأن أدنى حالات الانسان وأشدها تعلقا بالملكات الشهوية حالة الوقاع ، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « تحت كل شعرة جنابة » . فحيث كان جميع بدنه بعيدا عن المرتبة العلية ، منغمسا في اللذات الدنية ، كان غسله أجمع منأهم المطالب الشرعية ، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة ، والدخول في العبادةالمنيفة. وأمر في التيمم بمسح الاعضاء بالتراب ، عند تعذر غسلها بالماء ،وضعالتلك

الاعضاء الرئيسة ، وهضما لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة .

ثم لما كان القلب هو الرئيس الاعظم لهذه الجوارح والاعضاء ، والمستخدم لها في تلك الامور المبعدة عن جنابه تعالى ، وهو الموضع لنظر الله سبحانه ، كما قال (ص) : « ان الله لاينظر الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » ، فله من ذلك الحظ الاوفر والنصيب الاكمل . فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الاعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل . واذا لم يمكن تطهيره من الاخلاق الرذيلة ، وتحليته بالاوصاف الجميلة ، لرسوخه على حب الدنيا الدنية ، فليقمه في مقام الهضم والازراء ، ويسقه بسياط الذل والاغضاء . كما أنه عند تعذر غسل الاعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب ، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره ، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع ، فانه عند المنكسرة قلوبهم ، كما ورد في الاثر ، فترق من هـذه الاشارات ونحوها الى ما يوجب لك الاقبال ، ويتدارك سالف الاهمال .

ثم ما ذكر من السر في الطهارة ، يمكن استنباطه — مع الزيادة — من كلام مولانا الصادق (ع) في (مصباح الشريعة) ، حيث قال : « اذا أردت الطهارة والوضوء ، فتقدم الى الماء تقدمك الى رحمة الله ، فان الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ، ودليلا الى بساط خدمته ، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لاغيره ، قال الله تعالى :

« وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا » (٨) . وقال الله — تعالى — : « وجعلنا من الماء كل شيء حي أفـلا يؤمنون » (٩) .

فكما أحيى به كل شيء من نعيم الدنيا ، كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات . وتفكر في صفاء الماء ورقتـه ، وطهره وبركته ، ولطيف أمتزاجه بكل شيء . واستعمله في تطهير الاعضاء التي أمرك الله

---

(٨) الفرقان ، الآية : ٤٨

(٩) الانبياء ، الآية : ٣٠

بتطهيرها ، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسننه • فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة ، فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب، ثم عاشر خلق الله تعالى كإمتزاج الماء بالاشياء ، يؤدي كل شيء حقه ، ولا يتغير عن معناه ، معتبرا لقول الرسول (ص) : (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء) • ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهورا ، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء » [١٠] •

ومن الاسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الاعضاء بالتطهير في الوضوء ، ما أشار اليه مولانا الرضا (ع) بقوله : « انما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرا اذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته اياه ، مطيعا له فيما أمره ، نقيا من الادناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل ، وطرد النعاس ، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار • وانما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين ، لأن العبد اذا قام بين يدي الجبار، فانما ينكشف من جوارحه ويظهر مايجب فيه الوضوء ، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع ، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد • وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء ، لأن الجنابة من نفس الانسان ؛ وهو شيء يخرج من جميع جسده والخلاء ليس هو من نفس الانسان ، انما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب » [١١] •

---

(١٠) صححنا الحديث على «مصباح الشريعة » ، الباب العاشر . وعلى «المستدرك» : ١/٥١–٥٢ كتاب الطهاره

(١١) هذه الرواية نقلها العلامة «المجلسي»– قدس سره – فى «البحار» ٥٦/١٨ ، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه ، وعن «العيون والعلل» لشيخ المحدثين مولانا «الصدوق – رضوان الله عليه –ولم اعثر عليها الافى الموضع المذكور من «بحار الانوار» .

ولايخفى ان مانقله العلامة « المجلسى »–قدس الله روحه –فى الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر فى نسخ « جامع السعادات» الخطية والمطبوعة ، بحيث لايمكن تصحيح الرواية الا بنقلها من «البحار» وذكرها فى هامش الكتاب وذلك غير ممكن ، لضيق المقام ، فلاجله تركنا تصحيحها ، لعل القارىء الكريم يقف على مصدر آخر لها فمن ارادالاطلاع على الرواية ،فعليه بمراجعة«البحار» فى الموضع المذكور

فصل

ازالة الاوساخ

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه ، كشعر الرأس بالحلق ، وشعر الانف والشارب وما طال من اللحية بالقبض ، وشعر الإبط والعانة وسائر الاعضاء بالنورة ، وكأظفار اليدين والرجلين بالقلم ، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط ، وما يجتمع من الوسخ فيمعاطف الاذنين بالمسح ومثله ، ومايجتمع منه على الاسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة ، وما يجتمع في الانف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق ، وما يجتمع من الوسخ تحت الاظفار بالقلم والغسل ، وما يجتمع منهفي رؤس الانامل وفي معاطف ظهورها عقيب أكل الطعام بالغسل ، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه ،وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام .

تنبيه

آداب الحمام

ينبغي لمن يدخل الحمام ، أن يتذكر بحرارته حرّ النار ، ويقدّر نفسه محبوسا في البيت ساعة ، ويقيسه الى جهنم ، ويستعيذ بالله منها . قال الصادق (ع) : « فاذا دخلت البيت الثالث ، فقل : نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة . وترددها الى وقت خروجك من البيت الحار » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « نعم البيت الحمام ، يذهب بالدرن ، وتذكر فيه النار» . وفيه أشارة الى أنه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة ، فانها مقره ومستقره . فيكون له في كل ما يراه ، من ماء أو نار أو غيرهما ، عبرة وموعظة . فان المرأ ينظر في كل شيء بحسب همته . فالبزار اذا دخل دارا معمورة مفروشة ينظر الى الفرش ويتأمل في قيمتها . والحائك اذا دخلها ينظر الى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها ، والنجار اذا دخلها ينظر الى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها ، والبناء اذا دخلها ينظر الى الحيطان والسقف وكيفية بنائها واحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة ، لاينظر الى شيء الا وتكون له موعظة وعبرة من

الآخرة ، فان نظر الى ظلمة تذكر ظلمة اللحد ، وان نظر الى نار تذكر نار جهنم ، وان نظر الى حية تذكر أفاعي جهنم ، وان سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور ، وان نظر الى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية ؛ وان رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة ، وان سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول ، وان رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة ... الى غير ذلك .

تتميم

السر في ازالة الاوساخ

السر في ازالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر ، فانها توجب تنوير القلب ، وانشراح الصدر ، وطرد الشيطان . اذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد ، فتشمئز منها الملائكة ، ويرغب اليها الشياطين . ومن تأمل في الاحكام والآداب التي جاء بها رسول الله (ص) ، وكانت له بصيرة ناقدة ، يعلم أن شيئا منها لايخلو عن حكمة ، حتى أن ما صدرعنه في الآداب والحركات والافعال والاقوال ، من ترتيب خاص ، او تخصيص بعدد معين ، او ابتداء من موضع خاص ؛ او بواحد معينمن الاشياءالمتماثلة، يتضمن حكما أو حكمة البتة . مثال ذلك : انه (ص) كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي عينه اليسرى اثنين ، والسر في هذا الترتيب وهذا التخصيص : أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها ، وتفاوته بين العينينلتكون الجملة وترا ، فان للوتر فضلا على الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ، فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب ، وانما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر ، لأن اليسرى حينئذ لاتخصها الا واحدة ، والغالب أن الواحدة لاتستوعب أصول الاجفان بالكحل ، وانما خصص اليمين بالزيادة لان التفضيل لابد منه للايثار ، واليمين أفضل ، فهو بالزيادة أحق ، وانما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجا ، اذ الزوجية في أحداهما لازمة ضرورية ، اذ لو جعل لكل واحدة وترا لكان المجموعزوجا اذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعاية الايثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد . مثال آخر . روى الجمهور

في تقليم **الاظفار** : « أن رسول الله (ص) كان يبدأ عند تقليم أظفاره الشريفة بسبحة اليمنى ، ويختم بأبهام اليمنى ، بأن يبتدىء من مسبحتها الى خنصرها ، ثم يبتدىء من خنصر اليسرى الى ابهام اليمنى » . وفي طريقنا روايتان : احداهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، وأخراهما بعكس ذلك ، وهي أشهر . فالسر على رواية الجمهور — كما قيل — أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدىء بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها فيبتدأ بها ، ثم ينبغي ان يبتدىء بما على يمينها لكون اليمنى أشرف ، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى . ولا ريب في أنه اذا وضعت الكف على الارض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى ، ووضع ظهر اليـد على الارض وان اقتضى كون الابهام هو اليمنى ، الا ان الاعتبار الاول أولى ، اذ اليد اذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة الى جهة الارض ، لأن جهة حركة اليد اليمنى الى جهة اليسرى ، واليسرى الى جهة اليمنى ، واستتمام حركة كل منهما في جهة بجعل الكف على الارض وظهرها عاليا ، واذا كانت الكف مائلة الى جهة الارض فأعتبار ما يقتضيه الطبع أولى ، فتكون يمين المسبحة هى الوسطى . ثم اذا وضعت الكف على الكف ، صارت الاصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة الى ان يعود الى المسبحة ، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بأبهامها ، ويبقى ابهام اليمنى ، وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها ، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف ؛ فان ذلك لايقتضيه الطبع .

هذا ؛ وأما السر على الرواية الاولى من طريقنا ، فكأنه اعتبار الاصابع العشرة في حكم صف واحد ثابت على الارض ، والابتداء باليمين ، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها . وأما الرواية الثانية ، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الاولى مع الترتيب فيها ، ووضـع اليدين على ما يقتضيه الطبع . هذا ، وأما اصابع الرجل ، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها ، فينبغي اعتبار أحد الطريقين

المرويين عندنا فيها ، ولعل اعتبار الاولى لأظهرية سرها أولى ، وينبغي ان يكون تقليم أظفارها بعد تقليم اظفار اليدين ان وقعا في وقت واحد ، اذ اليد أشرف من الرجـل • وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات ، فانه لايخلو شيء منها على سر حكمي ، وان كانت عقولنا قاصرة عن أدراك أكثرها •

المقصد الثاني

الصلاة — حقيقة الصلاة — حضور القلب — دفع اشكال — شرائط الصلاة — طريق تحصيل المعاني الباطنة — أسرار الصلاة — الوقت — آداب الصلاة — آداب المصلي — الاستقبال — القيام — التكبيرات — النية — تكبيرة الاحرام — دعاء الاستفتاح — الاستعاذة — الركوع — السجود — التشهد — التسليم — أفاضة الانوار على المصلي على قدر صفائه — ماينبغي في امام الجماعة — ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين — ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات •

اعلم ان الصـلاة معجون سماوي ، وتركب إلهي ، ركبت من أجزاء كثيرة مختلفة ، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها • فبعضها بمنزلة الروح ، وبعضها بمثابة الاعضاء الرئيسة ، وبعضها بمنزلة سائر الاعضاء •

وتوضيح ذلك : ان الانسان — مثلا — لما كان حقيقة مركبة منأجزاء معينة ، فهو لايـكون انسانا موجودا كاملا الا بمعنى باطن هو الروح ، وأعضاء محسوسة بعضها في جوفـه وبعضها في ظاهرة • وهذه الاعضاء متفاوتة المراتب ، اذ بعضها مما ينعدم الانسان بعدمه وتزول الحياة بزواله، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها ، وبعضها وان لم ينعدم بعدمهأصل الحياة ، الا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصا ، كاليد والرجـل والعين وأمثالها ،وبعضها يفوتبفواته الحسن ، كالحاجبين واللحية والاهداب وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواتهكمال الحسن لا أصله ، كأستقواس الحاجبين وتناسب الخلقة ، وسواد شعر اللحية ، وامتزاج البياض بالحمرة ، وأمثال ذلك • وكذلك الصلاة حقيقة مركبة ، وصورة صورها الشرع من أمور متفاوتة ، وتعبدنا بأكتسابها • فروحها : النية ، والقربة ، وحضور القلب ،

والاخلاص .وأعمالها الاركانية : من تكبيرة الاحرام ، والركوع ، والسجود، والقيام ؛ بمنزلة الاعضاء الرئيسة ، فتفوت بفواتها الصلاة على الاطلاق ، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها . وسائر الاعمال الواجبة : من الفاتحة ، والسور ، واذ كان الركوع ، والسجدتين ، والطمأنينة فيهما ، وفي رفع الرأس عنهما ؛ والتشهد ؛ والتسليم ، وغير ذلك من الاعمال الواجبة التى تبطل الصلاة بتركها عمدا لاسهوا ، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك ، مما قدتفوت الحياة بزوالها وقد لاتفوت به ، والاعمال المسنونة والهيئات المندوبة ، والآداب المستحبة : من القنوت ، ودعاء الافتتاح ، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات ،والتعوذ ،والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الاذكار ، وغير ذلك مما لاتبطل الصلاة بتركها عمدا أو سهوا، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الاجر والثواب ، فهي بمنزلة الحاجبين وأستقواسهما واللحية والاهداب وتناسب الخلقة ، وغير ذلك مما يفوت بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها ، ويصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه .

واذا عرفت ذلك : فأعلم — ياحبيبي — أن صلاتك قربة وتحفة تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك ، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين اليهم . وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد اليك في يوم العرض الاكبر ، فاليك الخيرة في تحسين صورتها او تقبيحها ، فمن أداها على النحو المأمور به ، بأعمالها الواجبة والمندوبة ، وشرائطها الظاهرة والباطنة ، مع الاخلاص وحضور القلب ؛ كان كمن أهدى عبدا صحيحا سويا شابا جميلا عاقلا كاملا الى ملك من الملوك . ومن أقتصر على أعمالها الظاهرة ، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص ، كان كمن أهدى عبدا ميتا بلا روح الى ملك من الملوك . ومن ترك عمدا شيئا من واجباته ، كان كمن أهدى عبدا مقتولا اليه . ومن أقتصر على أقل ما يجزى كان كمن أهدى اليه عبد حي أعمى، او أصم ، او ابكم ، او مقطوع الاطراف ، او هرما ؛ او قبيح المنظر ؛ او مجروح الاعضاء ؛ او امثال ذلك . فتنبه أيها الغافل ، وتأمل في انك اذا أهديت تحفة الى ملك من ملوك الدنيا ، بل الى من دونه بمراتب كثيرة ،

من الامراء والحكام ، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها ، فما بالك أيها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك الى ملك الملوك الذي منه بدؤك واليه عودك ؟! وقد ورد : ان كل صلاة لايتم الانسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الاول على صاحبها يوم العرض الاكبر، وتقول « ضيعك الله كما ضيعتني ! »

فصـــل

حقيقة الصـلاة

لابحـث لنا عما يتعلق بظاهرها من الاجزاء والشرائط والاحـكام . اذ بيانها على عهدة الفقه . فلنشر الى المعاني الباطنة التى بها تتم حياتها ، والى الاسرار والاداب الخفيه الباطنة المتعلقة باجزائها وشرائطها الظاهرة ، لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها .

فنقول : المعانى الباطنة التى هى روح الصلاة وحقيقتها ، سبعة :

الاول ــ الاخلاص والقربة ، وخلوصها عن شوائب الرياء . وقـد تقدم تفصيل القول في ذلك .

الثاني ــ حضور القلب : وهو ان يفرغ القلب عن غير ماهو ملابس له ومتكلم به ، حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله ، من غير جريان الفكر في غيرهما . فمهما انصرف الفكر عن غير ماهو فيه ، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه ، فقد حصل حضور القلب . ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه ، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب فان الخشوع في الصلاة خشوعان : خشوع بالقلب : وهو ان يتفرغ لجمع الهمة لها ، والاعراض عما سواها ، بحيث لايكون في قلبه غير المعبود . وخشوع بالجوارح : وهـو ان يغض بصره ، ولايلتفت ، ولايعبـث ، ولايتثاءب ، ولايتمطى ، ولايفرقع أصابعه وبالجملة : لايتحرك لغير الصلاة ولايفعل شيئا من المكروهات ، وربما عبر ذلك بالخضوع .

الثالث ــ التفهم لمعنى الكلام لمعنى الكلام : وهـو امر وراء حضور القلب . فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ، ولايكون حاضرا مع معناه فالمراد بالتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ . وهذا مقام يتفاوت

فيه الناس ، اذ ليس يشترك الناس في تفهم معاني القرآن والتسبيحات ، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في اثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولايفهمها غيره • ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فانها تفهم امورا تمنع تلك الامور عن الفحشاء والمنكر لامحالة •

الرابع ـ العظيم : وهو امر وراء حضور القلب والتفهم • اذ الرجل ربما يخاطب غيره ، وهو حاضر القلب فيه ، ومتفهم لمعناه ، ولايكون معظما له •

الخامس ـ الهيبة : وهي زائدة على التعظيم لانها عبارة عن خوف منشأه التعظيم ، لان من لايخاف لايسمى هائبا • ثم كل خوف لايسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال •

السادس ـ الرجاء : ولاريب في كونه زائدا عما ذكر • فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك ، ويهابه ويخاف سطوته ، ولايرجو بره واحسانه ، والعبد ينبغي ان يكون راجيا بصلاته ثواب الله ، كما انه خائف بتقصيره عقابه

السابع ـ الحياء : ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء ، لتصورها من غير حياء ، حيث لايكون توهم تقصير وارتكاب ذنب •

فصل

حضور القلب

اعلم ان كون الامور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها ، والمقصود الاصلى منها ، امر ظاهر • اذ الغرض الاصلي من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلها ، فكل عمل يكون اشد تأثيرا فيهما يكون أفضل • ولاريب في ان المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيلها عن الكدورات من الصلاة ليس الا الامور المذكورة ، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها ، وكيف لايكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولايتوقف كمال الصلاة عليه ، مع ان المصلى في صلاته ودعائه مناج ربه ؟ ولاشك ان الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وايضا الكلام اعراب عما في الضمير ، ولايتأتى الاعراب عما في الضمير الا بحضور القلب ، فاى سؤال في قوله : « اهدنا الصراط

المستقيم » اذا كان القلب غافلا ؟ ولاشك ايضا ان المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء ،والمخاطب هو الله ــ تعالى ــ ، فاذا كان قلب العبد محجوبا عنه بحجاب الغفلة ، ولايراه ولايشاهده ، بل كان غافلا عن المخاطب ، ويحرك لسانه بحكم العادة ، فما أبعد هذا المقصود بالصلاةالتى شرعت لتصقيل القلب ،وتجديد ذكر الله ،ورسوخ عقد الايمان بها .هذا حكم القراءةوالذكر .واما الركوع والسجود ،فالمقصودمنهماالتعظيم قطعا ،والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ،واذا خرج عن كونهتعظيمالم يبق الامجرد حركة الظهر والرأس وليسفيه المشقة مايقصد الامتحانبه ،كما في أفعالالحج واعطاء المال في الزكاة ، وامساك النفس عن الشهوات في الصوم . فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين ، والفاصل بين الكفر والاسلام ، وتقدم على سائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركهاعلى الخصوص ، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة تظاهرت الآيات والاخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح اهلها وعلى ذم الغفلة والتفكر في امور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة ، وقد تظاهرت الاخبار ايضا بأن الانبياء والاوصياء واكابر الاولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الاقبال والخشوع والخوف . قال الله ــ سبحانه ــ :

« الذين هم فى صلاتهم خاشعون » (١٢) .وقال : « وأقم الصلاة لذكري » (١٣) . والغفلة تضاد الذكر ، فمن كان غافلا فى صلاته لا يكون مقيما للصلاة لذكره . وقال : « ولا تكن من الغافلين » (١٤) . وقال: « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون » (١٥) ، ذمهم على الغفلة عنهامع كونهم مصلين ، لا لانهم سهوا عنها وتركوها . وقال : « لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ١٦ .

---

(١٢) المؤمنون ، الآية : ٢ .
(١٣) طه ، الآية : ١٤ .
(١٤) الاعراف ، الآية : ٢٠٤ .
(١٥) الماعون ، الآية : ٤ ــ ٥ .
(١٦) النساء ، الآية : ٤٢ .

قيل المراد : سكارى من كثرة الهم ، وقيل : من حب الدنيا ، ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا ، اذ بين فيه العلة ،وقال: حتى تعلموا ما تقولون . وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم مايقول في صلاته . وقال رسول الله (ص) : « من صلى ركعتين ، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا ؛ غفر له ما تقدم من ذنبه » . وقال (ص) : « اذا صليت صلاة فريضة ؛ فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها » . وقال (ص) : « لاينظر الله الى صلاة لايحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه» .وقال (ص) : « انما فرضت الصلاة ؛ وامر بالحج والطواف ، واشعرت المناسك ، لاقامة ذكر الله ؛ فاذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغي عظمة ولا هيبة ، فما قيمة ذكرك ؟!» .

وعن ابي عبد الله (ع) قال : « قال الله — تبارك وتعالى — : انما أقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي،ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي ،ويقطع نهاره بذكري ؛ ولا يتعاظم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العاري ؛ ويرحم المصاب ؛ ويؤوي الغريب ؛ فذلك يشرق نوره مثل الشمس ؛ أجعل له في الظلمات نورا ، وفي الجهالة علما ، أكلأه بعزتي ؛ واستحفظه بملائكتي يدعوني فألبيه ؛ ويسألني فأعطيه . فمثل ذلك عندي كمثل جنات الفردوس لاتيبس ثمارها ، ولا تتغير عن حالها » [١٧]. وفي أخبار موسى : « يا موسى ، اذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغض اعضاءك ؛ وكن عند ذكري خاشعا مطمئنا . واذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك . واذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل ، وناجني بقلب وجل ولسان صادق ».وأوحى اليه (ع) : « قل لعصاة أمتك : لا تذكروني ، فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته ، واذا ذكروني ذكرتهم باللعنة » . وفي بعض الاحاديث القدسية : « ليس كل مصل أتقبل صلاته ، انما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ، ولم يتكبر على عبادي ، وأطعم الفقير الجائع لوجهي » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « طوبى لمن اخلص لله العبادة والدعاء ، ولم يشتغل

---

(١٧) الحديث مروي في (بحار الانوار) : ١٨ / ١٩٦ ، باب آداب الصلاة عن (المحاسن)، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الانوار) .

قلبه بما تراه عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه ، ولم يحزن صدره بما اعطى غيره » . وقال (ع) : « لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب الا وجبت له الجنة ، فاذا صليت ، فاقبل بقلبك على الله — عز وجل — ،فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله — عز وجل — في صلاته ودعائه، الا أقبل عليه بقلوب المؤمنين ، وأيده مع مودتهم اياه بالجنة » . وقال الباقر (ع) : « ان العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها ، فما يرفع له الا ماأقبل عليه بقلبه ، وانما امروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة » . وروي : « أن ابراهيم الخليل كان يسمع تأوهه على حد ميل ، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل »[١٨] . وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله (ص) مثل ذلك . وقال بعض أزواجه: « كان النبي (ص) يحدثنا ونحدثه ، فاذا حضرت الصلاة ، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » . وكان امير المؤمنين (ع) اذا أخذ في الوضوء ، يتغير وجهه من خيفة الله . وكان (ع) اذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون ، فقيل له : مالك يأمير المؤمنين ؟ فيقول : « جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان ».وروى: « أنه وقع نصل في رجله (ع) ، فلم يمكن أحدا من أخراجه .فقالت فاطمة — عليها السلام — : أخرجوه في حال صلاته ، فانه لا يحس حينئذ بما يجري عليه . فاخرج وهو في صلاته ، فلم يحس به أصلا » . وكانت الصديقه فاطمة — عليها السلام — تنهج[١٩] في الصلاة من خيفة الله . وكان الحسن بن علي — عليهما السلام — اذا فرغ من وضوئه ، تغير لونه،فقيل له في ذلك ، فقال : « حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه » . وكان الامام علي بن الحسين — عليهما السلام — اذا توضأ اصفر لونه ، فيقال له : ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : « اني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم » . وقال أبو حمزة الثمالي : « رأيته يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه ، فتركه حتى فرغ من صلاته ، فسألته عن ذلك ،

---

(١٨) الازيز : صوت غليان القدر . والمرجل — وزان منبر — : القدر من الحجارة .

(١٩) النهج — بالتحريك — : تتابع النفس واللهاث .

فقال : ويحك ! أتدري بين يدي من كنت ؟ شغلني والله ذلك عن هذا ! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد الا ما أقبل عليه ؟ . فقلت له : يابن رسول الله ، هلكنا اذا . قال : كلا ! ان الله يتم ذلك بالنوافل » . وروي : انه (ع) اذا قام الى الصلاة تغير لونه ، واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا» . وروي : « أنه (ع) كان اذا قام الى الصلاة كأنه ساق شجرة ، لا يتحرك منه الا ما حركت الريح منه » . وسئل مولانا الصادق (ع) عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه ، فقال : « ما زلت اكرر آيات القرآن حتى بلغت الى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها » [٢٠] . قيل : وكان لسان الامام (ع) في تلك الحال كشجرة طور حين قالت : « أني أنا الله » . وسئل بعض الاكابر عن صلاته ، فقال : « اذا جاءت الصلاة ، أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي اريد الصلاة فيه ؛ فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم اقوم الى الصلاة ، فأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني ؛ والنار عن شمالي ؛ وملك الموت ورائي ، وأظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف واكبر تكبيرا بتحنن ، وأقرأ القرآن بترتيل ، واركع ركوعا بتواضع ، وأسجد سجودا بتخشع ؛ وأقعد على الورك اليسرى ، وأفرش ظهر قدميها ، وانصب القدم اليمنى على الابهام وأتبعها الاخلاص ، ثم لا أدري اقبلت مني أم لا !» .

ثم ؛ على ما عرفت من كيفية صلاة الانبياء والاولياء مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس ، تعلم : ان الناس ينقسمون في صلاتهم : الى غافل يتم صلاته ولايحضر قلبه في لحظة . والى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها ، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهما ، وزيادة احدهما على الآخر ؛ فله مراتب غير متناهية . والى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة ، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته وربما كان مستوعب الهم بها ، بحيث لايحس بما يجرى بين يديه كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين (ع) باخراج النصل من رجله الشريفة .

(٢٠) صححنا الاحاديث الواردة فى الصلاة على بحار الانوار : ١٦٩/١٨ ـ ٢٠٢ ، باب آداب الصلاة .

وبعضهم حضر الجماعة مدة ، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره .وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين . وكان جماعة تصفر وجوههم ، وترتعد فرائصهم عند الصلاة . وكل ذلك غير مستبعد ، فان اضعافه مشاهدة في هم الدنيا وخوف ملوك الدنيا ، مع ضعفهم وعجزهم ، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم . حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير ، ويحدثه بمهم ويخرج ، ولو سئل عمن كان على حواليه ؛ وعن ثوب الملك ؛ لكان غير قادر على الاخبار عنه ، لا شتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله:

« ولكل درجات مما عملوا »(٢١) .

فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه .فان موضع نظر الله القلوب ، دون ظاهر الحركات . ولذا قال بعض الصحابة : « يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة ، من الطمأنينة والهدوء ، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها ».فالملحوظ حال القلب لاحال الشخص. ولذا قيل : « من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة ، ولا ينجو :

« الا من أتى الله بقلب سليم » (٢٢) .

تنبيه

دفع اشكال

ان قيل : المستفاد من الظواهر المذكورة ، أن صلاة الغافل ليست مقبولة الا بقدر ما أقبل عليه منها ، والفقهاء لم يشترطوا الا حضور القلب عند النية والتكبير ، فكيف التوفيق ؟

قلنا : فرق بين القبول والاجزاء ، فان المقبول من العبادة ما يقرب العبد الى الله ، ويترتب عليه الثواب في الآخرة ؛ والمجزي منها ما يسقط التكليف عن العبد ، وان لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه الى الله . والناس مختلفون في تحمل التكليف ، فان التكليف انما هو بقدر الوسع والطاقة ؛ فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب في جايع الصلاة ، اذ لايقدر على ذلك الا الاقلون . واذا لم يمكن أشتراط الاستيعاب للضرورة ، فلا

(٢١) الانعام ، الآية : ١٣٢ . الاحقاف ، الآية : ١٩ .
(٢٢) الشعراء ، الآية : ٨٩ .

مرد له الا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم ، ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه ، فاقتصر على التكليف بذلك . ونحن — مع ذلك — نرجوا ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية ، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا ، واحضر القلب لحظة ، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله ، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ؟ والحاصل : أن الاقبال والحضور هو روح الصلاة ، وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة ، وكم من حي لا حراك فيه قريب من الميت ، فصلاة الغافل في جميعها ، الا عند التكبير ، حي لا حراك فيه .

فصل

شرائط الصلاة

اعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة اسبابا لا تتحقق بدونها .

أما حضور القلب : فسببه الاهتمام .

فان قلت : كل واحد تابع لهمه ، فلا يحضر الا فيما يهمه ، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه ، شاء أو لم يشأ ، فهو مجبول عليه مسخر فيه ، والقلب اذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا ، بل كان حاضرا فيما يهمه من امور الدنيا . فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب في الصلاة الا بصرف الهمة اليها ، والهمة لا تنصرف اليها مالم يتيقن ان الآخرة خير وابقى ، وان الصلاة وسيلة اليها . واذا اضيف الى هذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها ، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة . ولكون الباعث والسبب لاحضار القلب في أمر انما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه ، ترى قلبك يحضر اذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، بل بين يدي بعض الاكابر ممن لايقدر على نفعك وضرك . فاذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت ، والنفع والضر ، فلا تظنن أن له سببا سوى ضعف الايمان واليقين . فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والايمان .

وأما التفهم : فسببه — بعد حضور القلب — أدمان الفكر ، وصرف

الذهن الى ادراك المعنى . وعلاجه ماهو علاج احضار القلب ، مع الاقبال على الفكر ، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها ، أعني النزوع عن الاسباب التي تنجذب الخواطر اليها . ومالم تنقطع تلك المواد لاتنصرف عنها الخواطر . فان من أحب شيئا أو أبغض شيئا أو خاف من شيء ، أكثر ذكره . فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة. ولذا ترى أن من أحب غير الله او كان قلبه مشغولا بعداوة أحد أو بالخوف عنه ، لاتصفو له صلاة عن الخواطر .

وأما التعظيم : فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين : احداهما : معرفة جلال الله وعظمته ، فان من لايعتقد عظمته لاتذعن النفس لتعظيمه ، وهذه المعرفة حقارة النفس وخستها وذلتها ، وكونها عبدا مسخرا مربوبا لايقدر شيئا من النفع والضر . وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر عنه بالتعظيم ، ومالم تتمزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لاتنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فان المستغنى عن غيره الآمن على نفسه ، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال ، ونعوت القدرة والكمال ، ولا يكون خاشعا معظما له ؛ لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن اليه .

وأما الهيبة والخوف : فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله تعالى وسطوته ونفوذ مشيته فيه ، مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الاولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة ، مع تذكر ما جرى على الانبياء والاولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع . وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة .

وأما الرجاء : فسببها معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعميم انعامه ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة . فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه ، انبعث منهما الرجاء .

وأما الحياء : فسببه استشعار التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها ، وقلة أخلاصها وخبث باطنها ، وميلها الى الحظ العاجل في جميع أفعالها ، مع

العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته ، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب ، وان دقت وخفيت . وهذه المعارف اذا حصلت يقينا ؛ انبعثت منها — بالضرورة — حالة تسمى بالحياء .

فصل

طريق تحصيل المعانى الباطنة

أعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة ، اعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء ، هو تحصيل أسباب هذه المعاني ، وقد عرفت أسبابها . وطريق العلاج في تحصيل هذه الاسباب انما يتم بأمرين:

الاول — معرفة الله ، ومعرفة جلاله وعظمته وأستناد الكل اليه ؛ ومعرفة كونه عالما بذرات العالم وبسرائر العباد . ويلزم ان تكون هذه المعرفة يقينية ، ليترتب عليها الاثر . اذ مالم يحصل اليقين بأمر ، لايحصل التشمر في طلبه والهرب عنه . وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايمان . ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة وأسبابها . اذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته ، ومتفهما لما يسأله عنه ، معظما له ، وخائفا منه ، وراجيا منه ، ومستحييا من تقصيره .

الثاني — فراغ القلب ، وخلوه من مشاغل الدنيا . فان انفكاك المؤمن العارف ، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته ، وبأطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلاته ، لاسبب له الا تفرق الفكر ، وتقسم الخاطر ، وغيبة القلب عن المناجاة ، والغفلة عن الصلاة ؛ ولا تلهي عن الصلاة الا الخواطر الردية الشاغلة . فالدواء في أحضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر ، ولا يدفع الشيء الا بدفع سببه .

وسبب توارد الخواطر ، اما أن يكون أمرا خارجا ؛ أو أمرا في ذاته باطنا .

والاول : ما يظهر للبصر ؛ او يقرع على السمع . فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر الى غيره ، ويتسلسل فيكون الابصار او الاستماع سببا للافتكار ، ثم يصير بعض تلك الافكار سببا للبعض . ومن قويت رتبته وعلت همته ، لم يلهه ما يجري

على حواسه . ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق فيه فكره . فعلاجه : قطع هذه الاسباب ، بأن يغض بصره ، او يصلى في بيت مظلم ، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ؛ ويقرب من حائط عند صلاته ، حتى لاتتسع مسافة بصره ، ويتحرز من الصلاة على الشوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة، والعمارات العالية المرتفعة . ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير ، سعته بقدر السجود ، ليكون أجمع للهم . والاقوياء كانوا يحضرون المساجد ، ويغضون البصر ؛ ولا يجاوزونه موضع السجود ، كما وردالامر به ؛ ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم .

وأما الثاني : اعني الاسباب الباطنة ؛ فهي أشد. فان من تفرقت همومه وتشعبت خواطره في أودية الدنيا ، لم ينحصر فكره في فنٍّ واحد ، بل لايزال يطير من جانب الى جانب . وغض البصر لايغنيه ، فان ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل . فهذا علاجه : أن يرد نفسه قهرا الى فهم ما يقرؤه ، ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة ، وخطر المقام بين يدي الله تعالى ، وهول المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من أمر الدنيا ، فلايترك لنفسه شغلا يلتفت اليه خاطره ، فهذا طريق تسكين الافكار . فان لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن ، فلا ينجيه الا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق ، وهو ان ينظر في الامور الشاغلة الصارفة له عن أحضار القلب . ولا ريب في أنها تعود الى مهماته ، وهي انما صارت مهمة لأجل شهواته ، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق . فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه ، وجند أبليس عدوه ، فإمساكه أضر عليه من أخراجه ، فيتخلص عنه بأخراجه . وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ، ولا يغنى غيره . فان ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد الى فهم الذكر ، انما ينفع في الشهوات الضعيفة ، والهمّ الذي لايشغل الا حواشي القلب . وأما الشهوة القوية المرهقة ، فلا ينفع معها التسكين ، بل لاتزال تجاذبها وتجاذبك ، ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد ان يصفو له فكره ، وكانت أصوات

العصافير تشوّش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود الىفكره، فتعود العصافير ، فيعود الى السفير بالخشبة ، فقيل له : ان هذا سيرالواني ولا ينقطع ، فان أردت الخلاص فأقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوة ، اذا أستعملت وتفرعت أغصانها ، انجذبت اليها الافكار انجذاب العصافير الى الاشجار ، وانجذاب الذباب الى الاقذار ، والشغل يطول في دفعها . فان الذباب كلما ذب آب ، ولأجله سمي ذبابا ، وكذلك الخواطر . وهـذه الشهوات كثيرة قلما يخلو العبد منها ، ويجمعها أصل واحد ، وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة ؛ وأساس كل نقصان ، ومنبع كل فساد . ومن أنطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال الى شيء منها لايتزود منهـا ويستعين بها على الآخرة ، فلا يطمعن في أن تصفو لهلذة المناجاة فيالصلاة. فان من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته ، وهمة الرجل مع قرة عينه . فان كانت قرة عينه فيالدنيا أنصرف همه لامحالة اليها . ولكن — مع هذا — لاينبغي أنتترك المجاهدة ، ورد القلب الى الصلاة ، وتقليل الاسبابالشاغلة، فهذا هو الدواء ؛ ولمرارته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة مزمنة ، وصار الداء عضالا . حتى أنالاكابر أجتهدوا أن يصلوا ركعتين لايحدثون أنفسهم فيهما بأمور الدنيا ، فعجزوا عنه . فاذاً لامطمع فيه لأمثالنا ، وياليت سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوساوس ، لنكون ممن خلطوا عمـلا صالحا وآخر سيئا .

وعلى الجملة : فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذييصب في قدح فيه خل ، فبقدر مايدخل فيه الماء يخرج منه الخل لامحالة ، ولا يجتمعان . ثم جميع ما ذكر انما هو في الخواطر المتعلقة بالامور المهمة من الدنيا ، حتى اذا خرجت هذه الامور من القلب ، خرجت منه هذهالخواطر أيضا . وقد تكون الخواطر من مجرد الوساوس الباطنة والخيالات الفاسدة، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها ، ومن دون أختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها ، والامر فيها أصعب ، وان كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلية عظيمة في زوالها أيضا ، اذ مادة هذه الوساوس أيضا ، اما حب المال وحب الجاه ، أو حب غيرهما من الامور الشهوية

الدنيوية . وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوساوس .

فصـــل

اسرار الصلاة

في تحصيل كـل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبيهات ، فينبغي للمؤمن المريد للآخرة ألا يغفل عنها ، فهاهي نذكرها :

أما الاذان : فاذا سمعت نداء المؤذن ، فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بباطنك وظاهرك للاجابة والمسارعة ، فان المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الاكبر ، فأعرض قلبك على هذا النداء ، فان وجدته مملوا بالفرح والاستبشار ، مشحونا بالرغبة الى الابتدار ، فأعلم انه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ، ولذلك قال سيد الانبياء : « أرحنا يابلال ! » ، أي أرحنا بها وبالنداء اليها ، اذ كانت قرة عينه فيها . واعتبر بفصول الاذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الاول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير ، واستحقر الدنيـا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك ، وأنف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل . وأحضر النبي (ص) ، وتأدب بين يديه ، وأشـهد له بالرسالة مخلصا ، وصل عليه وآله ، وحرك نفسك ، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء الى الصلاة ، وما يوجب الفلاح ؛ وما هو خير الاعمال وأفضلها . وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه ، واختمه بذلك كما أفتتحت به ، واجعل مبدءك منه ، وعودك اليه ، وقوامك به ، واعتمادك على حوله وقوته . فانه لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

فصـــل

الوقت

واذا دخل الوقت ، استحضر أنه ميقات جعله الله لك ، لتقوم فيـه بخدمته ، وتتأمل للمثول في حضرته ، والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور ، وعلى وجهك البهجة عند دخوله ؛ لكونه سببا لقربك ووسيلة الى فوزك . فأستعد له بالطهارة والنظافة ، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة ،

كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالسكينة والوقار والخوف والرجاء ، واستحضر عظمة الله وجلاله ، وعدم تناهي قدرته وكماله ونقصان قدرك ومرتبتك ، وعدم قابليتك للقيام بخدمته ، وقصورك عن أداء وظائف طاعته .

فصـــل

آداب الصـلاة

اذا أتيت بالطهارة في مكانك ، وهو ظرفك الابعد ، ثم في ثيابك ، وهو غلافك الاقرب ؛ ثم في بشرتك ، وهي قشرك الادنى ، فلا تغفل عن لبك وذاتك ، وهو قلبك ؛ فطهره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ، فطهر بها باطنك ، فانه موضع نظر ربك . ثم اذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق باللباس ، فأخطر بالك فضائح سرك التي لايطلع عليها الا ربك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحقق أنه لايستر عن عين الله ساتر ، وانما يكفرها الخوف والندم والحياء ، فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكامنها ، فتذل به نفسك ، ويستكين تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبق ، الذي ندم فرجع الى مولاه ، ناكسا رأسه من الخوف والحياء . قال الصادق (ع) : « أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى ، وأنعمه الايمان ، قال الله تعالى :

« ولباس التقوى ذلك خير » (٢٣) .

وأما اللباس الظاهر ، فنعمة من الله تعالى تستر بها عورات بني آدم ، وهي كرامة أكرم الله بها ذرية آدم مالم يكرم بها غيرهم ، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما أفترض الله عليهم . وخير لباسك مالا يشغلك عن الله عزوجل ، بل يقربك من ذكره وشكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء ، فانها من آفات الدين ، ومورثة للقسوة في القلب . فاذا لبست ثوبك ، فأذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته ، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهرك بثوبك ، وليكن باطنك من الصدق في ستر

(٢٣) الاعراف ، الآية : ٢٥ .

الهيبة ، وظاهرك في ستر الطاعة . واعتبر بفضل الله ، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والانابة والاغاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء . ولا تفضح أحدا حيث ستر الله عليك ما أعظم منه . واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لايعنيك حاله وأمره . وأحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك ، ويتجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك ، فان نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل ، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل . وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله تعالى ، ومعرفة عيوب نفسه ، وترك ما يشين في دين الله عز وجل ، فهو بمعزل عن الآفات ، خائض في بحر رحمة الله عز وجل ؛ يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان . وما دام ناسيا لذنوبه ، جاهلا بعيوبه ، راجعا الى حوله وقوته ، لايفلح اذا أبدا » (٢٤) .

فصل

آداب المصلي

اذا أتيت مصلاك ، فأستحضر فيه أنك كأن بين يدي ملك الملوك ، تريد مناجاته ، والتضرع اليه ، والتماس رضاه ، ونظره اليك بعين الرحمة . فأختر مكانا يصلح ، كالمساجد الشريفة ، والمشاهد المطهرة ، مع الامكان . فانه تعالى جعل تلك المواضع محلا لاجابته ، وموضع نزول فيوضاته ورحمته ، على مثال حضرة الملوك ، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب . فأدخلها بالسكينة والوقار ، ومراقبا للخشوع والانكسار . قال الصادق (ع) : « اذا بلغت باب المسجد ، فأعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم ، لايطأ بساطه الا المطهرون ، ولا يؤذن لمجالسته الا الصديقون ، فهب القدوم الى بساط هيبة الملك ، فانك على خطر عظيم ان غفلت ، فأعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك . فان عطف عليك برحمته وفضله ، قبل منك يسير الطاعة ، وأجزل لك عليها ثوابا كثيرا . وان طالبك بأستحقاقه الصدق والاخلاص عدلا بك ، حجبك ورد طاعتك وان كثرت . وهو فعال لما يريد . واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه ، فانك قد

---

(٢٤) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٧/١٢٧ — ١٢٨ .

توجهت للعبادة له ، والمؤانسة به • وأعرض أسرارك عليه ،ولتعلم انهلاتخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم • وكن كأفقر عباده بين يديه • واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك ، فانه لايقبل الا الاطهر والاخلص• وأنظر من أي ديوان يخرج اسمك، فان ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن أقباله عليك وأجابته، فقد صلحت لخدمته، فأدخل فلك الاذن والامان ، والا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل ، وقصر عنه الامل ، وقضى عليه الاجل • فان علم الله عزوجل من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووفقك لما تحب وترضى ، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه ، المقيمين على بابه لطلب مرضاته • قال الله تعالى :

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » (٢٥) » (٢٦) •

فصل

الاستقبال

وأما الاستقبال ، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله • وهذا اشارة الى أنه ينبغي ان يصرف وجه القلب عن سائر الاشياء الى الله ، فان الاعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على مايناسبها ، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة ، لأجل ألا تبقى على القلب ، لانها اذا توجهت الى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه الى أشياء متعددة ، فأمر الله بصرفها الى شطر بيته ، ليتذكر القلب صاحبه ، ويتوجه اليه ، ويثبت على ذلك كما تثبت الاعضاء على جهة واحدة • قال رسول الله (ص) : « ان الله تعالى مقبل على المصلي مالم يلتفت » ، وهذا الإلتفات يشمل التفات القلب أيضا ، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات الى الجهات ، فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات الى غير الله وغير الصلاة ، فان التفت الى غير الله وغير الصلاة ، فذكره بأطلاع الله عليه، وقبح غفلة المناجى عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة ، لاسيما اذا كان

---

(٢٥) النحل ،الآية : ٦٢

(٢٦) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٢/ ١٤٠-١٤١.

من يناجيه ملك الملوك . والزم قلبك الخشوع ، فان الخلاص عن الالتفات ظاهرا وباطنا ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر ، ولذا قال رسول الله (ص) وقد رأى مصليا يعبث بلحيته : « أما هذا ، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، فان الرعية بحكم الراعي » . وفي الدعاء : « اللهم أصلح الراعي والرعية » ، وهو القلب والجوارح .

وبالجملة : ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه الى بيت الله للصلاة ، أن يصرف وجه قلبه الى صاحب البيت ، وكما لايتوجه الوجه الى جهة البيت الا بالصرف عن غيرها ، فكذلك لاينصرف وجه القلب الى الله الا بالتفرغ عما سوى الله ، وقد قال رسول الله (ص) : « اذا قام العبد الى صلاته، وكان هواه وقلبه الى الله ، انصرف كيوم ولدته أمه » . وقال (ص) : « أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار ؟! » قيل : هذا نهي عن الالتفات عن الله ، وملاحظة عظمته في حال الصلاة ، فان الملتفت يمينا وشمالا غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه ، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه ، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للامور العلوية وعدم فهمه للمعارف . وقال الصادق(ع) « اذا استقبلت القبلة ، فآيس من الدنيا ومافيها ، والخلق وماهم فيه . واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله — تعالى — ، وعاين بسرك عظمة الله — عزوجل — ، واذكر وقوفك بين يديه ، قال الله — تعالى —:

« هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق » (٢٧).

وقف على قدم الخوف والرجاء » (٢٨) .

فصـــل

القيـــام

وأما القيام ، فهو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله — سبحانه — فليكن رأسك الذى هو أرفع أعضائك مطوقا متطأطأ متنكسا ، تنبيهاللقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار ، والتبرى عن التكبر والترؤس .

(٢٧) يونس ، الآية : ٣٠ .
(٢٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٣ / ١٤١ .

وينبغي ان تتذكر هاهنا خطر المقام بين يدى الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال ، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدى الله وهو مطلع عليك ، فليكن قيامك بين يديه على مايليق بعظمته وجلاله ، وان كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ، فلا تجعل مالك الملك والملكوت أنزل من بعض ملوك عصرك ، فقم بين يديه قيامك بين يدى ملك زمانك ؛ بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كالئة من رجل صالح من أهلك ؛ أو ممن ترغب ان يعرفك بالصلاح ؛ فانه تهد عند ذلك أطرافك ، وتخشع جوارحك ؛ ويسكن جميع أجزائك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع . وبالجملة الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال ، يقتضيها الطبع بين يدى من يعظم من ابناء الدنيا ، فكيف لايقتضيها بين يدى ملك الملوك عند من يعرفه؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعا ، ولايكون بين يدي الله كذلك ؛ فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره ، وعدم تدبره في قوله ـ تعالى ـ :

« الذي يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين » (٢٩) .

فتبا لمن يدعى معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه ، ومع ذلك يستحى من أحد عبيده المساكين الذى لايقدر على نفع ولاضر، ولايستحي من الله ، ويخشى الناس ، ولايخشاه !

فصل

التكبيرات

وأما التوجه بالتكبيرات ، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته ، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته . واذا قلت : (اللهم انك أنت الملك الحق) فتذكر عظيم ملكه ، وعموم قدرته واستيلاءه على جميع العوالم ، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار . واذا قلت : (لبيك وسعديك ! والخير في يديك ، والشر ليس اليك) ، مثل نفسك بين يديه ، وتيقن أنه اقرب منك من نفسك ، يسمع نداءك ، ويجيب دعاءك ، وان خير الدنيا والاخرة بيده لابيد غيره ، وانه خير محض

(٢٩) الشعراء ، الآية : ٢١٨ ـ ٢١٩ .

منزه عن الشر • واذا قلت : (عبدك وابن عبديك ، منك وبك ولكواليك) فقد اعترفت له بالعبودية ، وبانه ربك وخالقك ومالكك ،وموجدكومخترعك وانت اثره وفعله ومنه وجودك ، ووبه قوامك ، وله ملكك ، واليه معادك فانت منه ؛ فلايتركك ويرحمك ؛ فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه ، وكل امورك في الدنيا والاخرة اليه ؛ ولاتعتمد في مقاصدكالاعليه فاحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التى ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق ، وترق منها الى مايفتح عليك من الاسرار والدقائق ، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوساوس والهوى ، فتلق الفيض من العالم الاعلى •

فصـــل

النيـة

واما النية ، فحقيقتها القصد الى الفعل ، امتثالا لامر الله ، وطلبالتقربه ورجاء لثوابه ؛ وخوفاً من عقابه • فينبغى ان تجتهد في خلوصها الايشوبها غرض دنيوى فتفسد ، وحقيقة الاخلاص وما يتعلق بها قدتقدمت مفصلة في محلها • وينبغى ان تتذكر هاهنا عظيم لطفه ومنته عليك ، حيث اذنك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة جنايتك ، وعظم في نفسك قـدر مناجاته • وانظر من تناجى ، وكيف تناجى ، وبماذا تناجى ، وعند هذا ينبغى ان يعرق جبينك من الخجلة ؛ وترتعد فرائصك من الهيبة ، ويصفر وجهك من الخوف والخشية •

فصـــل

تكبيرة الاحرام

واذا كبرت تكبيرة الاحرام ، تذكر ان معناها : أنه ــ تعالى ــ اكبر من ان يوصف او اكبر من كل شيء ، او اكبر من ان يدرك بالحواس ، او يقاس بالناس • فاتنقل منه الى غاية عظمته وجلاله ، واستناد ماسواه اليه ، بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم • وينبغي ان تكون على يقين بذلك ، حتى لايكذب لسانك قلبك ، فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله ــ تعالى ــ عندك ، فالله يشهد انك كاذب ، وان كان الكلام صدقاً ، كما

شهد على المنافقين في قولهم : ان النبي رسول الله . وان كان هواك اغلب عليك من امر الله ــ تعالى ــ وانت اطوع له منك لله ولامره فقد اتخذته الهك وكبرته ، فيوشك ان يكون قولك (الله اكبر) كلاما باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما اعظم الخطر في ذلك ، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه ــ تعالى ــ وعفوه . قال الصادق (ع) : « فاذا كبرت فاستصغر مابين السماوات العلى والثرى دون كبريائه ، فان الله ــ تعالى ــ اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر ، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره ، قال : يا كذاب أتخدعني ؟! وعزتي وجلالي ! لأحرمنك حلاوة ذكري ، ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي ! » [٣٠] فأعتبر أنت قلبك حين صلاتك ، فان كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسرور بمناجاته ، وملتذ بمخاطباته ؛ فاعلم أنه ــ تعالى ــ قد صدقك في تكبيرك ، وان سلبت لذة المناجاة ، وحرمت حلاوة العبادة ، فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك ، وطردك عن بابه ، وابعدك عن جنابه ، فابك على نفسك بكاء الثكلى ؛ وبادر الى العلاج قبل أن تدركك الحسرة العظمى .

فصــل

دعــاء الاستفتاح

وأما دعاء الاستفتاح ، فأول كلماته : (وجهت وجهي للذي فطر السماوات الارض) ، ومعلوم ان المراد بالوجه هنا وجه القلب دون الوجه الظاهر ، لان الله سبحانه منزه عن الامكنة والجهات حتى توجه اليه الوجه الظاهر . فانت تدعي في هذا الكلام أن قلبك متوجه الى فاطر السماوات والارض ، فاياك أن يكون اول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ، اذ لو كان قلبك متوجها الى أمانيه ، وهمه في البيت والسوق أو واقعا فيأودية الوساوس ، أو كان غافلا ،لم يكن مقبلا على الله متوجها اليه ، وكنت كاذبا في أول مخاطبتك مع ربك . فاجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه ، وتقبل عليه في هذا الوقت ، وان عجزت عنه على الدوام ، لئلا تكون كاذبا في أول كلامك . واذا قلت : (حنيفا مسلما) ، فاخطر

(٣٠) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٣ / ١٤١ .

ببالك أن المسلم هو الـذي سلم المسلمون من يده ولسانه ، فان لم تكن موصوفا بهذا الوصف ، كنت كاذبا ، فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال ، وأن تندم على ما سبق من الاحوال • واذا قلت : (وما أنا من المشركين)؛ فاخطر ببالك الشرك الخفي ؛ وكونه داخلا في الشرك ؛ لاطلاق الشرك على القليل والكثير • فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله ،من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم ؛ كنت مشركا كاذبا في هذا الكلام • فانف هذا الشرك عن نفسك ؛ واستشعر الخجلة في قلبك ؛ بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع • واذا قلت : (محياي ومماتي لله رب العالمين) ؛ فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه ، موجود لسيده ، فان عن ذاته باق بربه ؛ لايرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة ؛ بل يعلم حياته وبقاءه من الله — تعالى — ، ولا تكون حركاته وسكناته الا لله تعالى • فالقائل بهذا الكلام ، اذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة وأثرا ، او صدر عنه فعل: من الرضا ، أو الغضب ؛ أو القيام ؛ أو القعود ؛ أو الرغبة في الحياة ، او الرهبة من الموت لامور الدنيا ، كان كاذبا •

فصل

الاستعاذة

فاذا قلت : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ، ينبغى ان تعلم ان الشيطان اعدى عدوك ، مترصد لصرفه قلبك عن الله ، حسدا لك على مناجاتك مع الله وسجودك له ، مع انه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة • وينبغى الا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول ، لتكون مثل من قصده سبع اوعدو ليفترسه اويقتله،فقال : أعوذ منك بهذا الحصن الحصين، وهو ثابت على مكانه ،فان ذلك لايفيده ولا ينفعه مالم يتحرك ويدخل الحصن فكذلك مجرد الاستعاذة لاينفعه مالم يترك مايحب الشيطان ، ومالم يأت بما يحبه الله • فمن اتبع الشهوات التى هى محاب الشيطان ومكاره الرحمن لايغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان ، وحصنه (لااله الا الله)، اذ قال : (لااله الا الله حصني، ومن دخل حصنى أمن من عذابى) •والدخول في حصن (لااله الا الله) ليس ايضا

بمجرد التكلم به ، بل الاذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل ، وكل شيء منه وله وبه واليه ، ولامؤثر في الوجود الا هو . فالمتحصن بالتوحيد من لامعبود له سوى الله ، وأما من اتخذ اله هواه ، فهو في ميدان الشيطان لافي حصن الله . ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة ، وتدبير فعل الخيرات ، لتمنع من الحضور وفهم ماتقرأ ، فاعلم ان كل مايشغلك عن الاقبال الى الله وعن فهم معانى القرآن والاذكار ، فهو وسواس ، اذ حركة اللسان غير مقصودة ، بل المقصود المعانى . واذا قلت : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فانو به التبرك لابتدائك بقراءة كلام الله ، والمراد بالاسم هنا المسمى ، فمعناه : ان كل الاشياء والامور بالله ؛ فيترتب عليه انحصار (الحمد لله) ، اذ المراد بالحمد الشكر ، والشكر انما يكون على النعم ؛ فاذا كانت النعم باسرها من الله فيكون منحصرا به ، فمن يرى نعمة من غيرالله أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث انه مسخر من الله ، ففى تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله سبحانه . واذا قلت : (الرحمن الرحيم) ، فاحضر في قلبك انواع لطفه ، وضروب احسانه ، لتتضح لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك . واذا قلت :(مالك يوم الدين) ، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف ، أما العظمة فلأنه لاملك الا هو ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه . ثم جدد الاخلاص بقولك :(اياك نعبد) . وجدد العجز والافتقار والتبري من الحول والقوة بقولك : (واياك نستعين) ؛ وتحقق انه ما تيسرت طاعتك الا باعانته وأن له المنة ؛ اذ وفقك لطاعته ؛ واستخدمك لعبادته ؛ وجعلك أهلا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم ؛ واستحضر أن الاعانة لا تكون الا منه ؛ ولا يقدر غيره أن يعين أحدا ؛ فاخرج عن قلبك الوسائل والاسباب الا من حيث انها مسخرة منه تعالى . واذاقلت: (أهدنا الصراط المستقيم) ، فأعلم أنه طلب لاهم حاجاتك ، وهي الهداية الى النهج الحق الذي يسوقك الى جوار الله ، ويفضي بك الى مرضاته ويوصلك الى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين

من اليهود والنصارى والصابئين . واذا تلوت (الفاتحة) كذلك ، فيشبه ان تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبي (ص) : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ،ونصفها لعبدي . يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله — عز وجل — : حمدني عبدي وأثنى علي . وهو معنى قوله : سمع الله لمن حمده ... » الى آخر الحديث . فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته ،فناهيك به غنيمة ، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله . وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السورة ، فلا تغفل عن امره ونهيه ، ووعده ووعيده ؛ ومواعظه وأخبار أنبيائه ؛ وذكر منته واحسانه ، فكل واحد حق: فحق الامر والنهي العزم ، وحق الوعد الرجاء ، وحق الوعيد الخوف ؛وحق الموعظة الاتعاظ ؛ وحق أخبار الانبياء الاعتبار ، وحق ذكر المنة الشكر ، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ؛ ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف اسرار الكلمات . فهذا حق القراءة ؛ وهو أيضا حق الاذكار والتسبيحات . واعلم أن الناس في القراءة ثلاثة : بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل . وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان ، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره ، وهو درجة اصحاب اليمين . وبعضهم يسبق قلبه الى المعاني اولا ، ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه ؛ وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون السنتهم ترجمان تتبع القلب . ثم ينبغي ان تراعى الهيئة في القراءة ، فترتل ، ولا تسرد ولاتعجل ، فان ذلك ايسر للتأمل ، وتفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد ، والتمجيد والتعظيم ، كان بعضهم اذا مر بمثل قوله :

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله » (٣١) .

يغض صوته ، كالمستحيي عن أن يذكره بكل شيء . وروي : « انه يقال يوم القيامة لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، فكلما قرأ آية صعد درجة» .

---

(٣١) المؤمنون ، الآية : ٩٢ .

فصـــل

الركوع

وأما الركوع ، فينبغي ان تجدد عنده ذكر كبرياء الله ، وترفع بذلك معظما له منبها على غاية عظمته وارتفاعه ، وكونه ارفع من أن تصل اليـه أيدي العقول والاوهام ، ومستجيرا بعفوه من عقابه ؛ وتستأنف بهوئيك للركوع ذلا وتواضعا وتجهدفي ترقيق قلبك وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذلك وعزه ؛ وضعفك وقوته ؛وعجزك وقدرته ، واتضاعك وعلوه ،وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك ، فتسبحه وتشهـد له بالعظمة ، وانـه أعظم من كل عظيم ؛ وتكرر ذلك في قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلالـه ، ثم ترفع عن ركوعك راجيـا انه راحم ذلك ، وتؤكد الرجـاء في نفسك بقولك : (سمع الله لمن حمده) : أي اجاب الله لمن شكره ، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد ، فتقول : (الحمد لله رب العالمين) ، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله ؛ فتقول : (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت) • روى (الصدوق) — رضوان الله عليـه — عن أمير المؤمنين (ع) : « أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع ، فقال (ع): تأويله :آمنت بك ولو ضربت عنقي » • وقال الصادق (ع) : « لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة ، الا زينة الله بنور بهائه ، وأظله في ظل كبريائه وكساه كسوة أصفيائه • والركوع أول ، والسجود ثان • فمن أتى بمعنى الاول صلح للثاني • وفي الركوع أدب ، وفي السجود قرب ، ومن لايحسن الادب لا يصلح للقرب • فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه ، متذلل وجل تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين » [١] • وحكى : « أن ربيع بن خيثم ، كان يسهر بالليل الى الفجر في ركعة واحدة ، فاذا هو اصبح ، تزفر وقال : آه ! سبق المخلصون وقطع بنا » • واستوف ركوعك باستواء ظهرك ، وانحط عن همتـك في

(٣٢) صححنا الحديث على الباب ١٥ من « مصباح الشريعة » . وعلى « بحار الانوار » : ١٨ / ٣٥٦ ، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة . وعلى المستدرك » : ٣٢٥/١ ، باب نوادر مايتعلق بالركوع من كتاب الصلاة ايضا .

القيام بخدمته الا بتأييده وعونه ، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخداعه ومكائده ، فان الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له ؛ ويهديهم الى اصــول التواضع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم .

فصـــل

السجود

واذا هويت الى السجود، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والانكسار اذ السجود أعلى درجات الاستكانة ، فمكن أعز أعضائك وهو الوجــه ، لأذل الاشياء ،وهو التراب ، ولا تجعل بينهما حاجزا ، بل اسجد على الارض لانه أجلب للخضوع ؛ وأدل على الذل . فاذا وضعت نفسك موضع الذل والقيتها على التراب ، فاعلم انك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع الى أصله ؛ فانك من التراب خلقت ، واليه رددت . فعند هذا جــدد على قلبك عظمة الله ، وقل : (سبحان ربي الاعلى وبحمده) ، وأكده بالتكرار اذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار ؛ فان رق قلبك ، وطهر لبك ، فليصــدق رجاؤك في رحمة ربك ، فان رحمته تسارع الى موضع الذل والضعف ، لا الى محل التكبر والبطر . فارفع رأسك مكبرا ومستغفرا من ذنوبك، وسائلا حاجتك ، ثم أكــد التواضع بالتكرار ، وعد الى السجود ثانيـا كذلك . وسئل مولانا أمير المؤمنين (ع) عن معنى السجدة الاولى ، قال : « تأويلها : اللهم انك منها خلقتنا » : يعني من الارض ، وتأويل رفـع رأسك : « ومنها أخرجتنا » ، والسجدة الثانية : « واليها تعيدنا » ،ورفع رأسك : « ومنها تخرجنا تارة اخرى » . وقال مولانا الصادق (ع) : « ما خسر والله ــ تعالى ــ قط من اتى بحقيقة السجود ، ولو كان في العمر مرة واحــدة ، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه ، غافل لاه عما أعــد الله تعالى للساجدين من انس العاجل وراحــة الآجل ، ولا بعد عن الله تعالى أبدا من أحسن تقربه في السجود ، ولا قرب اليه ابدا من أساء أدبه ، وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده فاسجد سجود متواضع لله ذليل ، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق ، وانه ركب من نطفة يستقذرها كــل أحد ، وكــون ولم يكن ، وقد جعل الله

معنى السجود سبب التقرب اليه بالقلب والسر والروح ؛ فمن قرب منه بعد من غيره ، الا ترى في الظاهر أنه لا يستوى حال السجود الا بالتواري عن جميع الاشياء ، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن . فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله تعالى ، فهو قريب من ذلك الشيء ، بعيد عن حقيقة ما اراد الله منه في صلاته . قال الله تعالى : ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » . وقال رسول الله (ص) : «قال الله عز وجل : ما اطلع على قلب عبد فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي ، الا توليت تقويمه وسياسته ، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين » [٣٣] .

فصل

التشهد

اذا جلست للتشهد ــ بعد هذه الافعال الدقيقة والاسرار العميقة . المشتملة على الاخطار الجسيمة ــ فاستشعر الخوف التام والرهبة والوجل والحياء ، ان يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ، ولا محصلا بوظائفه وشرائطه ، ولا مكتوبا في ديوان القبول . فاجعل يدك صفرا من فوائدها ، وارجع الى مبدأ الامر ، وأصل الدين ؛ اعني كلمة التوحيد وحصن الله الذي من دخله كان آمنا ؛ فاستمسك به ان لم تكن لك وسيلة غيره ، فاشهد لربك بالوحدانية ، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك واشهد له بالعبودية والرسالة ؛ وصل عليه وآله ، مجددا عهد الله باعادة كلمتي الشهادة ، متعرضا بهما لتأسيس مراتب العبادة ، فانهما أول الرسائل وأساس الفواضل ؛ ومتوسلا الى رسول الله بالصلاة عليه ، مترقبا بذلك عشرا من صلاته (ص) عليك ــ كما ورد في الخبر ــ ، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت ابدا . قال الصادق (ع) : « التشهد ثناء على الله ، فكن عبدا له في السر ، خاضعا له في الفعل ، كما انك عبد له في القول والدعوى .

---

(٣٣) صححنا الحديث على : الباب ١٦ من (مصباح الشريعة) . وعلى (بحار الانوار) ١٨ / ٣٦٣ ، باب السجود وآدابه .

وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك ؛ فانـه خلقك عبدا ،وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وان تحقق عبوديتك لـه وربوبيته لك وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة الا بقدرته ومشيته وهم عاجزون عن اتيان أقل شيء في مملكته الا باذنه وارادتـه . قال الله عز وجل :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » (٣٤) .

فكن لله عبدا شاكرا بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء سرك ، فانه خلقك فعز وجل ان تكون ارادة ومشية لاحد الا بسابق ارادته ومشيته ، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته ، وبالعبادة في اداء أوامره وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد (ص) ، فاوصل صلاته بصلاته ،وطاعته بطاعته ، وشهادته بشهادته ، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته ، وامره بالاستغفار لك ،والشفاعة فيك ، ان أتيت بالواجب في الامر والنهي والسنن والآداب ؛ وتعلم جليل مرتبته عند الله عزوجل»[٣٥] .

فصل

التسليم

واذا فرغت عن التشهد ، فاحضر بحضرة سيد المرسلين ، والملائكة المقربين ، وبقية أنبياء الله وأئمته — عليهم السلام — والحفظة لك من الملائكة المحصين لاعمالك ، واحضرهم جميعا في بالك . فسلم اولا على نبيك الذي هو أفضل الكل ، وواسطة هدايتك وايمانك ، بقولك : (السـلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته) . ثم توجه الى الجميع ،وسلم عليهم بقولك: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) . ولاتطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك ، فتـكون من العابثين واللاعبين ، وكيف تسمع الخطاب لمن لايقصد ، لولا فضل الله في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب وان كان بعيدا عن درجات القبول ، منحطا عن اوج القرب والوصول. وان

(٣٤) القصص ، الآيـة : ٦٨ .

(٣٥) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٧ . وعلى (بحار الانوار) : ١٨ / ٤٠٣ ، باب التشهد وأحكامه .

كنت اماما لقوم ، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين ، وليقصدوا هم الرد عليك ايضا ، واذا فعلتم ذلك فقد اديتم وظيفة السلام ، واستحققتم من الله مزيـد الاكرام . قال الصادق (ع) : « معنى التسليم في دبر كل صلاة : الامان ، أى من أتى أمر الله وسنة نبيه (ص) خاضعا خاشعا منه ، فله الامان من بلاء الدنيا والبراءة من عذاب الاخرة . والسلام اسم من اسماء الله تعالى أودعه خلقه ، ليستعملوا معناه في المعاملات والامانات والانصافات وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم . فان أردت ان تضـع السلام موضعه ، وتؤدى معناه ، فاتق الله تعالى ليسلم منـك دينك وقلبك وعقلك ألاتدنسها بظلمة المعاصى ، ولتسلم منك حفظتك ألاتبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثم مع صديقك ، ثم مع عدوك فان من لم يسلم منه من هو الاقرب اليه فالابعد أولى ، ومن لايضع السـلام مواضعه هذه فلا سلام ولااسلام ولاتسليم ، وكان كاذبا في سلامه وانأفشاه في الخلق » [٣٦] .

فصـل

افاضة الانوار على المصلى على قدر صفائه

اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات ، واخلاصها لوجه الله ، واداؤهـا بالشروط الباطنة المذكورة ، من الحضور والخشوع ، والتعظيم ، والهيبة ، والحياء : سبب لحصول أنوار في القلب ، تكون تلك الانوار مفاتيح للعلوم الباطنة ، وانما يفيض منها على كل مصل على قدرة صفائه من كدورات الدنيا ويختلف ذلك بالقلة والكثرة ، والقوة والضعف ، والجلاء والخفاء ، ويختلف ايضا بما ينكشف من العلـوم فينكشف لبعضهم من صفات الله وجـلاله ، ولبعضهم من عجائب أفعاله ، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة ، ولبعضهم غير ذلك ، وأولى بالظهور والافاضة لكل شخص مايهمه ويكون في طلبه والى ماذكرناه من ترتب الافاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجـه الله المؤداة بالشروط المذكورة ، أشار النبى (ص) بقوله : « ان العبد اذا قام في الصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ، وواجهه بوجهه وقامت الملائكة

(٣٦) صححنا الحديث على « مصباح الشريعة » : الباب ١٨ / ١٤٤ .

من لدن منكبيه الى الهواء ، يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وان المصلى لينشر عليه البر من أعنان السماء الى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لوعلم المصلى من يناجى ما التفت . وان أبواب السماء تفتح للمصلين ، وان الله يباهى ملائكته بصدق المصلى » . فان رفع الحجاب وفتح ابواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه . وورد في التوراة : « يابن آدم ، لاتعجز ان تقوم بين يدى مصليا باكيا ، فأنا الله الذى اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى » . وورد : « أن العبد اذا صلى ركعتين ، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة ، كل صف منهم عشرة آلاف ، وباهى الله بـه مائة الف » . وذلك لان العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود ، والركوع والسجود ، والذكر باللسان ، وغير ذلك . وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل ، بل هذه الافعال موزعة عليهم ، فبعضهم قائمون لايركعون الى يوم القيامة ، وبعضهم ساجدون لايرفعون الى يوم القيامة ، وهـكذا الراكعون والقاعدون ، فان ماأعطى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم ، مستمر على حالة واحدة ، لاتزيد ولاتنقص ، وليس لهم مرتبة الترقي من درجة الى اخرى ، وباب المزيد مسدود عليهم ، ولذلك قالوا : « ومامنا الا لـه مقام معلوم » ، بخلاف الانسان ، فان له الترقى في الدرجات ، والتقلب في أطوار الكمالات ؛ ومفتاح مزيد الدرجات هى الصلاة ، قال الله سبحانه : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة ، وهي المقرونة بالخشوع ، ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلاة أيضا ، فقال في آخرها :

« والذين هم على صلاتهم يحافظون » ، ثم قال فى ثمرة تلك الصفات : « أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (٣٧) .

فوصفهم بالفلاح أولا ، وبوارثة الفردوس آخرا . فالمصلون هم ورثة الفردوس وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب . وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح مع غفلة القلب ، لاتنتهى درجته الى هذا الحد .

---

(٣٧) المؤمنون ، الآيـة : ٩ — ١١ .

فصــــل

ما ينبغي في امام الجماعـة

ينبغى لامام الجماعة : أن يختص من بين القوم بمزيـد صفاء القلب . واقباله الى الله ، والخشوع والتعظيم ، وغير ذلك من الشرائط الباطنة . لأنه القدرة والجاذب لنفوس الجماعة الى الله ، فما أقبح به أن يكون قلبه غافلا عن الله ، أو واقعا في أودية الوساوس الباطلة في الصلاة ، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعا حاضر القلب معظما لله سبحانه ، وما أشنع به ان يكون التفات قلبه الى من وراءه من الناس الذين لايقدرون على شيء من النفع والضر أكثر من التفات قلبه الى مالك الملك المحيط بالـكل ، الذى حدث بمجرد ارادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت ،أو لايستحى من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل (ص) ، ويحمل محل رسول الله (ص) وأوصيائه الراشدين ـ عليهم السلام ـ وينوب عنهم ، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله ؟! أو لايخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقلتهم ؟ فينبغى لكل امام قوم أن يمتحن نفسه ، فان لم تكن له هذه الصفات الخبيثة فليؤم ، والا فليترك ولا يهلك نفســه . ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بامامة نفسه كفرحه بامامة غيره من امثاله وأقرانه بل ان كان قصده وفرحه بمجرد اقامة السنة ، واحياء رسوم الملة ، فينبغي ان يكون فرحه بامامة غيره ممن هو مرضى ، والاهتمام به اكثر من امامة نفسه لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة ، ينبغى ـ ايضا ـ الا يكون باعثه ومحركه الى المسجد لامامة القوم الا القربة ورجاء الثواب ، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من الشهرة والمنزلة في القلوب ، أو الوصول الى ماينتظم به معاشه ، فله الويل والثبور ، ويكون ممن ضل وأضل وهلك وأهلك !

فصــــل

ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين

ينبغى للحاضر الى صلاة الجمعة والعيدين : ان يستحضر أن هذه الايام أيام شريفة عظيمة ، واعياد مباركة كريمة ، قد خص الله بها هذه الامــة ،

وجعلها أوقاتا شريفة لعباده ، ليقربهم من جواره ، ويبعدهم من عذابه وناره وحثهم فيها على الاقبال بصالح الاعمال ، وتلافي مافرط منهم في بقية الايام والشهور من الاهمال . فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات ، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله ، والوقوف بين يديه ،والمثول في حضرته ، والفوز بمخاطبته . فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهره ، من التنظيف والتطييب ، والتعمم وحلق الرأس ، وقص الشارب والاظفار وغير ذلك من السنن في تخليص النية ، واحضار القلب ، واكثار الخشوع والابتهال الى الله تعالى في صلاته . وينبغى ان يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز وتفرقة الرحمة ، واضافة المواهب فيهما على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما ، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول أعماله والعفو عن تقصيراته ، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد ، وخذلان الطرد ، فتخسر صفقته ، وتظهر بعد ذلك حسرته ، فيفوز الفائزون ،ويسبق السابقون ، وينجو المخلصون ، وهو يكون من الخائبين الخاسرين .

فصل

ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات

اذا ظهرت الآيات ، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها ، ينبغي لكل مؤمن ان يستحضر عندها أهوال الاخرة وزلازلها ، وتكور الشمس والقمر ، وظلمة القيامة ، ووجل الخلائق ، وخوفهم من الاخذ والنكال والعقوبة والاستيصال ، فيكثر فيصلاتها من الدعاء والابتهال بمزيدالخضوع والخشوع والهيبة والخوف في النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة ، وينبغى ان يكون منكسر النفس ، مطرق الرأس ، مستحيا من التقصير ، مستشعرا بقلبه عظمة الله وجلاله .وبالجملة : حصول الخوف والخشية ، والمبادرة الى التضرع والابتهال ، واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات ، من شعار اهل الايمان . قال سيد الساجدين عليه السلام : « لايفزع للآيتين ولايرهب ، الا من كان من شيعتنا ، فان كان ذلك منهما ، فافزعوا الى الله وراجعوه » . وقال الرضا (ع) « انما جعلت للكسوف صلاة لانه من آيات الله تعالى ، لايدري ألرحمة ظهرت

أم لعذاب ، فاحب النبى (ص) ان يفزع امته الى خالقه وراحمه عند ذلك ، ليصرف عنهم شرها ، ويقيهم مكروها ، كما صرف عن قوم يونس (ع) حين تضرعوا الى الله تعالى » .

المقصد الثالث

الذكر — فضيلة الاذكار — الدعـاء

اعلم انه ينبغى لكل مؤمن ان يكثر من الذكر والدعاء ، لاسيما عقيب الصلاة المفروضة . وقد ورد في فضائلهما من الآيات والاخبـار مايمكن احصاؤه ولاشتهارها لاحاجة الى ذكرها هنا .

فصـــل

الذكر

أما الذكر فالنافع منه هو الذكر على الدوام ، أو في اكثر الاوقات ،مع حضور القلب ، وفراغ البال ، والتوجه الكلى الى الخالق المتعال ، حتى يتمكن المذكور في القلب ، وتتجلى عظمته الباهرة عليه ، وينشرح الصدر بشروق نوره عليه ، وهو غاية ثمرة العبادات ، وللذكر أول وآخر ، فاوله يوجب الانس والحب ، وآخره يوجبه الانس والحب ، والمطلوب منهذلك الحب والانس . فان العبد في بداءة الامر يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوساس والفضول الى ذكر الله ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور .ومن أحب شيئا أكثر ذكره ، ومن أكثر ذكرشيء،وان كان تكلفا ، احبه . ومن هنا قال بعضهم : « كاءدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة » ولاتصدر النعم من الانس والحب ، ولايصدر الانس والحب الامن المداومة على المكاءدة والتكلف مدة طويلة ، حتى يصير التكلف طبعاً. وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه أولا ، ويكائد اكله ، ويواظب عليه ، فيصير موافقا لطبعه حتى لايصبرعنه؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت : « هى النفس ماعوّدتها تتعود »

ثم اذا حصل الانس بذكر الله انقطع عن غير الله ، وما سوى اللهيفارقه عند الموت ، ولا يبقى الا ذكر الله ، فان كان قد انس به تمتع به وتلذذ بأنقطاع العوائق الصارفة عنه ، اذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن

ذكر الله ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه ، فعظمت غبطته ، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه عما به انسه ، وهذا الانس يتلذذ به العبد بعد موته الى أن ينزل في جوار الله ، ويترقى من الذكر الى اللقاء ، قال الصادق (ع) : « من كان ذاكرا لله على الحقيقة فهو مطيع ، ومن كان غافلا عنه فهو عاص ، والطاعة علامة الهداية ، والمعصية علامة الضلالة ، وأصلهما من الذكر والغفلة ، فأجعل قلبك قبلة للسانك ، ولا تحركه الا بأشارة القلب ، وموافقة العقل ، ورضا الايمان ، فان الله تعالى عالم بسرك وجهرك ؛ وكن كالنازع روحه ، او كالواقف في العرض الاكبر ، غير شاغل نفسك عما عناك ممـا كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده ووعيده ، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك ، وأغسل قلبك بماء الحزن ، وأجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى اياك ، فانه ذكرك وهو غنى عنك ، فذكره لك أجـل واشهى واثنى واتم من ذكرك له واسبق . ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار ، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق ، وتصغر عند ذلك طاعتك وان كثرت في جنب منته ، وتخلص لوجهه ، ورؤيتك ذكرك له ، يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه ؛ واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه ، ولا تزداد بذلك من الله تعالى الا بعدا ، ولا تستجلب به على مضى الايام الا وحشة . والذكر ذكران : ذكر خالص بموافقة القلب ، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره ، كما قال رسول الله (ص) : (انا لا أحصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك) . فرسول الله (ص) لم يجعل لذكره الله عز وجل مقدارا عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره ، ومن دونه أولى ، فمن أراد ان يذكر الله تعالى ، فليعلم أنه مالم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره ، لايقدر العبد على ذكره » [٣٨] .

---

(٣٨) الحديث مذكور في « مصباح الشريعة » : الباب ١٣٦/٥ . وفى « المستدرك » : [illegible] ٤٠١ ، كتاب الصلاة ، ابواب الذكر . وفى الموضعين اختلاف يسير ، فصححناه على « مصباح الشريعة » ، الموضع المذكور .

تتميم

فضيلة الاذكار

الاذكار كثيرة ، كالتهليل ،والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ،والحوقلة والتسبيحات الاربع ، وأسماء الله الحسنى ، وغير ذلك . وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة ، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وأنشراح الصدر ،وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال، فهي أفضل . ولذا صرحوا بأن افضل الاذكار التهليل ، لدلالته على توحده في الالوهية ، واستناد الكل اليه . وربما كان بعض اسماء الله تعالى في مرتبته أدل ، والعارف السالك الى الله يعلم : أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله مالا يمكن التعبير عنه بأسم .

فصل

الدعاء

وأما الدعاء ، فهو مخ العبادة ، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والاخبار ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . والادعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات ، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة الا وقد وردت به أدعية ، فمن أراد شيئا منها فليأخذ من مواضعها .

ومما ينبغي لكل داع ، أن يراعي شرائط وآدابا في الدعاء ، حتى يستجاب له ، ويصل الى فائدته ، وتحصل لنفسه نورانية ، وهي ان يترصد لدعائه الاوقات الشريفة ، والاحوال الشريفة ، والاماكن المتبركة المشرفة ، وأن يدعو متطهرا ، مستقبل القبلة ، رافعا يديه بحيث يرى باطن ابطيه ، وأن يخفض صوته بين الجهر والاخفات ، ولا يتكلف السجع في الدعاء ، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة ، وأن يجزم ويتيقن أجابة دعائه، ويصدق رجاءه فيه ، وأن يلح في الدعاء ، ويكرره ثلاثا ، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده ، ولا يبتدىء بالسؤال ، وأن يتوب ، ويرد مظالم العباد، ويقبل على الله بكنه الهمة ، وهو السبب القريب للاجابة ، وأن يكون مطعمه وملبسه من الحلال ، وهو أيضا من عمدة الشرائط ، وان يسمى حاجته .

ويعم في الدعاء ، ويبكى عنده ، وهو أيضا سيد الآداب ، وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة اليه ، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى ، قال الصادق (ع) : « احتفظ ادب الدعاء ، وانظر من تدعو ، وكيف تدعو ، ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبرياءه ، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، وأطلاعه على سرك وما تكنّ فيه من الحق والباطل ، وأعرف طرق نجاتك وهلاكك ، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك قال الله تعالى :

« ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » (٣٩) .

وتفكر ماذا تسأل ، ولماذا تسأل . والدعاء أستجابة الكل منك للحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعا ، وتسليم الامور كلها — ظاهرها وباطنها — الى الله تعالى ، فان لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة ، فانه يعلم السر وأخفى ، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من سرك خلاف ذلك . واعلم انه لولم يكن الله أمرنا بالدعاء ، لكنا اذا أخلصنا الدعاء ، تفضل علينا بالاجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء ، وسئل رسول الله (ص) عن اسم الله الاعظم ، فقال : (كل اسم من أسماء الله اعظم) . ففرغ قلبك عن كل ما سواه ، وادعه بأي اسم شئت، فليس في الحقيقة لله اسم دون ، بل هو الله الواحد القهار . وقال النبي(ص) : (ان الله لايستجيب الدعاء من قلب لاه) . فاذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء ، وأخلصت سرك لوجهه ، فأبشر بأحدى ثلاث : اما انيعجل لك بما سألت ، واما أن يدخر لك بما هو أفضل منه ، واما أن يصرفعنك من البلاء مالو أرسله عليك لهلكت » (٤٠) . وسئل من الصادق (ع) : مالنا ندعوا ولا يستجيب لنا ؟ فقال : « لأنكم تدعون من لاتعرفونه ، وتسألون من لاتفهمونه ، فالاضطرار عين الدين ، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان ، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت

---

(٣٩) الاسراء ، الآية : ١١ .

(٤٠) الحديث مذكور في « مصباح الشريعة » الباب ١٩/١٤٥ — ١٤٦ وفيه اختلاف كثير عما هنا ، فصححناه على المصباح ،الموضع المذكور .

قدرة الله ، حكم على الله بالسؤال ، وظن أن سؤاله دعاء ، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى » .

المقصد الرابع

تلاوة القرآن

أعلم انه لاحد لثواب تلاوة القرآن ، والاخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لاتحصى كثرة ، وكيف لايعظم أجره وهو كلام الله ، حامله روح الامين الى سيد المرسلين ، فتأمل ان الكلام الصادر من الله بلا واسطة اذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته ، ومن حيث المعنى متضمنا لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام ، ومخبرا عن دقائق صنع الله ، وعن مغيبات الاحوال والقصص الواقعة في سوالف القرون والاعوام ، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس ؟ . وبالجملة : العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن ،والاخبار الواردة فيه مشهورة، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة .

أما الآداب الظاهرة ، فالوضوء ،والوقوف على هيئة الادب ، والطمأنينة اما قائما أو جالسا ؛ مستقبل القبلة ، مطرقا رأسه ، غير متربع ولا متكىء . والترتيب والبكاء ، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء . والا فالسر أفضل، وتحسين القراءة وتنزيهها ، ومراعاة حق الآيات ، فاذا مر بآية السجود سجد ، واذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله ، واذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى ان يرزقه ، واذا مر بآية تسبيح او تكبير سبح وكبر، واذا مر بآية دعاء او استغفار دعا واستغفر ، وأفتتاح القراءة بقوله : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) ، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة : (صدق الله العلي العظيم وبلغ رسوله الكريم ، اللهم أنفعنا به وبارك لنا فيه ، والحمد لله رب العالمين) .

وأما الآداب والاعمال الباطنة :

فمنها — فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه ، في

نزوله عن عرش جلاله الى درجة أفهام خلقه : فلينظر كيف لطف بخلقه في أيصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته الى افهام خلقه ، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر ، اذ يعجز البشر عن الوصول الى فهم صفـات الله الا بوسيلة صفات نفسه ، ولولا استتار كنه جمـال كلامه بكسوة الحروف ، لما ثبت لسماع كلامه عرش ولا ثرى ، ولا شيء ما بينهما ، من عظمة سلطانه وسبحات نوره ، ولولا تثبيت الله موسى (ع) لما أطاق سماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حيث صار دكا ، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام الا بأمثلة على حد فهم الخلق ، ولهذا عبر عنه بعض العارفين ، فقال : « ان كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف ، وان الملائكة لو أجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما أطاقوه ، حتى يأتي أسرافيل ، وهو ملك اللوح ، فيرفعه . فنقله بأذن الله ورحمته ، لابقوته وطاقته » . وايصال معاني الكلام مع علوء درجته الى فهم الانسان مع قصور رتبته ، تشابه من درجة تصويت الانسان البهائم والطيور . فان الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من أقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها ، وكان تمييزها قاصرا عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه ، فينزل الى درجة تمييز البهائم ، ويوصل مقاصده اليها بأصوات لائقة بها ، من النفيروالصفير والاصوات القريبة من أصواتها ، يطيقون حملها . وكذلك الناس ، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته ، فتنزل من عرش العظمة والجلال الى درجة أفهامهم ، فتجلى في مظاهر الاصوات والحروف ، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه . فكما أن بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح ، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها . والكلام عالي المنزلة ، رفيع الدرجة ، قاهر السلطان ، نافذ الحكم في الحق والباطل ؛ وهو القاضي العادل ؛ يأمر وينهى ، ولا طاقة للباطل ان يقوم قدام كلام الحكمة ، كما لايستطيع الظل ان يقوم قدام شعاع الشمس ، ولاطاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة ، كما لاطاقة لهم ان ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون منها ما تقدر به أبصارهم ويستدلون به على

حوائجهم . فالكلام كالملك المحجوب ، الغائب وجهه ، المشاهد أمره ، فهو مفتـاح الخزائن النفيسة ، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ، ودواء الاسقام الذي من سقى منه لم يسقم .

ومنها ـ تعظيم المتكلم : فينبغي للقارىء عند الابتداء بالتلاوة ، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم انه ليس من كلام البشر ، بل هو كلام خالق الشمس والقمر ، وفي تلاوة كلامه غايـة الخطر ، اذ كما لاينبغي ان تمسَّ جلده وورقه وحروفه البشرة المستقذرة بخبث او حدث ، فكذلك لاينبغي ان تقرؤه الالسنة المستخبثة بقبائح الكلمات ، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدرة برذائل الاخلاق والصفات ، فكما أنه لايصلح لمس ظاهر خطه كل يد ، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس ، الا اذا كان متطهرا ، فكذلك لايصلح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل قلب ، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب ، الا اذا كانت منقطعة عن كل رجس ، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير . وبالجملة : ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له ، ليتحقق تعظيم الكلام أيضا ، اذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم ، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه ، فليرجع الى التفكر في صفاته وأفعاله ، ويستحضر ان المتكلم هو الذي أوجـد وأظهر بمجرد أرادته كل ما يشاهـده ويسمعه ، من العرش والكرسي والسماوات والارضين ، وما فيها وما تحتها وما فوقها ، وأنه الخالق والرازق للجميع ، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير ، ومردد بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته ، وجميع ذلك لانسبة له الى عوالم المجردات . فالتفكر في أمثال ذلك يوجب أستشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام . ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم اذا نشر المصحف للتلاوة غشي عليه ، ويقول : (هو كلام ربي ، هو كلام ربي !) .

ومنها ـ الخضوع والرقة : قال الصادق (ع) : « من قرأ القرآن، ولم يخضع ولم يرق قلبه ، ولا ينشيء حزنا ووجلا في سره ، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى ، وخسر خسرانا مبينا ، فقاريء القرآن محتاج الى ثلاثة اشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال . فاذا خشع لله قلبه فرَّ

منه الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى :

« فاذا قرات القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (٤١) .

فاذا تفرغ نفسه من الاسباب ، تجرد قلبه للقراءة ، فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده . فاذا أتخذ مجلسا خاليا ، وأعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين : خضوع القلب وفراغ البدن ، استأنس روحه وسرّه بالله عز وجل ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم ، بفنون كراماته ، وبدائع أشاراته ، فان شرب كأسا من هذا المشرب حينئذ ، لايختار على ذلك الحال حالا ، ولا على ذلك الوقت وقتا ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة ، لأنّ فيه المناجاة مع الرب بلاواسطة . فأنظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه ، وكيف تمتثل حدوده :

« وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٤٢) .

فرتله ترتيلا ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في أمثاله ومواعظه ، وأحذر ان تقع من اقامتك حروفه في اضاعة حدوده » (٤٣) .

ومنها — حضور القلب ، وترك حديث النفس : وهو يترتب على التعظيم ، فان من يعظم شيئا ، كلاما كان أو غيره ، يستبشر ويستأنس به؛ ولا يغفل عنه . ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب ، وتفوح به النفس ، ان كان التالي أهلا له .

ومنها — التدبر : وهو زائد على حضور القلب ، اذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن ، ولكنه أقتصر على سماعه من نفسه ، من دون تدبر فيه . والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن ، قال الله سبحانه :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٤٤) .

---

(٤١) النحل ، الآية : ٩٨ .
(٤٢) فصلت ، الآية : ٤١ — ٤٢ .
(٤٣) صححنا الحديث على « مصباح الشريعة » : الباب ١٤٢/١٤ .
(٤٤) محمد — صلى الله عليه وآله — ، الآية : ٢٤ .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « لاخير في عبادة لافقه فيها ، ولا في قراءة لاتدبر فيها » . واذا لم يتمكن من التدبر الا بالترديد ، فليردد . ولذلك كان الاكابر كثيرا ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها، وربما يقفون عند آية مدة مديدة ، وقال بعضهم : « لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة ، وفي كل سنة ختمة ، ولي ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد ! » ، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه .

ومنها ــ التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، اذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى ، وذكر أفعاله ، وذكر الجنة والنار ، وأحوال النشأة الآخرة ، وذكر أحوال انبيائه ، وأحوال المكذبين ، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك . فان مرّ بآيات صفاته تعالى ، كقوله :

« ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »(٤٥) . وكقوله تعالى : « الملك القدوس السلام ...» الى آخر الآية (٤٦) ،وغير ذلك .

فليتأمل في معاني هذه الاسماء والصفات ، لتنكشف له أسرارهـا المكنونة تحتها ، ولا تنكشف هذه الاسرار الا للمؤيدين في فهم كتاب الله. قال أمير المؤمنين (ع) : « ما أسرّ الي رسول الله (ص) شيئا كتمه عن الناس ، الا ان يؤتى الله عز وجل عبدا فهما في كتابه » . وان مر بآيات الافعال ، أي الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والارض ، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات ، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والامطار وغير ذلك ، فليفهم التالي منها عظمة الله وجلاله. اذ الفعل يدل على الفاعل ، فعظمته تدل على عظمته . وينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، اذ من عرف الحق رآه في كل شيء ، اذ كل شيء منه وبه واليه وله ، فهو الكل في وحده ، ومن لايراه في كل مايراه فكأنه ماعرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ماخلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك الا وجهه ، وان اعتبر من حيث هو ، اذ مع قطع النظر عن الواجب

---

(٤٥) الشورى ، الآية : ١١ .
(٤٦) الحشر ، الآية : ٢٣ .

وايجاده ، لا ذات ولا وجود ؛ بل محض العدم وعدم المحض . فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلى العظيم . فاذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عجائب صنعه وغرائب فعله ، فليتأمل في تلك العجائب ، ثم يترقى منها الى أعجب العجائب ، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الاعاجيب . واذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة ، فليتذكر أن ما في هذا العالم من النعم والنقم لانسبة له الى ما في عالم الآخرة ، فلينتقل من ذلك الى عظمة الله تعالى ، وينقطع اليه باطنا ، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة ، ويوصله الى نعيمها ولذاتها . واذا سمع أحوال الانبياء عليهم السلام ، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم ، فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل اليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لايؤثر في ملكه واذا سمع نصرتهم في الامر ، فليفهم قدرة الله وارادته لنصرته لنصرة الحق . وأما أحوال المكذبين وماجرى عليهم من العقوبات وضروب النكال ، فليستشعر الخوف من سطوته ونقمته ، ويعتبر في نفسه ، ويعلم أنه غفل وأساء الادب ، واغتر بما امهل ؛ فربما تدركه النقمة . وكذلك اذا سمع الوعد والوعيد والامر والتهديد ، فلايمكن استقصاء مايفهم من القرآن ، لانه لانهاية له ، اذ (لارطب ولايابس الا في كتاب مبين)

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي » (٤٧) .

ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه .

ومنها — التخلي عن موانع الفهم : وهى التقليد والتعصب لمذهب ، فان ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها ، والجمود على تفسير ظاهر ، ظانا ان غيره تفسير بالرأى لايجوز ارتكابه ، وصرف الهمة والفهم الى تحقيق الحروف ومايتعلق بها من الامور المتداولة بين القراء ، فان قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعانى ، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة ، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه ، واشراق المعارف الحقة عليه .

(٤٧) الكهف ، الآية : ١١٠ .

قال رسول الله (ص) : ـ « اذا عظمت امتى الدينار والدرهم ، تنزع منها هيبة الاسلام ، واذا تركوا الامر بالمعروف ، حرموا برتة الوحى » • وقد شرط الله تعالى الانابة في الفهم والتذكر ، قال الله تعالى :

« تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » (٤٨) • وقال تعالى: « وما يتذكر الا من ينيب » (٤٩) • وقال تعالى : « انما يتذكر أولوا الالباب » (٥٠) •

ومنها ـ التخصيص : وهو ان يقدر انه المقصود بكل خطاب في القرآن من الامر والنهي والوعد والوعيد ، حتى انه لو سمع قصص الاولين يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتسمر • فما من قصة في القرآن الا وسياقها الفائدة في حق النبى وامته ، ولذلك قال سبحانه :

« ما نثبت به فؤادك » (٥١) •

فان القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة ، ونور وموعظة وبصائر للعالمين فكل احد اذا قرأه ينبغى ان تكون قراءة العبد كتاب مولاه الذى كتب اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه • قال بعض الاكابر : « هذا القرآن رسائل اتتنامن قبل ربنا عزوجل بعهوده ، فتتدبرها في الصلوات ، ونقف في الخلوات ، وتنفذها في الطاعات بالسنن المتبعات » •

ومنها ـ التأثر : وهو ان يتأثر قلبه بآثار مختلفه بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال : من الخوف ، والحزن والوجل . والوجد ، والفرح ، والارتياح ، والرجاء ؛ والقبض ؛ والانبساط فاذاسمع الوعيد فليضطرب قلبه ، ويتضائل من الخرف كأنه يموت، وان سمع وسعه الرحمة ووعد المغفرة ، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج ، واذا سمع وصف الجنة ، فلينبعث باطنه شوقا اليها ، واذا سمع وصف النار، فلترتعد فرائصه خوفا منها ؛ واذا سمع صفات الله واسماءه ونعوت جلاله ، فليتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته وكبريائه ،واذا سمع ذكر الكفار مايستحيل على الله من اتخاذ الولد وامثاله ، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياء من

(٤٨) ق ، الآيــة : ٨ .
(٤٩) المؤمن ، الآية : ١٣ .
(٥٠) الرعد الآية : ٢١ . الزمر ، الآية : ٩ .
(٥١) هود ، الآيــة : ١٢٠ .

قبح مقالتهم • • وقس على ذلك غيره ما الآيات المختلفه • ومهما تمت المعرفة كانت الخشية اغلب الاحوال على القلب ، اذ التضيق غالب على آيات القرآن اذ لاترى ذكر المغفرة والرحمة الا مقرونا بشروط يقصر الاكثرون عن نيلها ، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشيا عليه عند استماع آيات الوعيد ، ومنهم من مات بمجرد استماعها • وبالجملة : المقصود الاصلي من القرآن ، استجلاب هــذه الاحوال الى القلب والعمل به والا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة • وحق تلاوة القرآن ان يشترك فيها اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل ادراك المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة • فاللسان واعظ القلب ،والعقل مترجم ، والقلب متعظ •

ومنها — الترقى : وهو أن يترقى الى ان يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه • فدرجات القراءة ثلاث : الاولى : وهى ادناها ،ان يقدر العبد انه يقرؤه على الله تعالى واقفا بين يديه ، وهو ناظر اليــه ومستمع منــه ، فتكون حاله — على هذا التقدير — التملق والسؤال والتضرع والابتهال • الثانية : ان يشهد بقلبه ، كأن ربه يخاطبه بالطافة ، ويناجيه باحسانه وانعامه فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والاصغاء • الثالثــة : أن يرى في الكــلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات ، فلا ينظر إلى نفسه والى تلاوته ، ولاالى تعلق الانعام به من حيث انه منعم عليه ، بل يكون مقصود الهم على التكلم موقوف الفكر عليه • كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره • وهذه درجة المقربين والصديقين ، وماقبله من درجات اصحاب اليمين وماخرج عن ذلك فهو درجات الغافلين • وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء — ارواحنا فداه — حيث قال (ع) : « الذى تجلى لعباده في كتابه بل في كل شيء ، وأراهــم نفسه في خاطبه ، بل في كل نور » •واشار اليها الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال :« والله لقد تجلى الله عزوجل لخلقه في كلامه ! ولكن لايبصرون » وروى : « أنه لحقته حالة في الصلاة ، حتى خر مغشيا عليه ، فلما سرى عنه ؛ قيل له في ذلك ، فقال (ع) : مازلت اردد الآية على قلبى ، حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته » • وفي مثل

هذه الدرجة تشتد البهجة ،وتعظم الحلاوة واللذة . ولذلك قال بعض الحكماء « كنت اقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ، حتى تلوته كأنى أسمعه عن رسول الله (ص) يتلوه على اصحابه ، ثم رفعت الى مقام فوقه ، فكنت اتلوه كأنى اسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله (ص) فعندها وجدت لذةو نعيما لااصبر عنه » وقال حذيفة : « لو طهرت القلوب ،لم تشبع من قراءة القرآن» وذلك لانها بالطهارة ترقى الى مشاهدة المتكلم في الكلام ، بل التوحيد الخالص للعبد ، ألا يرى في كل شيء الا الله ، اذ لو رأى غيره ؛ لامن حيث انه منه وله وبه واليه ، كان مشركا بالشرك الخفى .

ومنها — التبرى : وهو ان يتبرى من حوله وقوته ، ولايلتفت الى نفسه بعين الرضا والتزكية . فاذا قرأ آيات الوعد ومدح الاخيار ، فلايشهد نفسه ولايدخلها في زمرتهم ، بل يشهد أهل الصدق واليقين ، ويتشوق الى ان يلحقه الله بهم . واذا قرأ آيات المقت والوعيد ، وذم العصاة والمقصرين شهد نفسه هناك ، وقدر انه المخاطب خوفا واشفاقا . والى هذا أشار مولانا أميرالمؤمنين (ع) ، حيث قال في وصف المتقين : «واذا مروا بآية فيهاتخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، وظنوا ان زفير جهنم في آذانهم » فاذا رأى القارىء نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه . فانمن شهد البعد في القرب ، لطف له بالخوف ، حتى يسوقه الى درجة اخرى في القرب وراءها ؛ ومن شهد القرب في البعد مكر به بالامن الذى يفضيه الى درجة اخرى في البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهدا نفسه بعين الرضا ، صار محجوبا بنفسه . فاذا جاوز حد الالتفات الى نفسه ، ولم يشاهد الا الله تعالى في قراءته ، وكشف له سر الملكوت بحسب احواله ، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء ، ويغلب على حاله الاستبشار ، وتنكشف له صورة الجنة ؛ فيشاهدها كأنه يراها عيانا ، وان غلب عليه الخوف ، كوشف بالنار ، حتى يرى انواع عذابها ، وذلك لان كلام الله عزوجل يشتمل على السهل اللطيف ، والشديد العسوف ، والمرجو والمخوف ؛ وذلك بحسب أوصافه ، اذ منها الرحمة واللطف .

ومنها — القهر والبطش والانتقام :فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات

ينقلب القلب في اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ، ويمتنع ان يكون حال المستمع واحـدا والمسموع مختلفا ، اذ فيه كلام راض ، وكلام غضبان ، وكلام منعم ، وكلام منتقم . وكلام جبار متكبر لايبالي ؛ وكلام منان متعطف لايهمل .

المقصد الخامس

الصـوم

اعلم ان الصوم اجره عظيم ، وثوابه جسيم ،ومايـدل على فضلهمن الآيات والاخبار اكثر من ان تحصى ، وهي معروفة مشهورة فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى مايتعلق به من الامور الباطنة :

فصـــل

ما ينبغي للصائم

ينبغي للصائم ان يغض بصره عن كل مايحرم النظر اليـه ، او يكره ، أو يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى ، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة ، ويكف السمع عن كل مايحرم او يكره استماعه ، ويكف بطنهعن الحرام والشبهات ، ويكف سائر جوارحه عن المكاره . وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليـه اخبار كثيرة . وينبغي أيضا الا يستكثر منالحلال وقت الافطار بحيثيمتلىء ، اذ مامن وعاء ابغض الى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال ، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة والهوى ، لتتقوى النفس على التقوى ، وترتقىمن حضيض حظوظ النفس البهيمية الىذروة التشبيه بالملائكة الروحانية ،وكيف يحصل ذلك اذا تدارك الصائم عند الافطار مافاته ضحوة نهاره ، لاسيما اذا زيد عليه في ألوان الطعام ، كما استمرت العادات في هذه الاعصار ، وربما يؤكل من الاطعمة في شهر رمضان مالايؤكل في عدة شهور . ولاريب ني أن المعدة اذا خليت من ضحوة النهار الى العشاء ، حتىهاجت شهوتهاوقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، واشبعت من ألوان المطاعم ، وجمع ماكان ياكل ضحوة الى ماياكل ليلا ، واكل الجميع في الليل مرة أو مرتين أو اكثر زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ماعساها كانتراكدة

لوتركت على عادتها ، فلايحصل ماهو المقصود من الصوم ، أعنى تضعيف القوى الشهوية التى هى وسائل الشيطان ، فلابد من التقليل ، وهو ان يأكل في مجموع الليلة أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لولم يصم ، من دون ضم ما يأكل في النهار اليه ، حتى ينتفع بصومه . والحاصل : انروح الصوم وسره والغرض الاصلى منه : التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى ، أعنى الصمدية والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الامكان ، وهذا انمايحصل بتقليل الاكل عما يأكله في غير وقت الصوم ، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين عند العشاء . ثم لو جعل سر الصوم مايظهر من بعض الظواهر من ادراك الاغنياء ألم الجوع والانتقال منه الى شدة حال الفقراء ، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالاموال والاقوات ، فهو أيضا لايتم بدون التقليل في الاكل .

ننه

فصل

ما ينبغي للصائم عند الافطار

ينبغى لكل صائم ان يكون قلبه بعد الافطار مضطربا ، معلقا بين الخوف والرجاء ، اذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين ، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها . روى : « ان الامام ابا محمد الحسن المجتبى (ع) مر بقوم يوم العيد ، وهم يضحكون ، فقال (ع) : ان الله تعالى جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه ، يستبقون فيه لطاعته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذى فاز فيه المسارعون وخاب فيه المبطلون ، أما والله لوكشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه ، والمسيء عن اساته !» ، أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك

فصل

درجات الصوم

للصوم ثلاث درجات :

الاولى — صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لايفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب .

الثانية ـ صوم الخصوص : وهو الكف المذكور ، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصى ، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع .

الثالثة ـ صوم خصوص الخصوص : وهو الكفان المذكوران ، مع صوم القلب عن الهمم الدنية ، والاخلاق الردية ، والافكار الدنيوية ،وكفه عما سواه بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ماسوى الله واليوم الآخر ، وحاصل هذا الصوم اقبال بكنه الهمة على الله ، وانصراف عن غير الله وتلبس بمعنى قوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم » ، وهذا درجة الانبياء والصديقين والمقربين ، ويترتب عليه الوصول الى المشاهدة واللقاء، والفوز بما لاعين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولاخطر على قلب احد . والى هذا الصوم أشار مولانا الصادق (ع) حيث قال : « قال النبى(ص) : الصوم جنة . أى ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة ، فاذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات ،وقطع الهمة عن خطرات الشياطين ،وانزل نفسك منزلة المرضى ،ولاتشتهى طعاما ولاشرابا ، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب ، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الاخلاص لوجه الله قال رسول الله (ص) : قال الله تعالى : الصوم لى وانا اجزى به . والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع ، وفيه صفاء القلب ، وطهارة الجوارح ، وعمارة الظاهر والباطن ، والشكر على النعم والاحسان الى الفقراء ، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء ، وحبل الالتجاء الى الله ، وسبب انكسار الهمة وتخفيف الحساب ، وتضعيف الحسنات ، وفيه من الفوائد مالايحصى ولايعد ، وكفى بماذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله »[٥٣]

تتميم

من صام شهر رمضان اخلاصا لله وتقربا اليه ، وطهر باطنه من ذمائم الاخلاق ، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام ، وأجتنب عن الحرام ، ولم يأكل الا الحلال ، ولم يفرط في الاكل ، وواظب على جملة من النوافل

(٥٣) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢٠ . وعلى (المستدرك) : ١/ ٥٨٩ ـ ٥٩٠ ، كتاب الصوم .

والادعية وسائر الآداب المسنونة فيه ، استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة ، بمقتضى الاخبار المتواترة • ثم ان كان من العوام ، حصل لهمن صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته ، وان كان من أهل المعرفة ، فعسى الشيطان لايحوم على قلبه ، فينكشف له شيء من الملكوت ، وسيما في ليلة القدر ، اذ هي الليلة التي تنكشف فيها الاسرار ، وتفيض على القلوب الطاهرة الانوار ، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الاكل بحيث يحس ألم الجوع ، اذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام ، فهو محجوب عن عوالم الانوار ، ويستحيل أن ينكشف له شيء من الاسرار •

المقصد السادس

الحج

أعلم أن الحج أعظم اركان الدين ، وعمدة ما يقرب العبد الى رب العالمين ، وهو أهم التكاليف الالهية وأثقلها ، وأصعب العبادات البدنية وأفضلها ، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدها الدين ؛ ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين • والاخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الاخبار ، والاحكام والشرائط الظاهرة له على عهدة الفقهاء ، فلنشر الى الاسرار الخفية ، والاعمال الدقيقة ، والآداب الباطنة ؛ التي يبحث عنها أرباب القلوب :

فصل

الغرض من ايجاد الانسان

اعلم أن الغرض الاصلي من ايجاد الانسان معرفة الله والوصول الى حبه والانس به ، والوصول اليه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها • فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجردا ، كان أنسها وحبها بالله أشد وأكثر • وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات والكف عن اللذات ، والانقطاع عن الحطام الدنيوية ، وتحريك الجوارح وايقاعها لأجله في الاعمال الشاقة ، والتجرد لذكره وتوجيه القلب اليه • ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الامور ، اذ بعضها انفاق المال وبذله ،الموجب للانقطاع عن الحطام الدنيوية ، كالزكاة والخمس والصدقات

وبعضها الكف عن الشهوات واللذات ، كالصوم ، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب اليه ، وارتكاب تحريك الاعضاء وتعبها ، كالصلاة ، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الامور مع الزيادة ، اذ فيه هجران أوطان، واتعاب أبدان ، وانفاق أموال ، وانقطاع آمال ، وتحمل مشاق • وتجديد ميثاق ، وحضور مشاعر ، وشهود شعائر ، ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله ، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات ، مع كون أعماله أمورا لاتأنس بها النفوس ،ولا تهتدي الى معانيها العقول ، كرمى الجمار بالاحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، اذ بمثل هذه الاعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فان سائر العبادات اعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل ، فللنفس اليها ميل ، وللطبع بها أنس •

وأما بعض أعمال الحج ، كرمى الجمار وترددات السعي ، فلاحظ للنفس ولا انس للطبع فيها ، ولا أهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون الاقدام عليها الا لمجرد الامر وقصد الامتثال له من حيث انه أمر واجب الاتباع ، ففيها عزل العقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل انسه ، فان كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع اليه ميلا ما ، فيكون ذلك الميل معينا للامتثال ، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال النبي (ص) في الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقا وتعبدا ورقا ! » ، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات • فمثل هذه العبادات — أي مالم يهتد العقل الى معناه ووجهه — أبلغ أنواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغي الى الاسترقاق ، فتعجب بعض الناس من هذه الافعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات ، وهذا هو السر في وضع الحج ، مع دلالة كل عمل من أعماله على بعض أحوال الآخرة ، أو في بعض أسرار أخر — كما يأتي — ما فيه من أجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي ، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم ، ومن قبله على خليله المعظم — عليهما أفضل الصلاة — ، بل لايزال مرجعا ومنزلا لجميع الانبياء ، من آدم الى خاتم ، ومهبطا للوحي ، ومحلا لنزول طوائف الملائكة • وقد تولد فيه سيد الرسل (ص) وتوطأت أكثر

مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الانبياء ، ولذلك سمي بـ (البيت العتيق) ، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة الى نفسه ، ونصبه مقصدا لعباده، وجعل ما حواليه حرما لبيته ؛ وتفخيما لأمره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره ، ووضعه على مثال حضرة الملوك ، فقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثاء غبراء ، متواضعين لرب البيت ، ومستكنين له ؛ خضوعا لجلاله ؛ واستكانة لعزته وعظمته ؛ مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت او يكتنفه بلد .

ولا ريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع ، مع ما فيه من حصول الموالفة والمصاحبة ، ومجاورة الابدال والاوتاد والاخيار المجتمعين من أقطار البلاد ، وتظاهر الهمم ، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة ، بذكر النبي (ص) وأجلاله ، ونزول الوحي عليه، وغاية سعيه وأهتمامه في اعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه ، فتحصل الرقة للقلب ، والصفاء للنفس . ثم لكون الحج اعظم التكليفات لهذه الامــة . جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة ، فان الامم الماضية اذا أرادوا العمل لأصعب التكاليف وأشقها على النفس ، أنفردوا عن الخلق ، وانحازوا الى قلل الجبال ، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله ، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات ، فتركوا اللذات الحاضرة ، وألزموا أنفسهم الرياضات الشاقة ، طمعا في الآخرة ، وقد اثنى الله عليهم في كتابه ، وقال :

« **ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون** »(٥٣) . **وقال تعالى** : « **ورهبانية أبتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله** »(٥٤) .

ولما أندرس ذلك ، وأقبل الخلق على أتباع الشهوات ، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى ، وفروا عنها ، بعث الله تعالى من سرة البطحا محمدا (ص)، لاحياء طريق الآخرة ؛ وتجديد سنة المرسلين في سلوكها ، فسأله أهل الملل من الرهبانية والسياحة في دينه ، فقال (ص) : « أبدلنا بالرهبانية الجهاد،

---

(٥٣) المائـدة ، الآية : ٨٥ .
(٥٤) الحـديد ، الآية : ٢٧ .

والتكبير على كل شرف ــ يعني الحج ــ ، وأبدلنا بالسياحة الصوم » .
فأنعم الله على هذه الامة ، بأن جعل الحج رهبانية لهم ، فهو بازاء أعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة .

فصـــل

ما ينبغي فى الحــاج

ينبغي للحاج ، عند توجهه الى الحج ، مراعات أمور :

الاول ــ أن يجرد نيته لله ، بحيث لايشوبهــا شيء من الاغراض الدنيوية ، ولايكون باعثه على التوجه الى الحج الا امتثال أمر الله ، ونيل ثوابه ، والاستخلاص من عذابه ، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر ، مكنون في بعض زوايا قلبه ؛ كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لولا يحج ، او الخوف من الفقر وتلف أمواله لو ترك الحج ؛ لما أشتهر من أن (تارك الحج يبتلى بالفقر والادبار) ، او قصد التجارة أو شغل آخر ، فان كل ذلك يخرج العمل من الاخلاص ، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود ، وما أجهل من تحمل الاعمال الشاقة التي يمكن ان تحصل بهــا سعادة الابد ، لأجل خيالات فاسدة لايترتب عليها سوى الخسران فائدة فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله ، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة ، ويتيقن أنه لايقبل من قصده وعمله الا الخالص ، وان من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غيره ، فليصحح في نفسه العزم ، وتصحيحه بأخلاصه بأجتناب كل ما فيه رياء وسمعة .

الثاني ــ أن يتوب الى الله تعالى توبة خالصة ، ويرد المظالم ، ويقطع علاقة قلبه عن الالتفات الى ما وراءه ، ليكون متوجها الى الله بوجه قلبه ، ويقدر أنه لايعود ، وليكتب وصيته لأهله وأولاده ، ويتهيأ لسفر الآخرة ، فان ذلك بين يديه على قرب ؛ وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لأسباب ذلك السفر ، فهو المستقر واليه المصير . فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا ، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة .

الثالث ــ أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، ويعلم انه ترك الاهل والاوطان ، وفارق الاحبة والبلدان ، للعزم على أمر رفيع شأنه ،

خطير أمره : اعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس ، فسفره هذا لايضاهي أسفار الدنيا . فليحضر في قلبه ماذا يريد ، وأين يتوجه ، وزيارة من يقصد ، وأنه متوجه الى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين اليه ، الذين نودوا فأجابوا ، وشوقوا فأشتاقوا ، ودعوا فقطعوا العلائق . وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه ، تسليا بلقاء البيت عن لقاء صاحبه ، الى أن يرزقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر الى مولاهم ، فليحضر في قلبه عظم السفر ، وعظمة البيت ، وجلالة رب البيت ، ويخرج معظما لهما ، ناويا ان لم يصل وادركته المنية في الطريق لقى الله وافدا اليه بمقتضى وعده .

الرابع — أن يخلى نفسه عن كل مايشغل القلب ،ويفرق الهم في الطريق،او المقصود ، من معاملة او مثلها ، حتى يكون الهم مجردا لله ، والقلب مطمئنا منصرفا الى ذكر الله وتعظيم شعائره ، متذكرا عند كل حركة وسكون أمرا أخرويا يناسبه .

الخامس — ان يكون زاده حلالا ، ويوسع فيه ويطيبه ، ولا يغتم ببذله وانفاقه ، بل كان طيب النفس به ، اذ أنفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله ، والدرهم منه بسبعمائة درهم ، قال رسول الله (ص) : « من شرف الرجل أن يطيب زاده اذا خرج في سفر » . وكان السجاد (ع) اذا سافر الى الحج ، يتزود من أطيب الزاد ، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى . وقال الصادق (ع) : « اذا سافرتم ، فأتخذوا سفرة وتنوقوا فيها » . وفي رواية : « أنه يكره ذلك في زيارة الحسين (ع) » . نعم ينبغي أن يكون الانفاق على الاقتصاد مندون تقتير ولا اسراف ، والمراد بالاسراف التنعم بأطائب الاطعمة ، والترفه بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين ، وأما كثرة البذل على المستحقين ، فلا اسراف فيه ، اذ لاخير في السرف ، ولا سرف في الخير . وينبغي — أيضا — أن يكون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن ، لأن ذلك من دلائل قبول حجه ، فان ذهاب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة في سبيل الله ، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد ، فله بكل

أذى أحتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شيء عند الله .

السادس — أن يحسن خلقه ، ويطيب كلامه ، ويكثر تواضعه ، ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام ، والرفث والفسوق والجدال ، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى ، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله ، والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ، ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق . قال رسول الله (ص) : « الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » ، فقيل : يارسول الله، مابر الحج ؟ قال : « طيب الكلام واطعام الطعام » . فلا ينبغي ان يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله، وعلى غيرهما من أصحابه ، بل يلين جانبه ، ويخفض جناحه للسائرين الى بيت الله ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق مجرد كف الاذى ، بل احتمال الاذى ، وقيل : سمي السفر سفرا ، لانه يسفر عن أخلاق الرجال.

السابع — أن يكون أشعث أغبر ، غير متزين ولا مائل الى اسباب التفاخر والتكاثر ، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين، ويمشي ان قدر ، خصوصا بين المشاعر . وفي الخبر : « ماعبدالله بشيء أفضل من المشي » . وينبغي ألا يكون الباعث للمشي تقليل النفقة ، بل التعب والرياضة في سبيل الله ، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار ، فالركوب أفضل . وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشي ، وساء خلقه ، وقصر في العمل ، ففي الخبر : « تركبون أحب الي ، فان ذلك أقوى على الدعاء والعبادة » . وكان الحسين بن علي عليهما السلام يمشي وتساق معه المحامل والرحال . واذا حضرت الراحلة ليركبها ، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب ، لتتحمل عنه الاذى ، وتخفف عنه المشقة . وينبغي ان يرفق بها ، فلا يحملها مالا تطيق .

فصل

الميقات

اذا خرج عن وطنه ، ودخل الى البادية ، متوجها الى الميقات ، وشاهد العقبات ، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات يوم القيامة ، وما بينهما من الاهوال والمطالبات ، وليتذكر من هول قطاع الطريق

هول منكر ونكير ، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها ، ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته ، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر .

فصـــل

ما ينبغي في الميقات

اذا دخل الميقات ، ولبس ثوبي الاحرام ، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه ، وأنه سيلقى الله ملفوفا في ثياب الكفن لامحالة ، فكما لايلقى بيت الله الا بهيئة وزي يخالف عادته ، فكذلك لايلقى الله بعد الموت الا في زي يخالف زي الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب ، اذ ليس مخيطا ، كما أن الكفن أيضا ليس مخيطا . واذا أحرم وتلبى ، فليعلم أن الاحرام والتلبية اجابة نداء الله ، فليرج ان يكون مقبولا ، وليخش ان يكون مردودا ، فيقال : لالبيك ولاسعديك ! فليكن بين الخوف والرجاء مترددا ، وعن حوله وقوته متبرأ ، وعلى فضل الله وكرمه متكلا . فان وقت التلبية هو بداية الامر ، وهو محل الخطر . وقد روى : « أن علي بن الحسين — عليهما السلام — لما أحرم ، واستوت به راحلته ، اصفر لونه وانتقص ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبى . فقيل له : لم لاتلبى ؟ فقال : أخشى ان يقول ربى : لالبيك ولاسعديك ! فلما لبى غشى عليه وسقط من راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه » فليتذكر الملبى عند رفع الاصوات في الميقات خائفا راجيا ، انه اجابة لنداء الله تعالى : اذ قال تعالى :

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا » (٥٥) .

ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله ، ومنقسمين الى مقربين ومبعدين ، ومقبولين ومردودين ، ومرددين في اول الامر بين الخـوف والرجاء ، مثل تردد الحاج في الميقات ، حيث لايدرون أيتيسر لهم اتمام الحج وقبوله أم لا .

---

(٥٥) الحج ، الآيـة : ٢٧ .

فصـــل

ما ينبغي عند دخول مكة

ينبغي ان يتذكر عند دخوله مكة : انه قد انتهى الى حرم من دخلـه كان آمنا ، وليرج عنده ان يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليضطرب قلبـه من الايكون اهلا للقرب والقبول فيكون بدخـول الحرم خائبا مستحقا للمقت ، وليكن رجاؤه في جميع الاوقات غالبا ، اذ شرف البيت عظيم،ورب البيت كريم ؛ والرحمة واسعة ، والفيوضات نازلة ، وحق الزائر منظور ، واللائذ المستجير غير مردود . واذا وقع البصر على البيت ، فليحضر فيقلبه عظمته ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه ، وليرج أن يرزقهلقاءه كما رزقه لقاء بيته ، وليشكر الله على تبليغه اياه الى بيته ، والحاقه اياه بزمرة الوافدين اليه ، ويتذكر عند ذلك ايصاب الخلائق الى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم الى مأذونين في الدخول ومصروفين عنهـا ، انقسام الحاج الى مقبولين ومردودين .

فصـــل

ما ينبغي عنـد الطواف

وينبغي عند الطواف ان يمتلىء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ويعلم انه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش ، وليعلم ان المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت ، دون مجرد طواف جسمهبالبيت فليبتدىء الذكر به ويختم به ، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختمبالبيت فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية ، والبيت مثـال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التى لاتشاهد بالبصر ، وهوعالمالغيب وعالم الملك والشهادة ، مدرجة الى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب وماورد من البيت المعمور في السماوات بازاء الكعبة ، وان طواف الملائكة بها كطواف الانس بهذا البيت ، ربما كان اشارة الى ماذكرناه من المماثلة ، ولماقصرت رتبة الاكثرين عن مثل ذلك الطواف ،أمروا بالتشبه بهم بقـدر الامكان ، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم .

فصل

ما ينبغي عند استلام الحجر

ينبغي ان يتذكر عند استلام الحجر الاسود ، انـه بمنزلة يمين الله في أرضه ، وفيه مواثيق العباد . قال رسول الله (ص) : « استلموا الركن ، فانه يمين الله في خلقه ، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل ، ويشهد لمن استلمه بالمـوافاة » ومراده (ص) بالركن : الحجر الاسـود لانـه موضوع فيه ، وانما شبه باليمين لانه واسطة بين الله وبين عبـاده في النيل والوصول والتحبب والرضا ، كاليمين حين التصافح . وقال الصادق (ع) « ان الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد ، أمر الحجر فالتقمها ، فلذلك يقال : أمانتى اديتها ، وميثاقى عاهدته ، لتشهد لى بالموافاة » .وقال (ع) « الركن اليمانى باب من أبواب الجنة ، لم يغلقه الله منذ فتحه » . وقال(ع) « الركن اليمانى بابنا الذى يدخل منه الجنة ، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد » ، قيل : انما شبه بباب الجنة لان استلامه وسيلة الى وصولها وبالنهر ، لانه تغسل به الذنوب . ثم لتكن النية في الاستلام والالتصاق بالمستجار ، بل المماسة لكل جزء من البيت ، طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ، وتمسكا وتبركا بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت ، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الامان ، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه ، المتضرع اليه في عفوه عنه المظهر له انه لا ملجأ منه الا اليه ، ولا مفزع الا عفوه وكرمه ، وانه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه ، ويعطيه الامان في المستقبل .

فصل

السعي

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت ، يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد اخرى ، اظهارا للخلوص في الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج ، وهو لا يدرى ما الذى يقضى به الملك في حقه من قبول اورد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد

اخرى ، يرجو ان يرحمه في الثانية ان لم يرحمه في الاولى ، وليتذكر عند تردده التردد بين الكفتين ، ناظرا الى الرجحان والنقصان ، مرددا بين العذاب والغفران .

فصل

ما ينبغي عند الوقوف بعرفات

واما الوقوف بعرفات ، فليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق ، وارتفاع الاصوات ، واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر عرصات يوم القيامة وأهوالها ، وانتشار الخلائق فيها حيارى ، واجتماع الامم مع الانبياء والائمة ، واقتفاء كل امة نبيهم ، وطمعهم في شفاعته لهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . واذا تذكر ذلك ، فليتضرع الى الله تعالى ويبتهل اليه ، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين وينبغي ان يحقق رجاءه اذ اليوم شرف والموقف عظيم والنفوس من أقطار الارض فيه مجتمعة ، والقلوب الى الله سبحانه منقطعة ، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة ، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعاونة ، وايديهم الى حضرة الربوبية مرتفعة ، وابصارهم الى باب فيضه شاخصة ، واعناقهم الى عظيم لطفه وبره ممتدة ، ولايمكن ان يخلو الموقف عن الاخيار والصالحين وأرباب القلوب والمتقين ، بل الظاهر حضور طبقات الابدال وأوتاد الارض فيه ، فلا تستبعدن ان تصل الرحمة من ذى الجلال بواسطة القلوب العزيزة والنفوس القادسة الشريفة ، الى كافة الخليقة ، ولاتظنن انه يخيب آمال الجميع ، ويضيع سعيهم ، ولايرحم غربتهم وانقطاعهم عن الاهل والاوطان فان بحر الرحمة اوسع من ان يضن به في مثل هذه الحالة ، ولذا ورد : انه من اعظم الذنوب ان يحضر عرفات ويظن ان الله لم يغفر له .

فصل

المشعر

واذا فاض من عرفات ودخل المشعر ، فليتذكر عند دخوله فيه : ان الله سبحانه قد أذن له في دخول حرمه بعد ان كان خارجا عنه ، اذ المشعر من

جملة الحرم ، وعرفات خارجة عنه ، فليتفاءل من دخول الحرم بعد خروجه عنه ، بأن الله سبحانه قربه اليه وكساه خلع القبول ،وأجاره وآمنه من العذاب والعبد ، وجعله من اهل الجنة والقرب •

فصـــل

ما ينبغي عنـد الرمي والذبح

واذا ورد منى ، وتوجه الى رمى الجمار ،فليقصد به الانقياد والامتثال، أظهارا للرق والعبودية ، وتشبيها بالخليل الجليل (ع) ، حيث عرض له أبليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حجه ، فأمره الله تعالى ان يرميهبالحجارة طردا له وقطعا لأصله • وينبغي انيقصد انه يرمى الحصا الى وجه الشيطان، ويقصم به ظهره ، ويرغم به أنفه ، اذ أمتثال أمر الله تعالى تعظيما له يقصم ظهر اللعين ويرغم به أنفه • واذا ذبح الهدي ، فليستحضران الذبح اشارةالى أنه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الامارة وقتلهما ، وبذلك استحق الرحمة والغفران ، ولذا ورد : أنه يعتق بكل جزء من الهدى جزء منه النار • فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الاعمال القبيحة ، حتى يصير حاله أحسن من سابقه ، ليصدق عليه اذلاله الشيطان والنفس الامارة في الجملة ، ولا يكون في عمله من الكاذبين • ولذلك ورد: أن علامة قبول الحج : أن يصير حالهبعد الحج : أحسن مما كان عليه قبله• وفي الخبر : أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي ، وأن يستبدل بأخوانه البطالين أخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة •

تتميم

أسرار الحج

قد ورد عن مرلانا الصادق (ع) خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه فلنذكره تيمنا بكلماته الشريفة :

قال (ع) : « اذا أردت الحج ، فجرد قلبك لله عز وجل ، من قبل عزمك ، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب ، وفوض امورك كلها الى

خالقك ، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم لقضائه وحكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ؛ وأخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك ، مخافة ان يصير ذلك عدوا ووبالا ، فان من ادعى رضا الله ، وأعتمد على شيء ما سواه ، صيره عليه عدوا ووبالا ، ليعلم انه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد الا بعصمة الله تعالى وتوفيقه ، واستعد أستعداد من لايرجو الرجوع ، وأحسن الصحبة ، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه (ص) ، وما يجب عليك من الادب ، والاحتمال ، والصبر ؛ والشكر ؛ والشفقة ؛ والسخاوة ، وايثار الزاد على دوام الاوقات ، ثم أغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع ، واحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته ، ولب بمعنى اجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له ، متمسكا بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت . وهرول هرولة فرا من هواك ، وتبرأ من جميع حولك وقوتك ، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك الى منى ، ولا تتمن مالا يحل لك ولا تستحقه ، واعترف بالخطأ بالعرفات ، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب اليه ، وأتقه بمزدلفه ، وأصعد بروحك الى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل ، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والافعال الذميمة عند رمى الجمرات ، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك ، وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم ، وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله ،واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته ، وودع ما سواه بطواف الوداع ، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا ، وكن ذامرة من الله بفناء أوصافك عند المروة ، واستقم على شروط حجتك ، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك ، واوجبت له الى يوم القيامة ، وأعلم بأن الله لم يفترض الحج ، ولم يخصه من جميع الطاعات بالاضافة الى نفسه بقوله تعالى :

« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٥٦) .

ولا شرع نبيه (ص) سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه ، الا للاستعداد والاشارة الى الموت والقبر والبعث والقيامة ، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها ، بمشاهدة مناسك الحج من أولها الى آخرها ، لأولى الالباب وأولى النهى » (٥٧) .

خاتمة

زيارة المشاهد

في الاشارة الى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد .

أعلم ان النفوس القوية القدسية ، لاسيما نفوس الانبياء والائمة — عليهم السلام — ، اذا نفضوا أبدانهم الشريفة ، وتجردوا عنها ، وصعدوا الى عالم التجرد ، وكانوا في غاية الاحاطة والاستيلاء على هذا العالم ، فأمور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة ، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم ، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه ، لاسيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية ، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية ، فانهم هناك يشهدون .

« بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٥٨) .

وبما آتاهم الله من فضله فرحون ، فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري قبورهم ، وحاضري مراقدهم ، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والاستشفاع والتضرع ، فتهب عليهم نسمات ألطافهم ، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم ، ويشفعون الى الله في قضاء حوائجهم ، وانجاح مقاصدهم ، وغفران ذنوبهم ، وكشف كروبهم . فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والائمة — عليهم السلام — ، مع ما فيه من صلتهم وبرهم وأجابتهم ، وادخال السرور عليهم ، وتجديد عهد ولايتهم . واحياء أمرهم ، واعلاء كلمتهم ، وتبكيت أعدائهم . وكل واحد من هذه الامور مما لايخفى عظيم أجره وجزيل ثوابه . وكيف لاتكون زيارتهم أقرب القربات ، وأشرف الطاعات ،

---

(٥٧) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢١ .
(٥٨) آل عمران ، الاية : ١٦٩ .

مع ان زيادة المؤمن — من جهة كونه مؤمنا فحسب — عظيم الاجر جزيل الثواب ، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة ، ولذلك كثر تردد الاحياء الى قبور أمواتهم للزيارة ، وتعارف ذلك بينهم ، حتى صارت لهم سنة طبيعية ، وأيضا قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله ، وثواب صلته وبره وادخال السرور عليه . واذا كان الحال في المؤمن من حيث انه مؤمن فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ ، وطهره من الرجس ، وبعثه الله الى الخلائق أجمعين ، وجعله حجة على العالمين ، وارتضاه اماما للمؤمنين ، وقدوة للمسلمين ، ولأجله خلق السماوات والارضين ، وجعله صراطه وسبيله ، وعينه ودليله ، وبابه الذي يؤتى منه ، ونوره الذي يستضاء به ، وأمينه على بلاده ، وحبله المتصل بينه وبين عباده ، من رسل وأنبياء وأئمة واولياء .

ثم ، الاخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والائمة — عليهم السلام — مما لاتحصى كثرة . قال رسول الله (ص) : « من زار قبري بعد موتي . كان كمن هاجر الي في حياتي ، فان لم تستطيعوا فأبعثوا الي بالسلام ، فانه يبلغني » . وقال (ص) لأمير المؤمنين (ع) : « ياأبا الحسن ، ان الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة ، وعرصة من عرصاتها ، وان الله جعل قلوب نجباء من خلقه ، وصفوة من عباده ، تحن اليكم ، وتحتمل المذلة والاذى فيكم ، فيعمرون قبوركم ، ويكثرون زيارتها ، تقربا منهم الى الله ، ومودة منهم لرسوله ، أولئك ياعلي المخصوصون بشفاعتي ، والواردون حوضي ، وهم زواري وجيراني غدا في الجنة . ياعلي ، من عمر قبورهم وتعاهدها ، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس ، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام ، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته امه . فأبشر ، وبشر أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين ، بما لاعين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم ، كما تعير الزانية بزناها ، اولئك شرار أمتي ، لاتنالهم شفاعتي ، ولا يردون

حوضي » [٥٩] . وقال الصادق (ع) : « لو أن احدكم حج دهره ، ثم لم يزر الحسين بن علي — عليهما السلام — ، لكان تاركا حقا من حقوق رسول الله (ص) ، لأن حق الحسين (ع) فريضة من الله واجبة على كل مسلم » . وقال الرضا (ع) : « ان لكل امام عهدا في عنق اوليائه وشيعته، وان من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء زيارة قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم ، وتصديقا بما رغبوا فيه ، كان أئمته شفعاءه يوم القيامة » . والاخبار في فضل زيارة النبي والائمـة المعصومين ، لاسيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا — عليهم أفضل التحية والثناء — ، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد ، أكثر من أن تحصى ، وهي مذكورة في كتب المزار لاصحابنا ، فلا حاجة الى أيرادها هنا .

فصـــل

ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة

واذا عرفت فضل زيارتهم وسرها ، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم ، فينبغي ان تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم ، ومراقدهم المنورة ،ومشاهدهم المكرمة ، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم ، وتعرف عظيم حقهم ، وغاية جدهم وسعيهم في ارشاد الناس واعلاء كلمة الله .

فاذا قربت المدينة المنورة ، ووقع بصرك على حيطانها ، تذكر انهـا البلدة التي اختارها الله لنبيه (ص) ، وجعل اليها هجرته ، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسننه ، وجاهد عدوه ، وأظهر بها دينه ، ولم يزل قاطنا بها الى أن توفاه الله ، وجعل تربته فيها .

ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله (ص) عند ترددانك فيها ، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه الا وهو موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه الا على سكينة ووجل ، وكن متـذكرا لمشيه وتخطيه في سككها ، وتصور سكينته ووقاره ، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه ، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره ، حتى قرنه بذكر نفسه ، وأنزل عليه كلامه العزيز ، وأهبط عليه روح الامين وسائر ملائكته المقربين ، وأحبط

---

(٥٩) صححنا الحديث على ((مستدرك الوسائل) : ٢/ ١٩٥ — ١٩٦، كتاب الحج ، ١٠ ، ابواب المزار وما يناسبه .

عمل من هتك حرمته ، ولو برفع صوته فوق صوته • ثم تذكر مامن الله به على الذين أدركوا صحبته ، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه ، وأعظم تأسفك على مافاتك من صحبته ، وتضرع الى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة ، ولتعظم رجاءك في ذلك ، بعد ان رزقك الله الايمان ، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته ، محبة له ، وتشوقا اليه •

ثم اذا دخلت مسجده ، فتذكر ان أول موضع اقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة ، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حيا وميتا ، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك أياه خاشعا معظما ، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن •

ثم اذا أتيته للزيارة ، فينبغي ان تقفه بين يديه خاضعا خاشعا خائفاً ، وتزوره ميتا كما تزوره حيا ، ولا تقرب من قبره الا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا ، اذ لافرق بين ميته وحيه ، ولو وجدت التفرقة فيقلبك لما كنت مؤمنا ، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك ، وانه يبلغه سلامك وصلواتك • فمثل صورته الكريمة في خيالك ، جالسا على سرير العظمة بحذائك ، وأحضر عظيم رتبته في قلبك ، وقد ورد أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته • وهذا في حق من لم يحضر قبره ، فكيف بمن فارق الاهل والوطن ، وقطع البوادي شوقا الى لقائه ، واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور ، اذ فاتته مشاهدة طلعته البهية، وغرته الكريمة • وقد قال (ص)، : « من صلى عليَّ مرة ، صليت عليه عشرا » • فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟

واذا فرغت من زيارته ، فأت المنبر وامسحه بيدك ، وخذ برمانتيه ، وامسح بهما وجهك وعينيك ؛ وتضرع الى الله ، وابتهل اليه ، واسأل حاجتك • وتوهم صعود النبي (ص) المنبر ، ومثل في قلبك طلعته البهية، قائما على المنبر ، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والانصار ، وهو يحمد الله بأفصح الكلمات واللغات ، ويحث الناس على طاعة الله • واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك ، ويجعلك في جواره ، ويعطيك منزلا

في قرب داره •

فصـــل

ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربـلاء

واذا دخلت أرض النجف لزيارة امير المؤمنين وسيد الوصيين (ع) ، تذكر أنها وادي السلام ، ومجمع أرواح المؤمنين ، وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع ، وجنة المؤمنين • فما من مؤمن خالص الا وبعد الموت يأتى روحه اليها ، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين ، الى ان يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى • وقد أكد شرافتها وعظم قدرها ، بأن جعلها مدفن وصى رسوله ، بعد أن كانت مدفن آدم أبى البشر ، ونوح شيخ المرسلين ــ عليهما السلام ــ • فأسأل الله ان يأتى بروحك اليها ، ويدخلك في زمرة المؤمنين ، ويجعلها محل دفنك ، لتنالك شفاعة مولاك (ع) ، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادي برهوت •

واذا أتيت لزيارته ، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله ، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله (ص) •

واذا أردت ارض كربلاء ،لزيارة سيد الشهداء (ع) ، فتذكر انهذه الارض هي التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه واجناده ، وأسرت فيها أهاليه وأهل بيته ، فجدد الحزن على قلبك ، وادخلها أشعث اغبر ، منكسر الحال ، محزون القلب ، كئيبا حزينا باكيا ، وأحضر في قلبكحرمة هذه الارض وشرافتها ؛ فانها الارض التي في تربتها الشفاء ، ولا يرد فيها الدعاء ، وقد يجعلها الله يوم القيامــة ارفع بقاع الجنة ، فتردد فيها على سكينة ووجل •

ثم اذا دخلت الحائر للزيارة ، ووقع بصرك على ضريحه المنور ، ثم على ضريح اصحابه المستشهدين معه ، المجتمعين في موضع واحد في جواره، فمثل فيقلبك اشخاصهم ، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن واحضر في نفسك أبا عبدالله الحسين (ع) واقفا في عرصة كربلاء ، ويأتى أصحابه واحدا واحدا يستأذن منه للجهاد ، قائلا : السلام عليك يأبا عبدالله وهو يأذن له ، ويلقى نفسه في الميدان على الجم الغفير ، فيقتل في سبيله ،

واذا أيس من حياته ، ينادي بأعلى صوته : ادركني ياأبا عبدالله ! وهو (ع) يسرع اليه كالصقر المنقض ، ويأخذ جثته من الميدان ، ويلحقه بسائر أخوانه الشهداء . فمثل في نفسك أمثال ذلك ، وجدد عليهم الحزن والبكاء ، وتمن كونك معهم في تلك العرصة ، وقل : ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما !

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته (ع) ، وقس على ذلك زيارة كل واحد من الائمة — عليهم السلام — ، فانه ينبغي لك ان تستحضر ، عند حضورك كل واحد منهم ، جلال شأنه ، وعظمة قدره ، وعظيم حقه ، وتتذكر مايناسب حاله ، وما جرى عليه ، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه ، من التعظيم ، والاجلال ، والخوف ، والحزن ، والفرح ، وامثال ذلك .

هذا آخر كتاب (جامع السعادات) ، والحمد لله على اتمامه ، واسأل الله ان يجعلنا من العاملين به ، وينفع به جميع عباده السالكين اليه . وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه ، في سلخ شهر ذي القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة بعد الالف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها الف الف سلام وتحية .

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)

فهرس الجزء الثالث من (جامع السعادات)

مطبعة النعمان ــ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

